

جيروم كيه جيروم

صور
بلونَي اللافندر: الأزرق والأخضر

ترجمة نيڤين حلمي عبد الرؤوف

صور بلونَي اللافندر: الأزرق والأخضر

تأليف
جيروم كيه جيروم

ترجمة
نيڤين حلمي عبد الرؤوف



صور بلونَي اللافندر: الأزرق والأخضر

جيروم كيه جيروم

Sketches in Lavender, Blue and Green

Jerome K. Jerome

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٩٤ ٣

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٩٧.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

بلون زهور اللافندر الزرقاء،[١]
بلون عيدان اللافندر الخضراء،
عندما أصير ملكًا،
ستكونين مليكتي.
استدعي رجالك،
وأرسليهم للعمل.
بعضهم سيحرث الأرض،
وبعضهم سيجر العربات.
بعضهم سيكوم القش،
وبعضهم سيحصد الذرة.
أما أنا وأنت،
فسننعم بالدفء معًا.

---

[١] أغنية «Lavender's Blue» أغنية أطفال إنجليزية تقليدية وأغنية شعبية يعود أصلها إلى القرن السابع عشر. تبدَّلت كلماتها وظهرت نسخٌ مختلفة منها على مر القرون. ورغم كونها، في الأصل، لحنًا خفيفًا ومرحًا، فأنها عكست، في نسخها المتنوعة، العديد من المعاني الثقافية والأسرية المختلفة، وجسدت موضوعات شتى مثل الحب والزواج، والحكم الملكي، والعمل.

ريجينالد بلايك: رجل أعمال ووغد

يتفوق الأدب على الحياة بشخصياته المرسومة بوضوح، والمتسقة في سلوكها. أما الطبيعة، فدائمًا ما تعوزها اللمسة الفنية، وتستمتع بخلق المستحيل. كان ريجينالد بلايك نموذجًا معهودًا من الأوغاد الحَسني التربية الذين يلقاهم المرء عادةً في المنطقة بين ميدان بيكاديلي وتقاطُع هايد بارك كورنر.

كان قاسيًا بلا ذرَّة عطف، وذكيًّا دون بصيرة؛ لذا لم تمثِّل له الحياة أي مشكلة، وكان يتذوَّق ملذَّاتها دون شعور بالذنب. كانت فكرته عن الأخلاق هي مراعاة تعليمات الطبيب من ناحية ومحاذير القاضي من الناحية الأخرى. ونظرًا إلى حرصه الدائم على الالتزام بأوامر هذين الاثنين، فقد ظلَّ متمتِّعًا بصحته في سن الخامسة والأربعين رغم امتلاء جسده، ونجح في تحقيق المعادلة الصعبة التي تتمثَّل في جمع ثروة دون أن يُزج به في سجن هولوواي. كان التنافر بينه وبين وزوجته إيديث (التي كانت تُدعى الآنسة إيبنجتون قبل الزواج) لا مثيل له إلا في خيال كاتب يبحث عن فكرة لمسرحية تعالج المشكلات الاجتماعية. فبينما كانا يقفان أمام المذبح في صباح يوم الزفاف، بدَوَا كأنما يرمزان لمفهومي الشهوانية والبراءة. كانت إيديث تصغره بأكثر من عشرين عامًا، وكانت جميلةً جمال العذراء في لوحات الرسام الإيطالي رافاييل، حتى إنَّ لَمْسَه إياها بدا تدنيسًا للمقدسات. رغم ذلك، في فصل من فصول حياتهما، لعب بلايك، للمرة الأولى في حياته، دور السيد المهذَّب الكريم الأخلاق؛ في حين ارتضت السيدة بلايك لنفسها دورًا وضيعًا، لا يبرِّره كونها امرأة تحب.

كان زواجهما زواج مصلحة بالطبع. ولدواعي الإنصاف، لم يتظاهر بلايك بأنه يكنُّ لها مشاعر تزيد على الإعجاب والتقدير. إن السلوك المنحرف يصير مملًّا أسرع من غيره. وقد رغب بلايك في دغدغة حواسه المتبلِّدة عَبْر عيش حياة جديرة بالاحترام وتجربة صُحبة

امرأة صالحة على سبيل التغيير. جذبه وجه الفتاة مثلما يجذب ضوء القمر رجلًا سئم الضوضاء في غرفة حارة، فأسند جبهته على زجاج النافذة. ولأنه معتادٌ على تقديم عروض لشراء أيٍّ مما يريد، فقد عرض الثمن الذي يرغب في دفعه. كان آل إيبنجتون فقراء وكثيري العدد. وكانت الفتاة قد تربَّت على أفكار خطأ حول الواجب، ترسَّخَت في ذهنها بفعل تصوُّر ضيِّق للأعراف والتقاليد، فضلًا عن شغفها بفكرة التضحية في حد ذاتها مثل عادة النساء؛ لذا سمحت لأبيها بالتفاوض للحصول على سعر أعلى، ثم باعت نفسها.

تستلزم الدراما المسرحية من هذا النوع وجود حبيب، إذا أردنا أن تثير تعقيداتها اهتمام العالم الخارجي. كان هاري سينيت شابًّا يتمتَّع بقَدْر لا بأس به من الوسامة، على الرغم من ذقنه التي ينقصها البروز، وقد لعب هذا الدور بدافع من حُسن النية على الأرجح، لا من حُسن الإدراك. رضخ هاري في خنوع لهذا الترتيب الجديد بفضل تأثير إيديث عليه؛ إذ كانت صاحبة الشخصية الأقوى. ونجح كلٌّ منهما في إقناع نفسه بأنه يتصرف بنبل. وفي لقاء الوداع، الذي تحدَّد في الليلة السابقة لعَقْد القِران، كان انفعالهما سيُناسب الموقف لو كانت إيديث هي جان دارك العصر الحديث التي توشك على التضحية بسعادتها في سبيل قضية نبيلة؛ وبما أنها لم تكُن سوى فتاة تبيع نفسها لعيش حياة من الدعة والرفاهية، ودافعها في هذا لا يزيد على الرغبة في تمكين مجموعة من الأقارب، تتفاوت درجة استحقاقهم، من مواصلة العيش بما يتجاوز مصادر دَخْلهم المشروعة، أظن أن عاطفتهما اتسمت بالمبالغة. ذرف كلاهما الدمع الغزير وتفوَّها بعبارات الوداع الأبدي، ولو أن شخصًا أكثر خبرة عرف أن محل إقامة إيديث الجديد لن يبعد سوى بضعة شوارع عن منزلها القديم، وأن الوسط الاجتماعي المحيط بهما لن يتغيَّر بحُكم الضرورة، لربما نصحهما بأن يتحلَّيا بالأمل. وبعد الزواج بثلاثة أشهر، وجدا أنفسهما يجلسان جنبًا إلى جنب على طاولة العشاء نفسها، وبعد قليل من الأخذ والرد الميلودرامي حول ما أطلقا عليه في سرور «تصاريف القدر»، استأنفا وضعهما المعتاد.

كان بلايك يعي تمامًا أن سينيت حبيب إيديث السابق. وعلم كذلك أن نحو ستة رجال آخرين، بعضهم أصغر منه وبعضهم يكبرونه سنًّا، كانوا يحبونها أيضًا. لم يشعر بإحراج، عند ملاقاتهم، يزيد عما قد يشعر به على رصيف البورصة وهو يسلِّم على زملائه من سماسرة الأوراق المالية في نهاية يوم شهد انتقال ثروة طائلة من جيوبهم إلى جيبه. كان معجبًا بسينيت بالذات وكان يشجعه. إن نظامنا الاجتماعي كله، الذي طالما حيَّر الفلاسفة، يدينُ بوجوده إلى تمتُّع قلة فحسب من الرجال والنساء بالذكاء الكافي الذي يمكِّنهم من

الاستمتاع بصحبة أنفسهم. كان بلايك يحب صحبة الناس، لكنَّ قليلًا من الناس أحبوا صحبته. رغم ذلك، كان في وسعه دومًا الاعتماد على سينيت الشاب لكسر رتابة الحوار في المنزل. جمع الرجلَين حبُّهما الرياضة. وبما أن معظمنا يتحسَّن حُكمه على الآخرين بعد أن تتوثق معرفتنا بهم، بدأ كلٌّ منهما يرى سمات حَسَنة في الآخر.

في إحدى الليالي، بينما كان الزوجان جالسَين وحدهما يُنصتان إلى وقع خطوات سينيت على الرصيف الخالي بعدما غادر منزلهما، قال بلايك لزوجته، بأسلوب يجمع بين الجد والهزل: «ذلك هو الرجل الذي كان يتعيَّن عليك الزواج منه.» ثم أضاف: «إنه شاب صالح، ليس آلةً لجمع المال مثلي.»

وبعد ذلك بأسبوع، قال سينيت فجأةً لإيديث وهما جالسان وحدهما: «إنه رجل أفضل مني، أنا لا أجيد سوى الخُطب الرنانة، وأقسم لكِ بشرفي أنه يحبك. أليس من الأفضل أن أسافر إلى الخارج؟»

ردَّت إيديث: «كما تحب.»

فسألها: «ماذا ستفعلين حينئذٍ؟»

أجابته ضاحكة: «سوف أقتل نفسي، أو أهرب مع أول رجل يطلب مني ذلك.»

وهكذا، بقي سينيت في البلاد.

ساعد بلايك على تسهيل الأمور لهما. فلم يجدا داعيًا إلى الشعور بالخوف أو مراعاة الحذر. في واقع الأمر، كان المسار الأكثر أمنًا لهما هو التصرُّف بطيش، وقد اتبعا هذا المسلك. فالمنزل كان مفتوحًا على الدوام لاستقبال سينيت. وفي حال انشغال بلايك بما يمنعه عن الخروج بصحبة زوجته، كان يقترح أن تخرج مع سينيت بدلًا منه. هز أصدقاؤه في النادي أكتافهم في حيرة. وتساءلوا: أهو خاضع كليًّا لسيطرة زوجته؛ أم سئم منها، وينفِّذ خطة شيطانية من بنات أفكاره؟ رأى معظم معارفه أن الاحتمال الثاني يبدو أكثر معقولية.

وبمرور الوقت بلغت الشائعات بيت أبوَيها. صبَّت السيدة إيبنجتون جام غضبها على زوج ابنتها. لكن الأب، وهو رجل حذِر بطبعه، مال إلى لوم ابنته لأنها لا تُراعي الحيطة في تصرفاتها.

فعلَّق قائلًا: «سوف تدمِّر كل شيء.» وأضاف: «لماذا لا تراعي الحذر بحق الجحيم.»

قالت السيدة إيبنجتون: «هذا الرجل يخطِّط للتخلُّص منها.» ثم أردفت: «سوف أخبره برأيي هذا صراحةً.»

رد عليها زوجها متحدثًا بأريحية الرجل في بيته: «يا لكِ من حمقاء يا هانا!» ثم أضاف: «لو اتضح أنكِ على حق، فسوف تعجِّلين بحدوث الأمر؛ وإن كنتِ مخطئة، فسوف

تحيطينه علمًا بما لا حاجة له بمعرفته. دعي الأمر لي. يمكنني جسُّ نبضه دون أن أفصح عن شيء، وفي غضون ذلك تحدثي أنتِ مع إيديث.»

وهكذا، تقرَّرت كيفية التعامل مع المسألة، بَيْد أن الحوار بين الأم وابنتها لم يحسِّن من الوضع شيئًا. تحدثت السيدة إيبنجتون من المنظور الأخلاقي التقليدي، لكن إيديث صارت تتمتع بفكر مستقل، وكانت تفكر متأثرةً بأجواء خبيثة. صاحت السيدة إيبنجتون، بعدما أثار تبلُّد إحساس الفتاة غضبها: «ألا تشعرين بالخزي؟»

ردت إيديث: «كنت أشعر به قبلًا، قبل أن آتي لأعيش هنا. هل تعلمين ما يمثله هذا المنزل لي، بما يحتويه من مرايات مذهبة وأرائك وسجاجيد ناعمة؟ هل تعلمين ما أكون، وما كُنتُه طوال السنتين الماضيتَين؟»

نهضت الأم وعلى وجهها نظرة مذعورة متضرِّعة، في حين توقفت الابنة عن الحديث وتحولت نحو النافذة.

تابعت السيدة إيبنجتون حديثها قائلةً: «لقد ظننا جميعًا أن هذا الزواج كان في مصلحة الجميع.» استأنفت الفتاة حديثها في سأم دون أن تستدير.

قالت: «كل عمل تافِه تقرَّر فعله في يوم من الأيام ارتُكب بدافع أنه في مصلحة الجميع. أنا نفسي ظننت أنه الحل الأفضل. كل شيء كان سيصير في غاية البساطة لو لم نكُن على قَيْد الحياة. لا تطلبي مني أن نتحدث. فأنتِ على حق في كل ما تقولينه.»

ساد الصمت بعض الوقت، وتعالت دقات الساعة الخزفية الألمانية فوق رف المدفأة، كأنما تقول: «أنا الزمن، أنا هنا. أيها البشر الفانون، لا تضعوا خططكم وتنسوني؛ أنا قادر على تغيير أفكاركم ورغباتكم. لستم سوى دُمًى خاضعة لتحكُّمي.»

وأخيرًا سألتها السيدة إيبنجتون: «ماذا تنوين فعله إذَن؟»

ردَّت الفتاة: «أنوي؟ أنوي فعل الصواب بالطبع. جميعنا ننوي ذلك. سوف أخبر هاري أن يبتعد عني وأودعه بالقليل من الكلمات المختارة بعناية، وسوف أتعلم أن أحب زوجي وأن أرضى بحياة زوجية هادئة وهانئة. آه، ما أسهل النوايا!»

وتغضن وجه الفتاة في ضحكة جعلتها تبدو عجوزًا. في تلك اللحظة، كان وجهها قاسيًا وشريرًا، وتذكرت الأم بلوعةٍ مفاجئةٍ وجه ابنتها الآخر، الذي يشبه هذا الوجه كثيرًا ولا يشبهه مطلقًا رغم ذلك، وجه الفتاة البريء الحلو الذي كان يُضفي على بيتها الكئيب لَمْحة وحيدة من لمحات النُّبل. ومثلما نرى امتداد الأفق كله في وَمْضة البرق، رأت السيدة إيبنجتون حياة طفلتها تتجسَّد أمام عينيها. اختفت الغرفة المذهَّبة المزدحمة بالأثاث.

وجدت نفسها تلعب مع طفلة شقراء واسعة العينين، الوحيدة التي فهمت الأم شخصيتها ممَّن أنجبَت، ألعابًا ممتعة في ضوء الشفق، تحاوطهما ظلال عُلِّيَّة المنزل الضيقة. في لحظة كانت تصير الذئب الذي يهاجم إيديث، ذات الرداء الأحمر، بالقبلات. وفي اللحظة التالية كانت الأمير في قصة سندريلا، ثم صارت أختيها الشريرتين. لكن في لعبتهما المفضلة، كانت السيدة إيبنجتون تتظاهر بأنها أميرة جميلة سحَرَها تنين شرير فصارت عجوزًا هرِمة. لكن إيديث ذات الشعر المموَّج قاتلت التنين، الذي كان حصانًا هزَّازًا بثلاث أرجُل، وأزهقت روحه وهي تصيح وتلوح بشوكة تحميص الخبز. عندئذٍ كانت السيدة إيبنجتون تتحوَّل مجددًا إلى أميرة جميلة ثم ترتحل مع إيديث عائدةً إلى بلدتها وأهلها.

وبينما كانتا تلعبان معًا في وقت الغروب، كانت تنسى سوء سلوك زوجها المستبد، ولجاجة الجزار الذي تتعامل معه الأسرة، وتفاخُر ابنة العم جين التي لديها خادمان بمنزلها.

كانتا تفرغان من اللعب، وحينها كان الرأس الصغير ذو الشعر المموَّج يستريح في حضنها طوال «خمس دقائق من الحب»، بينما يصوغ عقل الفتاة الصغير، الذي لا يهمد، السؤالَ الأبدي الذي يطرحه الأطفال منذ الأزَل بآلاف الصور والأشكال: «ما الحياة يا أمي؟ أنا ما زلت صغيرة، لكني أفكر وأفكر حتى ينتابني الخوف. قولي لي يا أمي، ما الحياة؟»

تُرى هل تعاملت مع تلك الأسئلة بحكمة؟ ألم يكن من الأفضل أن تنظر إليها بجدية أكبر؟ هل يمكن على أي حال أن يتدبر المرء حياته مسترشدًا فحسب بالأقوال المأثورة في كتب تعليم الخط؟ لقد أجابت على أسئلة ابنتها بالإجابات نفسها التي تلقتها منذ زمن بعيد عندما كانت تتساءل. ألم يكن من الأفضل أن تفكر بنفسها؟

فجأةً وجدت إيديث راكعة على الأرض بجوارها، وهي تخاطبها قائلة: «سأحاول أن أفعل الصواب يا أمي.»

يا لتلك العبارة الطفولية القديمة، التي نهتف بها جميعًا! فنحن ما زلنا أطفالًا، حتى تُقبِّلنا الطبيعة الأم وتأمرنا بالخلود إلى النوم.

أحاطت كلٌّ منهما الأخرى بذراعَيها، وهكذا عادتا أمًّا وطفلتها. ومرَّة أخرى، عثر عليهما ضوء الشفق، الذي طالما صاحبهما في العُلِّيَّة القديمة، وهو ينسل من الشرق نحو الغرب.

حقَّق اللقاء بين الطرفَين الذكوريين مزيدًا من النتائج، لكنه لم يجرِ بكياسة وحرص كما تمنَّى السيد إيبنجتون، رغم أنه طالما افتخر بلباقته. فقد تجلَّت على الرجل أمارات

الإحراج عندما حانت لحظة الحديث، وشرع يتفوَّه بتعليقات فارغة كان من الواضح أنها محاولة لتأجيل الكلام في موضوع مزعج، حتى إن بلايك، الذي طالما اتسم بصراحة فظَّة، بَيْد أنها لم تنمَّ عن سوء خُلق، سأله: «كم تريد؟»

شعر السيد إيبنجتون باضطراب.

أجاب مرتبكًا: «لا، لا أقصد ذلك، ليس هذا ما جئت بشأنه.»

فسأله بلايك: «ما هو ذلك الشأن إذَن؟»

لعن السيد إيبنجتون نفسَه في سِرِّه على حماقته، التي ربما كان لها ما يبرِّرها. لقد اعتزم أن يلعب دور المحقِّق الذكي، الذي يتحصل على المعلومات دون أن يكشف أوراقه؛ بَيْد أنه وجد نفسه، دون قصد، واقفًا على منصة الشهود.

رد بإجابة باهتة: «لا شيء أبدًا، لقد جئتُ للاطمئنان على أحوال إيديث فحسب.»

رد بلايك: «لم تتغير أحوالها منذ عشاء ليلة أمس، عندما كنت أنت حاضرًا.» ثم أردف قائلًا: «هيا، أفصِح عما تريد قوله.»

بدا للسيد إيبنجتون أن الإفصاح صار الخيار الأفضل، فقرَّر أخذ زمام المبادرة.

قال وهو يدور بعينَيه سريعًا في أرجاء الغرفة كي يتأكد أنهما وحيدَين: «ألا تظن أن سينيت الشاب يتردَّد أكثر من اللازم على هذا البيت؟»

حدَّق بلايك فيه.

تابع الرجل حديثه: «نحن نعلم بالطبع أنه لا داعي إلى القلق، فسينيت شاب في غاية اللطف، وإيديث لا غبار عليها. الأمر سخيف قطعًا، لكن ...»

سأل بلايك: «لكن ماذا؟»

رد السيد إيبنجتون: «الناس سوف يتحدثون.»

سأل بلايك مجددًا: «ماذا سيقولون؟»

هزَّ الرجل الآخر كتفَيه في حيرة.

عندئذٍ نهض بلايك. كانت ترتسم على وجهه نظرة قبيحة عندما يشعر بالغضب، وكان يميل إلى استخدام ألفاظ فجة.

قال ما معناه: «قل لهم أن يهتموا بشئونهم، ويدَعوني أنا وزوجتي في حالنا.» بَيْد أنه عبَّر عن نفسه بعبارات أشد غلظة.

هتف السيد إيبنجتون: «لكن يا عزيزي بلايك، بربك، هل ترى حكمة في ذلك؟ لقد كانا يميلان بعضهما إلى بعض قبلًا، لم تكُن علاقة جدية، لكنها تضفي مصداقية على

الشائعات. أرجو أن تلتمس لي العذر، فأنا أبوها، ولا أحب أن أسمع الناس تلوك سيرة ابنتي.»

رد زوج ابنته بخشونة: «لا تُنصت إذَن إلى ثرثرة حفنة من الحمقى.» بَيْد أن تعبيرًا أهدأ ارتسم على وجهه في اللحظة التالية، ثم وضع يده على ذراع الأب.

وأردف قائلًا: «ربما يمتلئ العالم بالنساء الصالحات، لكني لا أعرف سوى واحدة منهن، وهي ابنتك. لو جئت لتخبرني أن بنك إنجلترا يمر بمصاعب مالية، كنت سأنصت إليك.»

لكن كلما زادت قوة الإيمان، تعمقت جذور الشك. لم يتفوَّه بلايك بكلمة أخرى حول هذا الموضوع، وظلَّ سينيت ضيفًا مُرحَّبًا به في المنزل كسابق عهده. رغم ذلك، كانت إيديث تلاحظ، عندما ترفع عينَيها فجأةً، أن عينَي زوجها تحدِّقان فيها بنظرة مضطربة، نظرة مخلوق أعجم يحاول الفهم؛ وكثيرًا ما كان ينسلُّ خارجًا وحده في المساء ويعود بعد ساعات متعبًا وعلى ملابسه آثار طين.

حاول أيضًا إظهار عاطفته نحوها. وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه. كانت ستتحمل حدَّة الطبع، أو حتى سوء المعاملة. لكن مداعباته المرتبكة، وعبارات الحب الخرقاء المتلعثمة التي صار ينطق بها كانت تثير اشمئزازها. لم تكُن تدري أتضحك عليه أم تصفع وجهه المتطلع نحوها. كان تعلُّقه السمج بها أشبَه بعطر ثقيل يكاد يخنقها. باتت تتمنى أن تنفرد بنفسها للحظات وجيزة كي تستجمع أفكارها! لكنه كان يُلازمها نهارًا وليلًا. في بعض الأحيان، كانت تراه يتضخم حين يعبُر الغرفة تجاهها حتى يصير فوقها، فيبدو لها وحشًا بلا ملامح كالذي يراه الأطفال في الكوابيس. حينئذٍ كانت تظل جالسة، وشفتاها مُطبَقتان بإحكام ويداها متشبِّثتان بالكرسي خشية أن تشرع في الصراخ.

لم تعُد تفكِّر إلا في الهروب منه. وفي أحد الأيام، جمعت في عجالة بعض اللوازم الضرورية في حقيبة يد صغيرة وتسلَّلَت من المنزل دون أن يشعر بها أحد. ثم ذهبت إلى محطة تشارينج كروس، لكن القطار الأوروبي كان سينطلق بعد ساعة؛ لذا أُتيح لها بعض الوقت كي تتدبر المسألة.

عندئذٍ بدأت تشكُّ فيما قد يحقِّقه هروبها من نفع. فمخزونها الضئيل من المال سوف يتبدَّد سريعًا؛ فكيف ستعيش وقتها؟ سوف يعرف مكانها ويتتبعها. الوضع كله ميئوس منه!

ثم فجأةً استحوذت عليها رغبة عارمة في الحياة، وشعرت بدمائها الشابة تفور غاضبة في وجه اليأس. لمَ يجب عليها أن تستسلم للموت قبل أن تعرف الحياة؟ لمَ ينبغي لها أن

تركع أمام هذا الطاغوت المدعو «احترام الناس»؟ كانت البهجة تدعوها؛ لم يمنعها من مدِّ يدَيها نحوها سوى جُبنها. عادت إلى منزلها بعدما صارت امرأة مختلفة، امرأة يحدوها الأمل.

بعد ذلك بأسبوع، دلف رئيس الخدم إلى غرفة الطعام في منزل بلايك وسلَّمَه خطابًا مُوجَّهًا إليه، مكتوبًا بخط يد زوجته. تناوله منه دون كلمة، كأنما كان يتوقعه. أبلغه الخطاب ببساطة أن زوجته قد هجرته إلى الأبد.

العالم صغير، والمال يشتري الكثير من الخدمات. كان سينيت قد خرج كي يتمشَّى، وترك إيديث وحدها في غرفة الاستقبال البالغة الصِّغَر في شقتهما بمدينة فيكامب الفرنسية. كانا قد وصلا إلى المدينة منذ يومين. سمعت إيديث الباب ينفتح ثم يغلق، ثم رأت بلايك واقفًا أمامها.

نهضت في خوف، لكنه طمأنها بإيماءة منه. كان يحيط به وقار هادئ، بدا لها غريبًا.

سألته: «لمَ تبعتني؟»

أجابها: «أرغب في أن تعودي إلى المنزل.»

صاحت: «أعود إلى المنزل؟» ثم أردفت: «لقد جُننتَ حتمًا. ألا تعلم ...؟»

قاطعها محتدًّا: «لا أعلم شيئًا، ولا أريد أن أعلم شيئًا. عودي إلى لندن في الحال. لقد رتَّبتُ كل شيء؛ لن يشك أحد في الأمر. لن أكون بالمنزل؛ ولن تريني مجددًا أبدًا، لكن سيُتاح لك فرصة إصلاح خطئك؛ بل خطئنا.»

استمعَت إليه. لم تتسم طبيعتها بنُبل كبير، وكانت تتملكها رغبة قوية في نيل السعادة دون دفع الثمن. قال لها ألا تعبأ بسُمعته. سيقول الناس إنه قد عاد إلى الوسط الخبيث الذي جاء منه، وقليل منهم سوف يفاجئهم هذا. سوف تستمر حياته كسابق عهدها، وسوف يُشفق الناس عليها فحسب.

استوعبت خطته إلى حدٍّ معقول؛ بدا لها قبول عرضه تصرُّفًا وضيعًا منها، وعارضته بحجج واهية. لكنه تغلَّب على جميع اعتراضاتها. أخبرها أنه سيفضِّل، من أجل مصلحته الخاصة، أن ترتبط الفضيحة باسمه هو لا باسم زوجته. وبينما يكشف لها عن تفاصيل مخططه، بدأت تشعر أنها تؤدي له معروفًا بقبولها إياه. بل وجدت نفسها تضحك على تقليده لما سيقوله فلان وعلان من معارفهم. ارتفعت روحها المعنوية؛ فالمسرحية التي أوشكت أن تصير مأساة مؤلمة تحولت إلى ملهاة.

بعدما رتَّبا كل شيء، نهض كي يغادر، ومدَّ لها يده. وبينما تنظر إلى وجهه جذبها شيء ما في التعبير المرتسم على شفتَيه. قالت له: «سوف ترتاح مني.» ثم أضافت: «لم أجلب لك سوى المتاعب.»

ردَّ قائلًا: «آه، المتاعب.» ثم أردف قائلًا: «ليت الأمر اقتصر على ذلك! الرجل يستطيع تحمُّل المتاعب.»

سألته: «ماذا جلبتُ لك غير ذلك؟»

دارت عيناه بلا هدف في أرجاء الغرفة. ثم قال: «علموني الكثير من الأشياء في صباي. كانت أمي والآخرون حسني نية، لكني اكتشفت عندما كبرت أن ما علموني إياه لم يكن سوى أكاذيب؛ لذا صرت أعتقد أن الخير في العالم غير حقيقي، وأن الشر يكمن في جميع الناس والأشياء. ثم حدث أن ...»

حينئذٍ كانت عيناه الشاردتان قد رستا عليها، فأنهى كلامه بغتة قائلًا: «وداعًا»، وفي اللحظة التالية غادر المنزل.

جلست إيديث تفكِّر في حيرة فيما كان يقصده. ثم عاد سينيت، فتبخَّرَت كلماته من ذاكرتها.

تعاطف الكثير من الناس مع حرم السيد بلايك. لقد كانت زوجة في غاية اللطف، وكان في وسع زوجها أن يظلَّ وفيًّا لها، لكن بلايك، على حد تعبير أصدقائه، «طالما كان وغدًا».

امرأة عصرية ذكية

أعترف بأني لا أحب كونتيسة مقاطعة ... فهي ليست من نوع النساء الذي قد أحبه. ولا أتردَّد كثيرًا في التعبير عن شعوري هذا لأني على قناعة بأن الكونتيسة لن تحزن كثيرًا إنْ بلَغَها كلامي. فلا أستطيع تصوُّر أن كونتيسة ... قد يُضايقها رأي كائنٍ كان فيها، سواء من عالم البشر أو من السموات العلا، ولا يهمها سوى رأيها في نفسها.

لكن للأمانة، أقرُّ بأنها زوجة مثالية لإيرل المقاطعة. هي تتحكم به مثلما تتحكم بالآخرين جميعًا من أقارب وعاملين بالمنزل، بدءًا من راعي الأبرشية وحتى حماتها، ورغم أنها تُحكم قبضتها على شئونه، فإن حُكمها يتَّسم بالعدل والرفق، فضلًا عن أن دافعها في ذلك حسَن النية. ولا يمكن تخيُّل أن إيرل مقاطعة ... كان سيحيا تلك الحياة الهانئة مع زوجة ذات طابع أقل نزوعًا للهيمنة. إنه رجل ساذج وودود، من النوع الذي يتسم ببنية قوية وشخصية طفولية، ويحتاج إلى أن ترشده النساء في حياته في أموره كافةً، بدءًا من كيفية ربط وشاحه حول عنقه حتى اختيار الحزب السياسي الذي سينضم إليه. يحيا أولئك الرجال حياةً رغدة عندما تتولى أمورَهم نساءٌ صالحات عاقلات، لكن حالهم يصير مُزريًا إذا وقعوا تحت أيدي نساء أنانيات أو حمقاوات. وهم كثيرًا ما يقعون في شبابهم الغَض ضحايا لفتيات سيئات الخُلق والمزاج من اللاتي يغنِّين في جوقة الكنيسة أو لسيدات في منتصف العمر من الفئة التي بسببها حَكمَ الشاعر ألكسندر بوب على جميع النساء بأنهن بلا شخصية. يتحول هؤلاء الرجال إلى أزواج ممتازين شريطة أن تُحسن زوجاتهم إدارتهم؛ وإنْ تعرَّضوا لسوء المعاملة، فلن يشتكوا كثيرًا لكنهم سيشرعون — مثل القطط التي لا يُعجبها أصحابها — في البحث عن راعيات أطيب قلبًا، وعادةً ما تُكلَّل مساعيهم بالنجاح. بَيْد أن إيرل مقاطعة ... كان يعشق زوجته، ويعُدُّ نفسه من أسعد الأزواج حظًّا، وتلك الشهادة هي غاية آمال أي زوجة. وقبل أن تنجح الكونتيسة في التغلُّب على جميع

منافسيها والفوز به زوجًا، كان يلتزم بطاعة أمه التزامًا يكاد ينمُّ عن حماقة. وإذا ماتت الكونتيسة غدًا، فسوف يعجز عن إبداء رأيه في أي مسألة حتى تقرِّر ابنته الكبرى وأخته التي لم تتزوج بعد، وكلتاهما تتمتَّعان بشخصية قوية وتجمعهما صداقة قوامها العداء المتبادل، مَن منهما سوف تتولى رعايته وإدارة شئون المنزل.

بَيْد أنه لا أحد يساوره قلق حيال قدرة الكونتيسة على مواصلة توجيه الصوت الذي ورثه إيرل مقاطعة … نحو تحقيق الصالح العام ومراعاة الحس السليم، وإرشاد سياسته الاجتماعية عَبْر ما تتمتَّع به من طيبة قلب وحُسن تمييز، وإدارة أملاكه بحكمة وتدبير لسنوات كثيرة قادمة (ما لم يقع حادث ما). إنها امرأة نشيطة ضخمة الجسد تنعم بالصحة والعافية، وتجري في عروقها دماء أسلافها الأشداء، فضلًا عن أنها تعتني بنفسها عنايةً ممتازة مثلما تعتني بجميع مَن يعتمدون عليها في النصح والتوجيه.

في إحدى الأمسيات كنت أنا وزوجتي نتناول العشاء في بيت طبيب القرية، في جو عائلي بسيط، وبعدما انتقلت زوجتانا إلى غرفة الجلوس كي تأخذا راحتهما في مناقشة موضوعات تتعلق بالخدم والأزواج وغير ذلك من الأمور المنزلية، وتركتانا نحتسي النبيذ الأحمر في ضوء الشفق، قال الطبيب: «أتذكر أن الكوليرا تفشَّت في قريتنا منذ عشرين عامًا تقريبًا، وحينها تخلَّت هذه المرأة عن حضور الموسم الاجتماعي بلندن كي تبقى هنا وتأخذ على عاتقها جميع الأعباء الناجمة عن انتشار هذا الوباء. لا أشعر بوجوب مدحها على مساهمتها، فهي أحبَّت العمل وبرعت فيه على نحو فطري، بَيْد أن الجميع استفاد مما قدَّمَته. لم تكُن تخشى شيئًا. كانت تحمل الأطفال بين ذراعَيها إنْ تطلَّب الأمر نقلهم حالًا ولم تكُن عربة الإسعاف الصغيرة متاحة. ورأيتها تجلس طوال الليل في غرفة تزيد مساحتها عن المتر بقليل، بين زوج وزوجة يحتضران، دون أن يُصيبها شيء. وقبل ست سنوات، تفشَّى مرض الجُدَري، فشمَّرَت عن ساعدَيها وهبَّت للمساعدة بالطريقة نفسها. لا أظن أنها مرضت يومًا في حياتها. وسوف تظلُّ تداوي أهل الأبرشية بعدما يصير جسدي عظامًا متناثرة في قبري، وسوف تُرسي قواعد الأدب بعدما يصير التمثال الذي يعلو قبرك مَعْلَمًا مألوفًا في كنيسة وستمينستر آبي. إنها امرأة رائعة، لكنها تنزع إلى فرض هيمنتها على الآخرين بعض الشيء.»

ثم ضحك، لكنني استشعرتُ بعض الضيق في صوته. بدا أن مضيفي يتوق إلى فَرْض هيمنته هو الآخر. ولا أظن أنه سُر كثيرًا عندما استولَت هذه السيدة الأرستقراطية العظيمة بطريقتها الهادئة على كل ما يحيط بها، بما في ذلك هو نفسه وعمله.

سألني: «هل سمعتَ قصة هذا الزواج؟»

أجبتُه: «لا، زواج مَن؟ أتقصد زواج الإيرل؟»

أجابني: «بل زواج الكونتيسة منه بالأحرى. لم يكن لأهل القرية حديث سوى إلا تلك القصة عندما قدمت هنا لأول مرة، لكن أحداثًا أخرى أكثر إثارة للاهتمام وقعت بيننا وغيبتها تدريجيًّا عن الذاكرة. أعتقد أن معظم الناس تقريبًا قد نسوا أن الكونتيسة كانت تعمل في مخبز قبل زواجها من الإيرل.»

صِحتُ متعجِّبًا: «غير معقول!» وأقرُّ أن هذا التعليق يبدو أضعف تأثيرًا وهو مكتوب؛ مثلما يحدث دائمًا للتعليقات التي تتسم بأكبر قدر من التلقائية.

قال الطبيب: «تلك هي الحقيقة، ومع ذلك هي لا توحي بأنها كانت عاملة في متجر قبلًا، أليس كذلك؟ لكني عرفت كونتيسات انحدرن من نسل ويليام الفاتح مباشرةً، ورغم ذلك كُنَّ يتركن هذا الانطباع لدى المرء، ما يخلق توازُنًا ما على ما يبدو. إن ماري، كونتيسة مقاطعة ... كانت تدعى قبل ثلاثين عامًا ماري سويل، وهي ابنة تاجر أقمشة من مدينة تونتون. ورغم أن عمله كان مُربِحًا بمقاييس المشاريع التجارية في الريف، فإنه لم يكفِ لتلبية احتياجات عائلته، التي تتكوَّن من سبعة أولاد وثماني بنات، حسبما أعتقد. وهكذا اضطرت ماري، وهي صغرى شقيقاتها، إلى السَّعي لإعالة نفسها فور أن أنهَت تعليمها الوجيز. وقد جربت العمل بمهنة أو اثنتين، حتى شغلت أخيرًا وظيفة لدى ابن عم لها، يعمل خبَّازًا وحلوانيًّا، ويملك متجرًا ناجحًا في شارع أكسفورد. لا بد أنها تمتَّعَت بجاذبية ملحوظة في صباها، فهي امرأة جميلة الآن. يمكنني تخيُّل بشرتها العاجية الناعمة عندما كانت تتسم بالنضارة والصفاء، فضلًا عن أن فتيات غرب إنجلترا عادةً ما يتمتَّعن بغمَّازات وبعيون لامعة كأنما استحمَمْن لتوِّهنَّ في ندى الصباح. كان المتجر يحقِّق ربحًا جيدًا من تقديم وجبات الغداء للسيدات؛ وفي تلك الحقبة كانت هذه الوجبات تتكوَّن من كأس من نبيذ شيري والبسكويت الحلو. أظن أنها كانت ترتدي فستانًا رماديًّا أو أسود قصير الكُمَّين، مضبوطًا عليها، ويُظهر ذراعَيها الممتلئتَين، وكانت تتحرَّك سريعًا بين الطاولات ذات السطح الرخامي وهي تبتسم، فتبدو حلوة ولطيفة. وهناك رآها لأول مرَّة إيرل مقاطعة ... اللورد سي الشاب وقتها، وكان قد تخرَّج حديثًا في جامعة أكسفورد ولم يعهد بعدُ الأخطارَ التي تحيط بالشباب العزاب في لندن. كان الإيرل يصطحب بعض النساء من قريباته إلى المصوِّر، ونظرًا إلى أن الفنادق والمطاعم كانت تُعد أماكن غير ملائمة تمامًا للسيدات في تلك الأيام، فقد اضطر إلى أخذهن لمخبز سويل لتناول وجبة الغداء. أقامت ماري سويل على خدمتهم في ذلك اليوم، والآن معظم مَن لا يزالون أحياءً منهم يقومون على خدمتها.»

قلت له: «كان قرار الزواج منها قرارًا سديدًا. أُحيِّيه عليه.» فقد كنت أشعر حينها بحالة من الحب والتسامح تجاه جميع الرجال والنساء، وفيهم الأرستقراطيون أصحاب الألقاب، بفضل ذلك النوع الممتاز من النبيذ المعتَّق الذي قدَّمَه لي الطبيب.

ضحك الطبيب قائلًا: «لا أظن أنه كان له دخل كبير بالأمر، أكثر من كونه «مستعدًّا للزواج» مثل شخصية السيد باركس في رواية «ديفيد كوبرفيلد». إن قصة زواجهما عجيبة حقًّا، وبعض الناس جاهروا بأنهم لا يصدقونها، لكن مَن يعرفون الكونتيسة حق المعرفة يؤمنون قطعًا بصحتها؛ لأنها تتفق كثيرًا مع شخصيتها. فضلًا عن أني أعرف يقينًا أنها حقيقية.»

قلت: «أود أن أسمعها.»

أشعل الطبيب سيجارًا جديدًا ثم دفع علبة السيجار نحوي قائلًا: «سوف أحكيها لك.»

«لك أن تتصوَّر أن اللورد الشاب صار فجأة مُولَعًا بنبيذ شيري المُصفَّى الذي يُباع الكأس منه بستة بنسات، وبالخبز المحشو بالكشمش الذي اعتدنا تناوُله في طفولتنا. كان يتناول طعام الغداء في مخبز سويل، ويحتسي الشاي في مخبز سويل، بل كان يتعشَّى هناك في بعض الأحيان، مُتناوِلًا طبقًا من شرائح اللحم متبوعًا بتشكيلة من المعجنات. بدأ يغازل ماري تحت اسم مستعار، خوفًا، على الأرجح، من أن تسمع أمه عن علاقته بها، فهو لم يكن رجلًا مُحنَّكًا أو لئيمًا؛ ودواعي الأمانة تحتم عليَّ ذكر أن الفتاة أحبَّته ووافقَت على الزواج منه بصفته السيد جون روبنسون، ابن تاجر يعمل بإحدى المستعمرات، ولم يفُتها ملاحظة أنه سيد مهذَّب وموسر، لكنه لا يعلوها كثيرًا من حيث المكانة الاجتماعية. ولم تعرف أن حبيبها هو اللورد سي نفسه، إيرل مقاطعة ... المستقبلي، إلا عندما كشفَت لها أمه عن تلك الحقيقة في محادثة أليمة جرَت بينهما.»

وقفت ماري بجوار نافذة حجرة الجلوس أعلى المتجر وقالت للكونتيسة الأم بنبرة جازمة: «لم أكُن أعلم بذلك قط يا سيدتي، أقسم لك بشرفي أنني لم أدرِ شيئًا عن هذا الأمر.»

ردَّت السيدة النبيلة ببرود: «ربما لم تعرفي حقًّا. لكن هل كنتِ سترفضينه إن عرفتِ هُويَّته الحقيقية؟»

ردَّت الفتاة: «لا أعرف يقينًا، كان الوضع سيختلف منذ البداية. هو مَن تودَّد إليَّ وطلب الزواج مني.»

قاطعتها الكونتيسة قائلة: «لن نخوض في تلك المسألة. أنا لم آتِ هنا كي أدافع عنه. ولا أزعم أنه أحسنَ التصرُّف. السؤال الأهم هو: ما التعويض المناسب عمَّا شعرتِ به من خيبة أمل حتمًا؟»

كانت السيدة النبيلة تعتز بصراحتها الفظَّة وطابعها العملي. وبينما تخاطب الفتاة أخرجت دفتر الشيكات من حقيبتها الصغيرة وفتحته وهي تبلِّل طرف القلم في زجاجة الحبر. وأظن أن رفيف صفحات دفتر الشيكات كان الخطأ الذي ارتكبته هذه السيدة. فالفتاة كانت تدرك الموقف جيدًا، ولا بد أنها استوعبت الصعوبات التي تكتنف زواج وريث لقب إيرل بابنة تاجر أقمشة، ولو كانت السيدة العجوز امرأة فطِنة فربما تمخَّضَت هذه المحادثة عن نتيجة مُرضِية لها. لكنها ارتكبت خطأً عندما تبنَّت معيارًا واحدًا للحكم على الناس جميعًا، ونسيت أن ثمَّة فروقًا بين الناس. إذ إن ماري سويل تنحدر من نسل أسلاف من غرب إنجلترا قدَّمَت عدة قراصنة أقوياء البنية في سبيل خدمة البلاد في زمن المستكشفين الإنجليز مثل السير دريك والسير فروبيشير. وقد أدَّت الإهانة الناجمة عن إخراج السيدة النبيلة لدفتر الشيكات بهذه الطريقة إلى إيقاظ روح التحدي بداخلها. أطبقت شفتَيها فجأةً، وتبدَّد الخوف من نفسها.

ثم ردَّت قائلةً: «معذرة يا سيدتي، لا يمكنني تلبية طلبك.»

سألت الكونتيسة الأم: «ماذا تقصدين، أيتها الفتاة؟»

ردَّت ماري بهدوء واحترام: «لا أنوي أن يخيب أملي. لقد تبادلنا وعود الزواج. وإذا كان سيدًا نبيلًا حقًّا، كما عرفتُه، فسوف يحافظ على وعده لي، وسوف أفي بوعدي له.»

عندئذٍ بدأت السيدة النبيلة تُحادثها بالمنطق، مثلما يفعل الناس عادةً بعد فوات الأوان. أشارت إلى اختلاف المستوى الاجتماعي بينهما، ووضَّحَت لها المآسي التي تترتَّب على زواج المرء من خارج طبقته الاجتماعية. لكن الفتاة كانت قد تجاوزت صدمتها الأولية، وربما بدأت تفكر في أن لقب كونتيسة يستحق النضال لأجله على أي حال. وهذه الاعتبارات تؤثِّر حتى في أفضل النساء.

ردَّت عليها ماري بهدوء: «أعرف أنني لست من النبلاء. لكن أهلي طالما كانوا أناسًا شرفاء ومعروفين، وسوف أسعى لتعلُّم آداب الطبقة الأرستقراطية. قبل أن أشغل هذه الوظيفة، عملت وصيفة لسيدة نبيلة في بيت شهدت فيه الكثير من مظاهر ما يُعرف بالمجتمع الراقي. ولا أقصد ازدراء مَن يعلونني مقامًا، لكنني أعتقد أن بوسعي أن أكون سيدة نبيلة مثل بعضٍ ممَّن عرفتُ من سيدات المجتمع الراقي، بل قد أتفوَّق عليهن.»

عاود الغضب الكونتيسة، فصاحت بها: «ومَن سيقبل بكِ في ظنك؟ مَن سيرحب بفتاة كانت تعمل في متجر حلوى؟!»

ردَّت ماري: «أعرف أن السيدة إل كانت تعمل في حانة قبل زواجها، أي إن وضعها لم يكن أفضل من وضعي. وسمعت أن الدوقة سي كانت راقصة باليه، ولا أحد يتذكَّر ماضيهما على ما يبدو. لا أظن كذلك أن الأشخاص الذين يهم رأيهم سوف يعترضون عليَّ لوقت طويل.» كانت الفتاة قد بدأت تستمتع بالمبارزة الكلامية بينهما.

صاحت الكونتيسة ثائرةً: «أنتِ تدَّعين أنكِ تحبين ابني، ومع ذلك تنوين أن تدمري حياته، وأن تجُرِّيه معكِ إلى الأسفل؛ إلى مستواكِ.»

لا بد أن الفتاة بدَت جذابة حقًّا في تلك اللحظة؛ كم أود لو كنت حاضرًا وقتها.

ردَّت ماري: «لن يُجرَّ أحد إلى الأسفل يا سيدتي، لا أنا ولا هو. أنا أحب ابنك حقًّا. إنه من أفضل الرجال النبلاء وأطيبهم قلبًا. لكني لست غافلة عن كوني الطرف الأذكى في تلك العلاقة. سيصير شغلي الشاغل أن أهيئ نفسي لأكون زوجته وأن أساعده في عمله. لا تقلقي يا سيدتي، سأكون زوجة صالحة له، ولن يندم أبدًا على زواجه مني. قد تختارين له زوجة أكثر ثراءً أو أفضل تعليمًا، لكنك لن تجدي أبدًا زوجة أكثر إخلاصًا له مني والتزامًا بمراعاة مصالحه.»

عند هذا الحد، انتهى النقاش بينهما. كانت الكونتيسة تتمتَّع بما يكفي من الحصافة كي تلاحظ أنها تخسر عبر مواصلة الجدال. ومن ثَم نهضت وأعادت دفتر الشيكات إلى حقيبتها.

ثم قالت: «أظن أنكِ مجنونة يا عزيزتي. إذا لم تقبلي أي مساعدة مني، فسوف أعدُّ المسألة منتهية. لم آتِ هنا كي أتجادل معك. إن ابني يعرف واجبه تجاهي وتجاه عائلته خير معرفة. فلتفعل كلٌّ منا ما تراه مناسبًا.»

قالت ماري سويل وهي تمسك باب الغرفة ريثما تخرج السيدة النبيلة: «حسنًا يا سيدتي. سنرى مَن منا سيفوز.»

وعلى الرغم مما أبدته ماري من شجاعة أمام غريمتها، أتوقَّع أنها شعرت بإنهاك بالغ عندما تدبَّرَت الأمر بهدوء بعد انصراف الكونتيسة. فهي تعرف حبيبها جيدًا وتتوقَّع أنه سيكون مثل العجين بين يدَي أمه القويتين، وسوف تعجز هي عن فرض تأثيرها في مواجهة تأثير أولئك الساعين إلى إبعاده عنها. عاودت قراءة الخطابات القليلة الساذجة التي بعثها إليها، ثم تطلَّعَت إلى الصورة المؤطرة التي تعلو رف المدفأة في غرفتها الصغيرة.

كانت تجسد وجهًا صريحًا جذابًا لرجل شاب، يتميز بعينَين أوسَع من عيون الرجال عادةً، لكنَّ فمًا رخوًا جدًّا أفسد جاذبيته. وكلما أمعنت ماري سويل التفكير، زاد يقينها من حبه لها، ومن صدق وعده بالزواج منها. ولو كان القرار بيده، لصار لقب الكونتيسة القادمة لمقاطعة ... من نصيبها، لكن، لسوء حظها، ليس اللورد سي مَن عليها مواجهته بل أمه، الكونتيسة الحالية للمقاطعة. لم يخطر على بال اللورد سي قطُّ أن يعصي أمرًا واحدًا لأمه منذ طفولته، وطوال صباه، وحتى صار رجلًا، ولم يكن عقله من النوع المنفتح على الأفكار الجديدة. لذلك إذا أرادت ماري الفوز في تلك المنافسة غير المتكافئة، فعليها أن تلجأ إلى الحيلة لا إلى القوة. وهكذا جلست وكتبت خطابًا يُعَد بلا شك مثالًا يُحتذى به في الدبلوماسية. كانت تعلم أن الكونتيسة ستقرؤه، ومن ثَم راعت أثناء كتابته مخاطبة كلٍّ من الابن والأم. لم توجِّه أي لوم، ولم تُفرِط في التعبير العاطفي. كان خطابها يعبِّر عن امرأة صاحبة حق لكنها لا تطالب سوى بمعاملة لائقة. ذكرت رغبتها في أن تراه وحده كي يؤكد لها بنفسه أنه يرغب في إنهاء خطبتهما. كتبت ماري: «لا تخشَ أن أثقل عليك بأي حال من الأحوال. فكبريائي سيمنعني من الإلحاح عليك كي تتزوَّجني رغمًا عن إرادتك، وما أكنُّه لك من حب يمنعني من أن أسبِّب لك الألم. قل لي بنفسك إنك ترغب في إنهاء خطبتنا، وسوف أحرِّرك من وعدك لي فورًا.»

كانت العائلة في لندن وقتها، فأرسلت ماري خطابها عَبْر وسيط موثوق به. شعرت الكونتيسة برضًا بالغ عند قراءته، وأعطَتْه لابنها بنفسها، بعدما أعادت إغلاقه. فقد رأت أن الخطاب يطرح حلًّا مُرضيًا للمشكلة، بعدما قضت الليل بأكمله تستمع في خيالها إلى وقائع قضية حنث بالوعد[١] تشوِّه سمعة العائلة. بل تخيَّلَت أنها تخضع لاستجواب مزعج على يد محامٍ وقِح، وأن القاضي أساء فهم انتحال ابنها لاسم روبنسون ووبَّخَه على ذلك أشد توبيخ، وأن هيئة المحلفين تعاطفت مع الفتاة وحكمت عليهم بدفع تعويضات فادحة، وأن اسم العائلة صار محطَّ تهكُّم الصحفيين الساخرين والمطربين في قاعات الموسيقى

[١] قضية الحنث بالوعد هي إجراء قانوني كان شائعًا في القرن التاسع عشر، وأتاح للمرأة مقاضاة الرجل الذي وعدها بالزواج ثم أخلف وعده، كي تحصل على تعويضات نظير فقدان سمعتها والدعم المالي الذي كانت ستتلقاه لو تم الزواج. وكان مفهوم وعد الرجل المرأة بالزواج عقدًا ملزمًا قانونيًّا مُعترَفًا به على نطاق واسع في العديد من الولايات القضائية منذ العصور الوسطى على الأقل وحتى أوائل القرن العشرين.

الراقصة. قرأ اللورد سي الخطاب، واحمرَّ وجهه، ثم ناول أمه إياه. تظاهرت الكونتيسة بأنها تقرؤه للمرة الأولى ونصحت ابنها بالموافقة على اللقاء.

قالت: «يسعدني أن تلك الفتاة بدأت تفكر في الأمر بتعقُّل. لا بد أن نساعدها بطريقة ما تدعم مستقبلها، عندما ننتهي من تلك المسألة. أخبرها أن تطلب ملاقاتي حين تأتي، وسوف يظن الخدم أنها جاءت للعمل وصيفة لي أو ما شابه، ولن يتحدثوا عن الأمر.»

وفي تلك الأمسية، أبلغ رئيس الخدم الكونتيسة أن امرأة شابة تريد رؤيتها، ثم قاد ماري سويل إلى غرفة الجلوس الصغيرة التي تصل المكتبة بباقي غرف الاستقبال في البيت الواقع بميدان جروسفينور سكوير. نهضت الكونتيسة، التي أضحت تقطر ودًّا، لملاقاة ماري. وقالت: «سيأتي ابني حالًا. لقد أبلغني بفحوى خطابك. صدِّقيني يا آنسة سويل، لن تجدي مَن هو أشد أسفًا مني حيال تصرُّفه الطائش. لكن هذا طابع الشباب، هم لا يتمهَّلون كي يدركوا أن ما يرونه مزاحًا قد يراه الآخرون جدًّا.»

ردَّت ماري بقدر من الاقتضاب: «لا أرى المسألة مزحة يا سيدتي.»

علَّقَت الكونتيسة: «بالطبع يا عزيزتي. هذا ما أقصده. لقد ارتكب خطأً فادحًا. لكني على يقين من أن امرأة جميلة المحيا مثلك لن تنتظر طويلًا حتى تجد زوجًا؛ وسوف نساعدك حتمًا في هذا الأمر.»

كانت الكونتيسة تعوزها اللباقة دون شك؛ ولا بد أن ذلك قد عاق جهودها إلى حدٍّ بعيد.

أجابتها الفتاة: «أشكرك. لكني أفضِّل أن أختار زوجي بنفسي.» ولحُسن الحظ، دخل في تلك اللحظة سبب المتاعب كلها، ولو تأخَّر قليلًا لكان الحوار بين المرأتَين انتهى إلى شجار آخر، وعندئذٍ تركتهما الكونتيسة معًا بعدما همست في أذن ابنها ببضعة توجيهات أخيرة.

جلست ماري على كرسي في المركز، يبعد مسافة متساوية عن كلا بابَي الغرفة. وفضَّل اللورد سي الوقوف مُعطيًا ظهره إلى المدفأة بما أن جميع المقاعد بدَت له غير مريحة في موقف كهذا. ساد الغرفة صمت مُطبِق لبضع ثوانٍ، ثم سحبت ماري منديلًا بالغ الأناقة من جيبها وشرعت تبكي. من المؤكد أن الكونتيسة لم تتمتَّع ببراعة دبلوماسية كبيرة، وإلا لكانت فكَّرَت في هذا السيناريو؛ أو ربما تذكَّرَت شكلها أثناء شبابها، وقد كانت فتاة طويلة بارزة العظام، عندما حاولت استغلال التأثير الملطف للدموع مرَّة أو مرَّتَين، ومن ثَم لم تعطِ أهمية كبيرة لاحتمالية لجوء ماري لسلاح البكاء. لكن عندما تبكي النساء الناعمات

ذوات الغمازات، ويبكين بصمت، يكون تأثير بكائهن مختلفًا تمامًا. تزداد أعينهن تألُّقًا، وتتناثر دموعهن القليلة على خدودهن مثل قطرات الندى على بتلات الورد.

كان اللورد سي رجلًا أخرق لا مثيل لطيبة قلبه. وفي اللحظة التالية، كان جاثيًا على ركبتَيه، وذراعاه حول وسط الفتاة، ومن فمه تدافعت كلمات متلعثمة تعبِّر عن حبه وإخلاصه بقَدْر ما أسعفه ذهنه البسيط، وأخذ يلعن قدره ولقب الإيرل وأمه، ثم شرع يؤكد لماري أنه لن يعرف السعادة إلا إذا أضحت زوجته. لو نطقت ماري بالكلمة التي يتمنى سماعها في تلك اللحظة، كان سيضمُّها بين ذراعَيه ويتحدى العالم كله؛ في الوقت الحالي فقط. لكن ماري كانت امرأة عملية حقًّا، وكانت تدرك صعوبات التعامل مع عاشق يكون طوع أمرها طالما ظلَّت عيناها عليه، بَيْد أنه عرضة لأن يحيد عن هدفه ما إن يخضع لتأثير غيرها. اقترح اللورد سي أن يتزوَّجا سرًّا حالًا. لكن المرء لا يركض هكذا في الشارع، ويطرق باب أي قسيس كي يزوِّجه فورًا، وكانت ماري على يقين من أن اللورد سيرجع إلى حضن أمه حالما تغادر المنزل. اقترح عليها أيضًا أن يهربا معًا، لكن الهرب يتطلَّب مالًا، والكونتيسة احتاطت لذلك عَبْر فرض سيطرتها على ما يُتاح له من مال. ومن ثَم تملَّك اليأس من اللورد سي.

فهتف: «لا فائدة. سوف أتزوَّجها في آخر المطاف.»

صاحت ماري سريعًا: «تتزوَّج مَن؟»

شرع اللورد في توضيح موقفه لها. كانت ممتلكات العائلة مُثقَلة بالرهون؛ لذا ارتأى الجميع أن زواجًا يضع المال في المقام الأول والأخير سيكون الأنسَب له، وقد عُرض هذا المال نفسه، أو تم عرضه بالأحرى، عَبْر مقترح الزواج من الابنة الوحيدة لمتسلق اجتماعي ثري وطموح.

سألت ماري: «كيف تبدو؟»

أجابها: «فتاة لطيفة. لكني لا أحبها وهي أيضًا لا تحبني. ولهذا لا يحبِّذ كلانا ذلك الزواج.» ثم ضحك مبتئسًا.

سألته ماري: «كيف عرفت أنها لا تحبك؟» فالمرأة قد تنتقد عيوب حبيبها، لكنها تعرف على الأقل أن أي امرأة أخرى قد تراه مقبولًا.

أجابها اللورد: «إنها تحب رجلًا آخر. لقد أخبرتني بذلك بنفسها.»

بدا لماري أن هذا السبب مُقنِع.

سألَتْه: «وهل هي مستعدة للزواج منك؟»

هزَّ اللورد كتفَيه بعدم اكتراث وأجابها: «أهلها يرغبون في إتمام الزواج، هذا كل ما في الأمر.»

على الرغم من صعوبة الموقف، عجزت ماري عن كتم ضحكة. هؤلاء الشباب الأثرياء معدومو الإرادة على ما يبدو. وعلى الجانب الآخر من الباب، زاد قلق الكونتيسة. كانت ضحكة ماري هي الصوت الوحيد الذي سمعته.

وضَّح اللورد الأمرَ لماري قائلًا: «إنها ورطة لَعِينة. فكما تعلمين، عندما يكون المرء شخصًا ذا شأن، لا يستطيع التصرُّف كما يحلو له. بل يتوقَّع الناس منه أمورًا معيَّنة، وعليه مراعاة الكثير من الاعتبارات.»

نهضت ماري وشبَّكَت يدَيها البضَّتَين — التي نزعت عنهما القفازَين — خلف عنقه. ثم قالت متطلِّعةً إلى وجهه: «هل تحبني يا جاك؟»

ردَّ بضمِّها إليه بقوة، واغرورقت عيناه بالدموع.

ثم صاح قائلًا: «اسمعي يا ماري. لو كان بوسعي التخلُّص من لقبي، والعيش معك كرجل محترم في الريف، كنت سأفعل ذلك غدًا. تبًّا لهذا اللقب، سوف يقلب حياتي جحيمًا.»

ربما ودَّت ماري في تلك اللحظة أيضًا لو يختفي هذا اللقب من الوجود، وتمنَّت لو كان حبيبها هو السيد جون روبنسون مثلما ظنَّت قبلًا. إن هؤلاء الرجال الحمقى الضخام الجثة يسهل حبهم على الرغم من ضعفهم، أو ربما بسبب ضعفهم. فهم يروقون الجانب الأمومي في قلب المرأة، الذي له التأثير الأعظم على جميع النساء الصالحات.

وفجأةً انفتح الباب، وظهرت الكونتيسة، فتبدَّدَت المشاعر فورًا. أفلت اللورد سي ماري وتراجع سريعًا، وبدا الذنب على وجهه مثل تلميذ ارتكب خطأً.

قالت السيدة النبيلة بنبرة باردة طالما جمدت الدماء في عروق ابنها: «ظننتُ أني سمعت الآنسة سويل تغادر. رغبت في رؤيتك بعدما صِرتَ حرًّا.»

رد اللورد متلعثمًا: «لن أتأخر. إن ماري، أقصد الآنسة سويل، أوشكت على المغادرة.»

انتظرت ماري دون حراك حتى غادرت الكونتيسة الغرفة وأغلقت الباب خلفها. ثم التفتَت إلى حبيبها وهمست له سريعًا قائلةً: «أعطِني عنوانها؛ عنوان تلك الفتاة التي يريدون أن تتزوَّجها!»

سألها اللورد: «ماذا ستفعلين؟»

أجابت ماري: «لا أعرف، لكني سأذهب لزيارتها.»

خطَّت اسم الفتاة سريعًا، ثم قالت وهي تتطلَّع إلى وجهه مباشرةً: «جاك، قل لي صراحةً هل ترغب في الزواج مني أم لا؟»

أجابها، بينما كان ما عبَّرَت عنه عيناه أقوى من كلماته: «بالطبع أرغب في الزواج منكِ يا ماري. لو لم أكُن شابًّا أحمق وتافهًا، لَما واجهنا كل هذه المتاعب. لكني لا أدري كيف حدث ما حدث؛ فأنا أحدِّث نفسي بأني فاعل أمرًا ما، لكن أمي تظل تتحدَّث وتتحدَّث ...»

قاطعته ماري مبتسمةً: «أعرف، لا تجادلها، تقبَّل جميع آرائها، وتظاهَرْ بأنك تتفق معها.»

قال اللورد متشبِّثًا بالأمل الذي يتخلَّل كلماتها: «ليتكِ تستطيعين وضع خطة لنجدتنا، فأنتِ ذكية جدًّا.»

أجابته ماري: «سأحاول، وإن فشلت، سوف تضطر إلى الهرب معي، حتى إن فعلت ذلك أمام عينَي أمك.»

كانت تقصد «سوف أضطر إلى الهرب معك»، لكنها فضلت قلب العبارة على هذا النحو.

ذهبت ماري لزيارة الفتاة التي صارت، رغمًا عن إرادتها، غريمة لها، فوجدتها شابة وديعة، ترزح تحت سيطرة أبيها الصلف مثلما يخضع اللورد سي لهيمنة أمه. لا أعرف يقينًا ما دار بينهما في هذا اللقاء؛ لكن من المؤكَّد أن كلتا الفتاتَين قرَّرَتا مساعدة — ودعم — بعضهما بعضًا، من أجل تحقيق أهدافهما معًا.

فوجئ والدا كلٍّ من الآنسة كليمينتينا هودزكس واللورد سي، وسُرُّوا عندما لاحظوا تغيُّرًا في سلوك الخطيبَين بعضهما تجاه بعض مقارنة بذي قبل. فلم تعُد الفتاة تعترض على كل ما يُبديه اللورد سي، رغمًا عنه، من اهتمام بها. ويبدو حقًّا أن نزوات النساء سريعة الزوال؛ إذ صارت الآنسة هودزكس تشجِّع اللورد سي على زيارتها، لا سيما عندما يغيب السيد هودزكس وحرمه عن المنزل. أما المشاعر الوليدة التي أبداها اللورد سي نحو الآنسة كليمينتينا هودزكس فلم تكُن أقل إثارة للدهشة. لم يعُد يذكر اسم ماري مطلقًا، ولم يُبدِ اعتراضًا على اقتراح التعجيل بالزواج. ربما حيَّر هذا التغيير أناسًا أكثر حكمة، لكن الكونتيسة والمقاول السابق هودزكس كانا معتادَين على أن يُذعن الجميع لرغباتهما. بدأت الكونتيسة تتخيَّل الضيعة بعد انتشالها من الديون، في حين كان والد كليمينتينا يحلم بلقب نبيل، يُمنح له بفضل علاقاته المؤثرة بالطبقة الأرستقراطية. كل ما اشترطه العروسان هو أن يُعقَد قرانهما في مراسم هادئة تكاد تكون سرية (وقد أبديا إصرارًا عجيبًا على موقفهما هذا).

طلب اللورد من أمه أن يُعقَد الزفاف «دون ضجة بغيضة، ليكنْ في مكان ما بالريف، ولا تدعوا عموم الناس»، وكان رد فعلها أن ربتت بحبٍّ على خده؛ إذ ظنَّت أنها تتفهَّم سبب رغبته تلك.

وحدَّثَت الآنسة هودزكس والدها قائلةً: «أرغب في الذهاب إلى بيت العمة جين، وإقامة الزفاف هناك في هدوء.»

كانت العمة جين تقطن في قرية صغيرة على حدود مقاطعة هامبشير، تابعة لقس معروف في المنطقة بأنه فقد جميع أسنانه العليا.

صاح أبوها بنبرة هادرة: «لا يمكن أن يعقد هذا العجوز الأحمق مراسم زفافك.» كان أبوها يصيح دائمًا، حتى في صلواته.

ألحَّت الآنسة كليمينتينا على مطلبها بقولها: «إنه القس الذي عمدني.»

رد الأب: «والله وحده يعلم الاسم الذي منحك إياه وقتها. لا أحد يفهم كلمة ممَّا يقوله هذا الرجل.»

رددت الآنسة كليمينتينا مجددًا: «أرغب في أن يعقد هو مراسم زواجي.»

لم ترُق الفكرة الكونتيسة النبيلة والمقاول على حدٍّ سواء، لا سيما أن الأخير كان يتطلَّع إلى إقامة حفل ضخم تكتب عنه جميع الصحف تفصيلًا.

لكن الزواج في حد ذاته كان الهدف الأسمى، ونظرًا إلى ما جرى بين كليمينتينا وملازم بحرية معدم من غراميات حمقاء، ربما تكون مظاهر الأبَّهة خيارًا غير مناسب.

ومن ثَم ارتحلت كليمينتينا إلى بيت العمة جين بصحبة وصيفتها في الوقت المناسب.

كانت الوصيفة الجديدة للآنسة هودزكس فتاة مذهلة في كفاءتها.

وصفها السيد هودزكس قائلًا: «فتاة نظيفة حسنة الخلقة والخُلق، تعرف مقامها، وتتحدَّث بتعقُّل. لا تفرِّطي في هذه الفتاة يا كليمي.»

سألت السيدة هودزكس في تشكُّك: «هل تظنُّ أنها تتمتَّع بمعرفة جيدة في مجالها؟»

رد المقاول محتدًّا: «إنها تصلح وصيفة لأي امرأة محترمة. عندما تحتاج كليمي إلى مَن يلطِّخ وجهها بالأصباغ ويساعدها على حشو ملابسها بطبقات إضافية، يمكنها أن تفكر حينها في جلب واحدة من وصيفاتك الفرنسيات أو الألمانيات.»

وافقته الأم قائلة: «إنها تروقني كثيرًا. فهي أهلٌ للثقة، ولا تتصرَّفُ بتعالٍ.»

بلغ الثناء على الوصيفة مسامع الكونتيسة التي كانت تعاني بشدة وقتها من جبروت وصيفة ألمانية متقدِّمة في العمر.

فكرت الكونتيسة: «لا بد أن أرى هذه الوصيفة المذهلة. لقد تعبتُ من أولئك الوصيفات الأجنبيات.»

رغم ذلك، كلما زارتهم الكونتيسة، كانت دائمًا ما تجد الوصيفة خارج المنزل لسبب أو لآخر، مهما تحيَّنَت ساعة الزيارة.

حدَّثَت الكونتيسة كليمينتينا ضاحكةً: «إن وصيفتك تكون دومًا خارج المنزل عندما آتي لزيارتكم. يُخيَّل إليَّ أن سببًا ما يدفعها لذلك.»

وافقتها كليمينتينا: «أمر غريب فعلًا»، وعلَت وجهها حمرة خفيفة.

كان تقدير الآنسة هودزكس لوصيفتها ينعكس في أفعالها أكثر من كلماتها. إذ بدَت عاجزة عن الإتيان بأي فعل أو تدبُّر أي أمر دون مساعدتها. وحتى في لقاءاتها مع اللورد سي، كانت الوصيفة حاضرة في بعض الأحيان.

تقرَّر أن يُعقد القران بنظام رخصة الزواج.[٢] وعزمت الآنسة هودزكس في البداية على الذهاب بنفسها وإتمام التحضيرات، لكن عندما حان الوقت لذلك لم تجِد داعيًا إلى تجشُّم العناء؛ فالحصول على الرخصة كان في غاية البساطة، واتضح أن الوصيفة المذهلة تستوعب الإجراءات بدقة بالغة، ولديها استعداد لأن تحمل على عاتقها عبء إنجاز تلك المهام كلها. وهكذا، لم تأتِ عائلة هودزكس كاملةً إلى القرية إلا ليلة الزفاف، واحتشدوا جميعًا في منزل العمة جين الصغير حتى لم يعُد به موضع لقدم. وكان منظر المقاول، بجسده الضخم، وهو واقف بجوار شرفة المنزل الصغيرة يدفع المارِّين تلقائيًّا إلى تذكُّر بيوت الدمى التي تُعرَض في المهرجانات الشعبية الترفيهية، ويكون قاطنها قزمًا يمد جسده من نافذة الطابق الأول كي يقرع جرس البيت بنفسه. أقام اللورد سي والكونتيسة لدى أخت الكونتيسة، السيدة

[٢] في القرن التاسع عشر، كانت هناك طريقتان للزواج القانوني في إنجلترا: إما عن طريق الإعلان الرسمي عن الزواج لثلاثة آحاد متتالية قبل إبرامه أو الزواج برخصة. في حالة الإعلان الرسمي، تعلن الكنيسة التي ينتمي إليها الزوجان عن موعد الزفاف قبل ثلاثة أسابيع من عقد القران لضمان عدم وجود معارضات قانونية أو أخلاقية للزواج. كان نظام الإعلان الرسمي أرخَص وأكثر شيوعًا، ولكنه يتطلَّب فترة انتظار أطول. أما رخصة الزواج فهي وثيقة تسمح بالزواج دون الحاجة إلى إعلان رسمي، وفي إطار زمني أقصر. كانت الرخصة أغلى ثمنًا؛ لذا كان يلجأ إليها الأثرياء وذوو المكانة الاجتماعية أو مَن لديهم أسباب خاصة لتجنُّب الإعلان الرسمي عن الزواج، مثل حمل العروس، أو معارضة الأسرة للزواج. يمكن الحصول على الرخصة من الأسقف المحلي أو رئيس الأساقفة في كانتربري، أو من مكتب الشئون القانونية، بناءً على ظروف وتفضيلات الزوجين.

الموقَّرة جيه، في منزل جي ... هول على بُعد عشرة أميال من القرية، وعزما على الذهاب صباحًا بالسيارة إلى هناك. أما والد العريس، إيرل مقاطعة ... وقتها، فكان في النرويج يصطاد أسماك السالمون، فلم يكن يهتم بالأحداث العائلية.

شكَت كليمينتينا من صداعٍ أصابها بعد العشاء، وخلدت إلى النوم مبكِّرًا. كانت الوصيفة المذهلة هي الأخرى متوعكة. وبدا عليها القلق والحماس.

علَّقَت السيدة هودزكس على ذلك بقولها: «تلك الفتاة متحمِّسة للزواج وكأنه زواجها هي.»

وفي الصباح، كانت كليمينتينا لا تزال تعاني من الصداع، لكنها أكَّدَت أنها قادرة على خوض مراسم الزفاف، شريطة أن يبتعد الجميع عنها ولا يزعجوها. كانت الوصيفة المذهلة هي الإنسانة الوحيدة التي احتملت وجودها بجوارها. وقبل نصف ساعة من موعد الذهاب إلى الكنيسة، صعدت أمها للاطمئنان عليها مجدَّدًا. فوجدتها ازدادت شحوبًا عن ذي قبل، وصارت أشد توتُّرًا وعصبية. هدَّدَت العروس أمها بأنها سترقد في السرير ولن تتحرَّك منه إذا لم يتركوها وحدها. ثم أخرجت أمها من الغرفة، أو طردتها بالأحرى، وأغلقت الباب خلفها. لم ترَ السيدة هودزكس ابنتها في هذه الحالة من قبل.

غادر الجميع متجهين إلى الكنيسة، وتقرر أن تتبعهم العروس في العربة الأخيرة بصحبة أبيها.

سبق تحذير المقاول من حالة العروس، فأوجز حديثه معها، وعندما اضطر مرة واحدة إلى طرح سؤال عليها، أجابته بصوت متوتر غير طبيعي. وبقدر ما استطاع رؤية وجهها من وراء الخمار الثقيل الذي يغطِّيه، بدا له أنها تبكي.

قال السيد هودزكس: «حقًّا، يا له من زفاف بهيج!» ثم عاد متجهِّمًا.

لم يكن الزفاف هادئًا مثلما توقَّعوا. فقد بلغ خبره مسامع أهل القرية؛ لذا حضر كثيرٌ منهم إلى الكنيسة، فضلًا عن أن نصف الضيوف المقيمين في منزل جي ... هول أصروا على القدوم إلى الكنيسة وحضور المراسم. وهكذا امتلأت الكنيسة الصغيرة بعددٍ من الناس لم تشهد مثله منذ سنوات طويلة.

فزع القس العجوز لمرأى هذا الحشد الأنيق، فهو لم يعتد رؤية وجوه غريبة منذ زمن، وفزع الحشد الأنيق بدوره ما إن سمع أول صوت خرج من فم القس العجوز. فما كان لديه من قدرة ضئيلة على التعبير تبخر كليًّا، ولم يستطع أحد فهم كلمة مما يقول. بدا

أنه يُصدِر أصوات استغاثة. اضطر والدا العروس إلى شرح مِحنة القس في أحاديث جانبية خفيضة، واضطرَّا كذلك إلى تبرير اختيار هذا القس بالذات لعقد مراسم الزواج.

همست أم العروس: «كانت نزوة من نزوات كليمينتينا. أنا ووالدها تزوَّجنا هنا، وهذا القس هو مَن عمَّدَها. إن ابنتي العزيزة تشعر بامتنان بالغ نحوه. واختياره كان لَفْتة لطيفة من جانبها.»

وافقها الجميع على رأيها، بَيْد أنهم تمنوا انتهاء المراسم سريعًا. كان التأثير العام للحدث من أغرب ما يكون.

تحدَّث اللورد سي بوضوح معقول، لكن إجابات العروس كانت مُبهَمة إلى حدٍّ بعيد، على عكس المعتاد في تلك المواقف. تذكر الحضور قصة العروس مع ملازم البحرية، وأضافوا إليها أحداثًا من خيالهم، وشرعت بعض النساء المرهفات المشاعر في البكاء تعاطُفًا مع الفتاة.

في الغرفة الداخلية بالكنيسة شاعت أجواء أكثر بهجة. فلم يوجد نقص في عدد الشهود المُرحبين بالتوقيع على سجل توثيق الزواج. وقد دوَّنوا أسماءهم دون أن يقرءوا ما ورد بالوثيقة، مثلما يفعل أغلب الناس في تلك المواقف، في المواضع التي أشار إليها الشماس. ثم خطر لأحد الشهود أن العروس لم توقِّع بعد. كانت تقف بعيدًا عنهم، وخمارها لا يزال يغطِّي وجهها، وبدا أن الجميع نسوها. تقدمت العروس في وداعة مصحوبة بعبارات التشجيع، وتناولت القلم من يد الشماس. ثم جاءت الكونتيسة ووقفت وراءها.

كتبت العروس: «ماري» بيدٍ كان يعوزها الثبات على الرغم من أن شكلها لم يوحِ بذلك.

قالت الكونتيسة: «غريبة، لم أعرف أن اسمك الكامل يبدأ بماري. كم يبدو خطك مختلفًا عندما تكتبين ببطء.»

لم تُجِب العروس، بل أتبعت الاسم الأول باسم «سوزانا».

صاحت الكونتيسة: «عجبًا، ما أكثر ما تحملين من أسماء يا عزيزتي! متى سيأتي الدور على الأسماء التي نعرفها جميعًا؟»

كتبت العروس دون أن تجيب: «روث».

يجدر بي أن أقول هنا إن حُسن التربية والتهذيب لا يقيان المرء دائمًا من الانفعالات الجياشة. فقد انتزعت الكونتيسة خمار العروس من فوق وجه الأخيرة، ووجدت نفسها تقف أمام ماري سوزانا روث سويل، التي احمرَّ وجهها وارتعش جسدها بيد أن جمالها لم يقلَّ أنملة. وفي هذه اللحظة كان وجود حشد من الناس أمرًا مفيدًا.

قالت ماري بصوت خفيض: «لا أظنك ترغبين في إحداث جلبة يا سيدتي. ما حدث قد حدث.»

ردَّت الكونتيسة محتدَّةً بالنبرة نفسها: «ما حدث يمكن إلغاؤه، وسوف يُلغى، أيتها الفتاة ...»

تدخَّل اللورد سي بينهما وقال وهو يضع يد ماري على ذراعه: «تلك الفتاة صارت زوجتي، لا تنسي ذلك يا أمي. نحن آسِفان لأننا اضطررنا إلى إتمام الزواج بهذا الأسلوب الملتف، لكننا أردنا تجنُّب إثارة الضجة. أظن أن علينا الرحيل الآن. أخشى أن السيد هودزكس سيُثير جلبة.»

صبَّ الطبيب لنفسه كأسًا من النبيذ الأحمر، وشربه كله. لا بد أن حلقه قد جفَّ.

سألته: «وماذا حلَّ بكليمينتينا؟ هل هرع ملازم البحرية إليها في عربة بحصانَين، وحملها معه بينما الآخرون في الكنيسة؟»

رد الطبيب: «هذا ما كان يجب أن يقع، كي تكتمل القصة. بَيْد أنني عرفت أنها تزوَّجَته بالفعل في آخر المطاف، لكن بعدما مرَّت عدة سنوات، بعد موت المقاول.»

تابعت أسئلتي: «وهل أثار السيد هودزكس جلبة في غرفة الكنيسة؟»، فهذا الطبيب لا يكمل قصصه أبدًا.

أجاب مضيفي: «لا أعلم يقينًا. رأيت هذا الرجل مرَّة واحدةً، في اجتماع لحملة أسهم. وأميل إلى الرأي القائل بأنه لم يسكت.»

قلت: «أظن أن العريس والعروس انسلَّا بأكبر قدر ممكن من الهدوء، وغادرا الكنيسة مباشرةً.»

وافقني الطبيب قائلًا: «أتصوَّر أن هذا كان التصرُّف الحصيف.»

سألته مجددًا: «لكن كيف تمكَّنَت ماري من ارتداء ملابس تصلح للسفر؟ لم يُتَح لها وقت كي ترجع إلى منزل العمة جين وتغيِّر ملابسها.»

لم يبدُ الطبيب مهتمًّا بهذه التفاصيل الدقيقة؛ إذ رد قائلًا: «ليس لديَّ علم بتلك الأمور. قلت لك إن ماري فتاة عملية، من المرجَّح أنها فكَّرَت في تلك التفاصيل.»

سألته: «وماذا عن الكونتيسة؟ هل تقبَّلَت الأمر بهدوء.»

فأنا أحب القصص الخالية من الثغرات، حيث تُوضع كل شخصية في مكانها الصحيح في النهاية. بيد أن القصص الرومانسية الحديثة عادةً ما تنتهي تاركةً نصف شخصياتها مُبعثَرة في كل مكان.

أجاب الطبيب: «ليس لديَّ علم يقيني بهذه المسألة أيضًا، لكني أعتقد أنها امرأة عاقلة. فاللورد سي كان قد بلغ سن الرشد، وصار يعرف ما يريد، لا سيما وماري إلى جواره. أظن أنهما سافرا لسنتَين أو ثلاث سنوات. وقد رأيت الكونتيسة ماري لأول مرة في حياتي بعد وفاة الإيرل والد اللورد سي بفترة قصيرة. بدَت لي وقتها كونتيسة حقيقية بكل ما تعنيه الكلمة، لكني لم أكُن قد سمعت قصتها بعدُ. أما أرملة الإيرل الراحل، الكونتيسة السابقة، فقد ظننت خطأً أنها مدبِّرة المنزل.»

بيلي الذي لا يُبالي

كنا نقترب من نهاية شهر أغسطس. بدا أننا آخر اثنَين لم يرحلا من النادي. كان يجلس بالقرب من نافذة مفتوحة، وصحيفة «التايمز» مُلقاة بجواره على الأرض. سحبت كرسيًّا واقتربت منه قليلًا وقلت: «صباح الخير.»

كتم تثاؤُبًا وردَّ بكلمة «مورنين»، وهي التحية المختصرة التي أضحت موضة مؤخرًا. كان دائمًا ما يصيب فيما يتعلق بالموضة.

تابعت حديثي قائلًا: «أخشى أن اليوم سيكون شديد الحرارة.»

رد قائلًا: «أظن ذلك»، ثم حوَّل رأسه بعيدًا وأغمض عينَيه في هدوء.

أدركت أنه لا يرغب في الحديث، لكن هذا الإدراك جعلني أكثر إصرارًا على الكلام، والكلام معه تحديدًا دون بقية سكان لندن. استحوذَت عليَّ رغبة في مضايقته، وتعكير صفو هذا الهدوء الراسخ الذي يحيط به ويشكِّل كيانه؛ ومن ثَم استجمعتُ رباطة جأشي وشرعت في تنفيذ هذه المهمة.

علَّقتُ: «صحيفة شيِّقة، أقصد التايمز».

أجابني: «جدًّا»، ثم رفع الصحيفة من على الأرض وناولني إياها قائلًا: «ألن تقرأها؟»

كنت قد حرصت على التحدُّث بنبرة مرح زائد، توقَّعتُ أنها ستزعجه، لكن أسلوبه ظلَّ أسلوب رجل يشعر بالملل فحسب. تجادلت معه بأدب حول أَخْذ الصحيفة، لكنه أصرَّ، بالأسلوب الضجِر نفسه، على أنه انتهى من قراءتها. فأخذتُها وبالغتُ في شكره؛ إذ قدَّرتُ أنه يكره المبالغة.

صمَّمتُ على مواصلة الحديث فأضفت: «يُقال إن افتتاحية التايمز هي درس في فن الكتابة باللغة الإنجليزية.»

رد في تؤدة: «هكذا سمعت. أنا نفسي لا أقرؤها.»

حينئذٍ أدركت أن جريدة التايمز لن تساعدني كثيرًا في مسعاي. أشعلت سيجارة وذكرت أني لاحظت أنه لم يشارك في رحلات صيد الطيور. قال إنه لم يشارك فعلًا. في الموقف الحالي، كان إنكار هذه الحقيقة سيُرهقه، بَيْد أن اضطراره إلى الاعتراف بعدم المشاركة أخرجه عن سكوته.

فاستطرد: «أرى أن الخوض في الطين لمسافة أميال، وفوق كتفي بندقية ثقيلة، بصحبة أربعة رجال متجهمين، يرتدون ملابس من المخمل الأسود، وكلبَين بائسَي المنظر، لا لغرض سوى قتل مجموعة من الدواجن لا تتعدَّى قيمتها شلنًا وستة بنسات أمرٌ ينطوي على كثير من الشطط.»

أطلقتُ ضحكة مجلجلة وهتفت: «كلام معقول، معقول جدًّا!»

كان من نوعية الرجال الذين يقشعرون داخليًّا عند سماع صوت الضحك. راودتني رغبة في ضربه بكفي على ظهره، لكني أدركت أن هذه الفعلة قد تدفعه إلى مغادرة المكان كله.

سألته إذا كان يصطاد الحيوانات. فأجاب أن قضاء أربع عشرة ساعة يوميًّا في الحديث عن الخيل، ولا شيء آخر سواها كان ينهكه؛ لذا تخلى عن ممارسة الصيد.

سألته: «هل تصطاد السمك؟»

أجابني: «لا، لست واسع الخيال بما يكفي لممارسة هذا النشاط.»

قلت: «أظن أنك تسافر كثيرًا.»

بدا أنه قرَّر الاستسلام لمصيره؛ إذ استدار ناحيتي مذعنًا. طالما وصفتني مربية قديمة لي بأني أكثر طفل «متعب» لقيته في حياتها. لكني أفضِّل وصف نفسي بأنني «مثابر».

قال: «حَرِيٌّ بي أن أسافر أكثر. فلربما أرى اختلافًا بين مكان وآخر.»

سألته: «هل جرَّبتَ زيارة أفريقيا الوسطى؟»

رد قائلًا: «ذهبت إلى هناك مرَّة أو مرتين، دائمًا ما تذكِّرني بحدائق كيو.»

قلت: «ماذا عن الصين؟»

قال: «أرى أنها مزيج من رسومات أشجار الصفصاف على الأطباق الخزفية والأحياء الفقيرة في نيويورك.»

قرَّرتُ أن أذكر وجهة إضافية، على أمل أن يحالفني الحظ في المحاولة الثالثة، فقلت: «والقطب الشمالي؟»

رد عليَّ بقوله: «لم أبلغه قط، بَيْد أني وصلت إلى كيب هاكلايت مرة.»

سألت: «ما الأثر الذي تركه في نفسك؟»

أجاب: «لم يترك أثرًا.»

تحوَّلَت دفة الحديث إلى النساء والشركات الصورية والكلاب والأدب وما إلى ذلك من موضوعات. ووجدت أنه مُلمٌّ بها كلها، لكن جميعها يُثير ملله.

ففي مجري الحديث عن النساء قال: «كنَّ مسليات فيما مضى، حتى بدأن يتعاملن بجدية. والآن صِرنَ سخيفات ليس إلا.»

في خريف ذاك العام، فُرض عليَّ قضاء مزيد من الوقت مع «بيلي الذي لا يبالي»؛ إذ تصادف، بعد شهر من محادثتنا، أن حللنا ضيوفًا على بيت سيدة عزيزة، وحينئذٍ بدأ يروقني أكثر. أدركت أنه من المفيد معرفة رجل مثله. فيما يخص الأزياء، على سبيل المثال، كان الاقتضاء به خيارًا مضمونًا في جميع الأوقات. فهو دائمًا ما يرتدي ربطة العنق وطوق الرقبة والجوارب الملائمة، حتى إن لم تكُن تتفق مع أحدث صيحات الموضة؛ وفي المسائل الاجتماعية، كان دوره لا يُقدَّر بثمن بصفته صديقًا ومرشدًا وفيلسوفًا. كان يعرف الجميع، ويعرف القناعات السابقة لكلٍّ منهم أو منهن. كان على دراية بماضي كل امرأة، ولديه من بُعد النظر ما يمكِّنه من تخمين مستقبل كل رجل. كان بوسعه أن يدُلَّك على مخزن الفحم؛ حيث كانت كونتيسة جلنليمان تلهو في شبابها، وأن يصحبك لتناول طعام الإفطار في المقهى القريب من طريق مايل إند، والذي تعلوه لافتةٌ كُتبَ عليها «مقهى سام سميث، أُسِّس عام ١٨٢٠». وهناك سيخبرك أن مَن يُدير المقهى هو شقيق الروائي سميث ستراتفورد ذي الشهرة العالمية، والذي تتناول رواياته المجتمع الراقي، مضيفًا أن شقيقه يحيا هنا حياةً لا يكتب عنها أو يصوِّرها أو ينقدها أحد، ويكسب قوته من بيع شرائح لحم الخنزير، الشريحة بثلاثة بنسات ونصف، وشرائح الخبز السميكة، الشريحتان ببنس. كان يعرف الموائد التي يُعد التنديد بالفساد السياسي عليها فعلًا غير لائق. وكان بوسعه أن يحدِّد بسهولة أيًّا من العلامات التجارية ترتبط بأيٍّ من شعارات النبالة، ويتذكَّر سعر كل لقب بارونيت مُنح خلال الخمسة عشر عامًا الماضية.

أما فيما يتعلَّق بشخصيته، فربما ينطبق الوصف الذي أطلق قبلًا على الملك تشارلز: لم يتفوَّه قطُّ بعبارة حمقاء ولم يقُم قطُّ بفعل حصيف. كان يحتقر معظم رفاقه من الرجال، أو يتصنَّع ذلك، ومعظم رفاقه ممَّن تُحترَم آراؤهم كانوا يحتقرونه صدقًا.

باختصار، كان شابًّا مسلِّيًا، يتمتَّع بقدرٍ من الذكاء، ما يجعل المرء يستمع بصحبته بعد العشاء، لكنه يتجنَّبه في الصباح الباكر.

كان هذا رأيي فيه إلى أن جاء اليوم الذي وقع فيه في الحب، أو «تدَلَّه في غرام جيرتي لوفيل»، حسب تعبير تيدي تدمارش الذي حمل الخبر إلينا.

أضاف تيدي: «جيرتي ذات الشعر الأحمر»، كي يُميِّزها عن أختها التي تبنَّت مؤخرًا موضة صبغ الشعر باللون الأصفر الذهبي.

صاح النقيب متعجبًا: «جيرتي لوفيل، كيف ذلك؟! لطالما قيل لي إن الأختَين لوفيل لا تملكان قرشًا واحدًا.»

علَّق تيدي: «أنا متأكد أن أباهما العجوز مُفلِس تمامًا»، وكان تيدي يحصِّل دخلًا مُرضيًا من العمل بمكتب بالقرب من شارع هاتون جاردن، بَيْد أن طبيعة عمله ظلَّت لغزًا، ورغم اتباعه مبدأ الصراحة المطلقة فيما يخص شئون الآخرين الخاصة، فإنه كان يستثني ذاته دائمًا من هذا.

استطرد النقيب قائلًا: «على الأرجح ظهر لها عمٌّ غني ممَّن أثْروا من تجارة لحم الخنزير أو بيع الألماس في أستراليا أو أمريكا أو أحد تلك البلدان، وبلغ بيلي خبر عنه في الوقت المناسب. إن بيلي لا تنقصه النباهة.»

اتفقنا على ضرورة وجود تفسير من هذا النوع يبرِّر هذا الزواج، على الرغم من أن اختيار جيرتي لوفيل زوجةً لبيلي كان اختيارًا منطقيًّا من النواحي الأخرى كافةً، بيد أن المنطق لا يُتبع دائمًا فيما يتعلَّق باختيار الزوجة.

في ضوء الشمس، لم تبدُ الآنسة لوفيل جذابة جدًّا، لكن في الحفلات المسائية؛ حيث التوزيع الجيد للإضاءة، كانت ملامحها تكتسب مزيدًا من الحيوية والنضارة. لم تكُن جميلة في أفضل حالاتها، غير أنها ظلَّت تعكس هالة من الرُّقيِّ والتهذيب حتى في أسوأ حالاتها، ما جنَّبها تجاهل الناس لها، فضلًا عن تميُّزها بأناقة الملبس. من حيث الشخصية، كانت سيدة مجتمع نموذجية؛ تقطر لطفًا على الدوام، ولا تنطق صدقًا في أغلب الأحوال. على صعيد الدِّين، كانت ترتاد إحدى كنائس حي كينسنجتون، وفيما يتعلَّق بالأخلاق، كانت تلتزم بالقيم السائدة في حي مايفاير؛ كانت تقرأ الأعمال الأدبية التي تُتيحها مكتبة مودي، وتتابع الحركة الفنية في معرض جروسفينور الفني، ومكَّنها ذلك من الثرثرة بطلاقة في مواضيع السياسة والفلسفة والأعمال الخيرية على جميع موائد شاي الساعة الخامسة التي كانت تُدعى إليها. كانت أفكارها تتطابق دومًا مع أحدَث الأفكار السائدة، وآراؤها تتفق مع رأي مَن تتحدَّث معه. في عصر أحد الأيام بنادي بيونير، طلب روائي مشهور من السيدة بوند الشابة، وهي زوجة الرسام بوند، أن تصفها له باختصار. ظلَّت السيدة

صامتة للحظات وشفتاها الجميلتان مزمومتان ثم قالت: «إنها امرأة غاية أملها في الحياة أن تتلقى دعوة على العشاء في بيت دوقة، ولا يؤلمها شيء أكثر من ارتداء زي غير مناسب.»

ربما وجب عليَّ وقتها قول إن هذا الوصف الوجيز كان صادقًا بقدر ما كان قاسيًا، لكن الحاضرين يومها لم تجمعهم معرفة وثيقة حسبما أظن.

هنَّأتُ السيد المحترم ويليام سيسل ويتشوود ستانلي درايتون، أو «بيلي الذي لا يبالي»، كما نلقِّبه في النادي، على الحدث السعيد عندما لقيتُه لاحقًا على سلالم مطعم سافوي، ولاحظت أن وجهه قد تورَّد، أو ربما توهَّمتُ ذلك بفعل ارتعاش ضوء المصباح الكهربائي. قلت له: «فتاة لطيفة جدًّا، يا لك من وغد محظوظ يا بيلي.»

كانت عبارتي هذه لا تزيد على ما يُقال عادةً في تلك المناسبات، وقد نطق بها لساني من تلقاء ذاته دون تفكير، لكن بيلي رأى أنها تعبير صادق وودود لا يُقدَّر بثمن.

فانتهز الفرصة وقال: «سوف تحبها أكثر عندما تتعرَّف عليها. إنها تختلف كثيرًا عن النساء اللاتي يلقاهن المرء. تعالَ والقها غدًا عصرًا، سوف تُسَر كثيرًا للقائك. تعالَ في الساعة الرابعة، سوف أبلغها أن تنتظرك.»

قرعتُ جرس منزلها بعدما تجاوزت الساعة الخامسة بعشر دقائق. وكان بيلي هناك. ارتجفت قليلًا وهي تسلِّم عليَّ كناية عن الإحراج، ورغم أن هذا التصرُّف بدا مُستغرَبًا منها، فإن تأثيره لم يخلُ كليًّا من اللطف. شكرتني على أنني جئت لزيارتها مبكرًا. مكثت نصف ساعة، لكن المحادثة صارت رتيبة، وبعض ملاحظاتي الذكية لم تسترعِ انتباهًا من أي نوع.

وعندما نهضتُ كي أستأذن بالانصراف، قال بيلي إن عليه أن يغادر هو الآخر، وأنه سوف يصحبني. لو كانا عاشقَين عاديَّين لكنتُ حرصت على أن أفسح لهما المجال كي يودِّع بعضهما بعضًا على انفراد، لكن في حالة السيد المحترم ويليام درايتون والآنسة لوفيل الكبرى، ارتأيت أن لا داعي إلى هذه التكتيكات؛ لذا انتظرت حتى تصافحا ونزلت السلالم معه.

لكن ما إن بلغنا بَهْو المنزل حتى هتف بيلي فجأة: «رباه! انتظرني نصف دقيقة»، ثم عاد صاعدًا السلالم ركضًا. ويبدو أنه وجد ما دفعه إلى العودة على قمة السلالم؛ إذ لم أسمع صوت باب غرفة الاستقبال يُفتح. بعد ذلك، نزل مجددًا وعلى ملامحه سَمْت رَزين لا مبالٍ.

وبينما يضع ذراعه في ذراعي، قال مفسرًا: «نسيت قفازيَّ، دائمًا ما أترك قفازيَّ هنا وهناك.»

لم أقُل إنني رأيته يتناول قفازَيه من داخل قبعته ويضعهما خلسة في جيب معطفه.

لم نرَ بيلي كثيرًا في النادي طوال الأشهر الثلاثة التالية، وعلق النقيب بأنه سوف يعوضنا عن غيابه هذا وأكثر بعد الزواج؛ كان النقيب يستمتع بلعب دور الصديق المتشائم في غرفة التدخين بالنادي، وربما تحسَّن أداؤه لهذا الدور لو اتسم، بين الحين والآخر، بقدر من الأصالة. خُيِّل إليَّ مرَّة، في ضوء الشفق، أنني لمحت رجلًا ذكَّرني ببيلي تصحبه امرأة تشبه الآنسة لوفيل الكبرى، لكن مَن رأيتهما كانا في حديقة باترسي، التي لا تُعد وجهة أنيقة للنزهات الليلية، فضلًا عن أنهما كانا متعانقَي الأيدي وبدا المشهد كله أشبَه بالفصل الأخير من رواية عاطفية نُشرت في مجلة «لندن جورنال» الأسبوعية، ومن ثَم قررت أنني أخطأت في ظني.

بَيْد أني رأيتهما بالفعل، في إحدى الأمسيات، جالسَين في المقاعد الأمامية بمسرح أديلفي، ومستغرقَين في متابعة مسرحية ميلودرامية عاطفية. لقيتهما في الاستراحة بين الفصول، وشرعت أُلقي ملاحظات ساخرة على المسرحية، مثلما نسخر عادةً مما يعرضه مسرح أديلفي، لكن الآنسة لوفيل ترجَّتني بحرارة ألا أؤثر سلبًا على إعجابها بالعرض، وأراد بيلي أن يتناقش معي جدِّيًّا حول ما إذا كان يحق لرجل أن يتصرَّف مثلما تصرف ويل تيريس، بطل المسرحية، توًّا مع المرأة التي يحبها. تركتهما ورجعت إلى مجموعة الأصدقاء الذين جئت معهم، ما أراح جميع الأطراف، حسبما ظننت.

تزوَّجا بعد مرور فترة مناسبة. وعندئذٍ اكتشفنا أننا أخطأنا في بعض ظنوننا. فبيلي لم يحقِّق أي استفادة مادية من الزواج. لكن بدا لنا أن الزوجَين راضيان بالعيش على ما يملك بيلي من ثروة معقولة. سكنا منزلًا صغيرًا جدًّا بالقرب من محطة فيكتوريا، وأجَّرا عربة بأحصنة في أثناء الموسم الاجتماعي. لم يستضيفا الكثير من الناس في منزلهما، لكنهما حرصا على أن يرتادا جميع الأماكن العصرية واللائقة التي ينبغي أن يراهم الناس بها. وبتحوُّل الآنسة لوفيل الكبرى إلى حرم السيد درايتون المحترمة، صارت أكثر شبابًا وتألُّقًا مما كانت عليه قبلًا، ولأنها ظلَّت ترتدي ملابس في غاية الأناقة، ترقَّت سريعًا في المراكز الاجتماعية. اصطحبها بيلي معه إلى كل مكان، وتجلى فخره بما حققته من نجاح. بل قيل إنه هو مَن يصمِّم فساتينها، وقد لاحظته بنفسي يدرس بإمعانٍ الفساتين في واجهة محل راسيل آند آلين.

لم تتحقَّق توقعات النقيب. فبعدما تزوَّج بيلي الذي لا يبالي، إن كان هذا اللقب لا يزال ينطبق عليه، لم يعُد يأتي إلى النادي إلا نادرًا. لكنه صار يروقني، وبدأت أعجب

أيضًا بزوجته، مثلما تنبَّأ قبلًا. وجدت أن ما يتَّسمان به من لا مبالاة هادئة حيال قضايا العصر الملحَّة يُتيح لي متنفَّسًا حقيقيًّا يُريحني من الأجواء المرهقة للذهن في الأوساط الفنية والأدبية. ففي غرفة الاستقبال بمنزلهما الصغير في شارع إيتون رو، كانت المقارنة بين جورج مريديث وجورج آر سيمز من حيث البراعة والقيمة الأدبية موضوعًا لا يستحق النقاش. فكلاهما كانا يُعَدَّان فردَين يوفِّران قدرًا معيَّنًا من الترفيه مقابل مبلغ محدَّد من المال. ولو أتى لزيارتهما، في عصر أي يوم أربعاء، هنريك إبسن وآرثر روبرتس للقي كلاهما القدر ذاته من الترحيب بصفتهما إضافة مُمتِعة إلى تجمع الضيوف المحدود بمنزلهما. لو حكم عليَّ العيش في هذا البيت كنت سأمل من هذا السلوك الساذج، لكن زيارته بين الحين والآخر، كان تأثيرها منعشًا؛ لذا استغللتُ فرصة ترحيبهما بي، الذي أحسبه صادقًا، وزرتهما كلما سنحت الفرصة.

ومع توالي الأشهر، بدا أنهما يزدادان قربًا، رغم أني سمعت أن هذا التقارب بين الزوجين ليس معتادًا في أوساط المجتمع الراقي. في إحدى الأمسيات، قدمت إلى بيتهما مبكِّرًا عن موعدي بقليل، فقادني رئيس الخدم، وهو رجل لا تُسمع خطواته، إلى غرفة الاستقبال. وهناك وجدتهما جالسين في ضوء الغسق وذراع كلٍّ منهما حول الآخر. كان الانسحاب من الغرفة مستحيلًا؛ لذا واجهت الموقف وسعلت. تفاجآ وشعرا بإحراج كبير كما لو كانا عاشقين من الطبقة الوسطى.

لكن هذا الحادث أدَّى إلى خلق حالة من التفاهم بيننا، فصارا يُعاملانني بصفتي الصديق الذي لا يحتاجان إلى التظاهر أمامه.

وبملاحظتهما عن قرب، توصَّلتُ إلى استنتاج مفاده أن أشكال الحب وأساليبه تتشابه جدًّا في هذا العالم الواسع، وكأن كيوبيد، ذاك الفتى الطائش، الغافل عن تطوُّر البشر، فرض منهجًا واحدًا للحب على كلٍّ من الشاعر المغمور وبائع المتجر الصبي بحي إيست إند، وعلى الفتاة خريجة كلية جريتون وصانعة القبعات البسيطة؛ والدرس نفسه الذي لقَّنَه رجال الهون والبيكتيين الملتحين منذ أربعة آلاف سنة علَّمَه جوني الشاب الذي يحيا في أواخر القرن التاسع عشر.

وهكذا مرَّ صيف وشتاء هانئ على السيد المحترم بيلي درايتون، ثم شاء الحظ أن يسقط مريضًا في منتصف الموسم الاجتماعي بلندن، عندما تتوافد دعوات الحفلات الراقصة وحفلات العشاء ودعوات زيارات المنازل وتناول طعام الغداء من كلِّ حَدبٍ وصوب، وعندما يصير العشب الذي يكسو مروج نادي هارلنجهام في نعومة الحرير وتكون حلبات تجهيز وعرض الخيول في أبهى رونق.

من سوء الحظ أيضًا أن صيحات الموضة في هذا الموسم كانت تناسب حرم السيد بيلي أكثر من أي موسم سابق. وكان الزوجان قد اجتهدا، مع بداية الربيع، في تصميم أزياء توقَّعَا أن تخطف القلوب في جميع أنحاء حي مايفاير، وكانت الفساتين والقبعات، وكلٌّ منها عمل فني، مُعلَّقة على المشاجب في انتظار أن تطلق العنان لتأثيرها الساحر. لكن حرم السيد بيلي المحترمة لم تعُد تهتم بتلك الأمور، لأول مرة في حياتها.

حزن أصدقاؤهم حزنًا حقيقيًّا على ما أصابهما؛ فالمجتمع الراقي هو الوسط الطبيعي لبيلي، وفيه يصير جذابًا وممتعًا. لكن مرضه لا يعني بالضرورة حكمًا بالسجن على زوجته، حسبما علقت السيدة جوير. فانعزالها عن العالم لن ينفعه بشيء وسوف يبدو تصرُّفًا غريبًا.

ولأن حرم السيد درايتون المحترمة كانت ترى الغرابة جريمة، ولأنها كانت تعد صوت السيدة جوير النبيلة هو صوت الواجب، فقد ضحَّت برغباتها على مذبح القبول الاجتماعي، وأحكمت لف ثيابها الجديدة حول قلبها المتألم وولَّت وجهها شطر المجتمع الراقي.

لكن حرم السيد درايتون المحترمة لم تحقِّق النجاح الذي حقَّقَته في المواسم الاجتماعية السابقة. فالمحادثات القليلة التي كانت تتبادلها مع الناس صارت أقل بكثير، حتى إنها باتت غير مُرضية لقاطني طريق بارك لاين من الأثرياء الجدد. صار لضحكتها الشهيرة وقع أجوف. وكانت عبارات الحكمة التي يتفوَّه بها الدوقات تجعلها تبتسم، ونوادر المليونيرات المضحكة تُصيبها بالحزن. أجمع المجتمع الراقي على كونها زوجة صالحة، لكنه رأى أن صحبتها مُملَّة، ومن ثَم قصر اهتمامه بها على الرسائل القصيرة التي تستعلم عن الحال. شعرت حرم السيد درايتون المحترمة بالامتنان لأنها ارتاحت من هذا الهم، ولأن بيلي كان يزداد ضعفًا. ففي عالم الأوهام الذي أحاط بها، كان بيلي هو الحقيقة الوحيدة. ومع أن دورها في العناية به كان محدودًا من الناحية العملية، واسَتْها فكرة أنها تساعد في تمريضه.

لكن بيلي نفسه كان منزعجًا.

كان يقول لها: «كم أتمنى أن تخرجي أكثر من البيت يا عزيزتي. أشعر أنني رجل قاسٍ وأناني لأني أبقيك هنا بجانبي في هذا البيت الصغير الكئيب. فضلًا عن أن الناس سيفتقدونك، وسوف يكرهونني لأني أبعدتكِ عنهم.» فمعرفة بيلي الواسعة بالعالم لم تنفعه في المسائل المتعلِّقة بزوجته. كان يظن حقًّا أن المجتمع الراقي يتوق لصحبة حرم السيد درايتون المحترمة، ولم يهدأ له بال ما دامت بعيدة عن ذاك المجتمع.

كانت زوجته ترد عليه قائلة: «أفضِّل البقاء معك يا عزيزي. لا يهمني الذهاب هنا وهناك وحدي. عليك أن تتحسَّن سريعًا كي تصحبني إلى تلك الأماكن.»

ظلَّ الحديث بينهما يدور على هذا المنوال حتى مساء اليوم الذي دلفت فيه المرضة بهدوء إلى حجرة السيدة بيلي درايتون، حيث كانت الأخيرة تجلس وحدها، وأغلقت الباب وراءها، ثم سارت إليها.

قالت المرضة: «أتمنى أن تخرجي الليلة يا سيدتي، لساعة أو ساعتَين ليس إلا. أعتقد أن السيد بيلي سيسرُّه ذلك؛ إنه يقلق نفسه لأنه يظن أنكِ لا تخرجين بسببه، وفي الوقت الحالي ...» تردَّدَت المرضة للحظة، ثم أضافت: «في الوقت الحالي أرغب في أن يظل هادئًا جدًّا.»

سألت الزوجة: «هل زادت حالته سوءًا أيتها المرضة؟»

أجابتها المرضة: «لنقُلْ إن حالته لم تتحسَّن يا سيدتي، وأرى ... أرى أنه لا بد لنا من مسايرة رغباته.»

نهضت حرم السيد درايتون المحترمة وسارت نحو النافذة، وظلَّت واقفة هناك لبرهة تتطلَّع إلى الخارج.

ثم قالت أخيرًا: «لكن إلى أين سأذهب؟»، ثم الْتفتت إليها مبتسمةً وأضافت: «لم أعُد أتلقى أي دعوات.»

قالت المرضة: «هل بوسعك التظاهر أنك تلقَّيت دعوة اليوم؟ إن الساعة لم تتجاوز السابعة مساءً. قولي إنكِ ذاهبة إلى حفل عشاء، وحينئذٍ يمكنك أن تدَّعي أنكِ عُدت مبكرًا إلى المنزل. اذهبي وارتدي ثيابك، وانزلي لتوديعه، ثم عودي إليه في الساعة الحادية عشرة مثلًا، وتظاهري بأنكِ قد عُدتِ لتوِّك من الخارج.»

سألتها الزوجة: «أترين ضرورة لهذا؟»

ردَّت المرضة: «أرى أن الوضع سيكون أفضل هكذا يا سيدتي. أتمنى أن تجرِّبي هذه الفكرة.»

توجَّهَت حرم السيد درايتون المحترمة نحو الباب ثم توقَّفَت وقالت: «إن سمعه حادٌّ أيتها المرضة، سوف ينصت لصوت الباب إذ ينفتح ولصوت العربة.»

قالت المرضة: «سأتولى هذه المسألة. سوف أخبر الخدم أن يحضروا العربة إلى باب المنزل في الساعة الثامنة وعشر دقائق. ويمكنك حينئذٍ الذهاب بالعربة حتى آخر الشارع ثم مغادرتها والعودة مشيًا إلى البيت، سوف أفتح لك الباب بنفسي.»

سألت الزوجة: «وماذا عن خطة العودة إلى المنزل؟»

ردَّت الممرضة: «عليكِ أن تتسللي إلى الخارج قبل حلول الساعة الحادية عشرة ببضع دقائق، وستجدين العربة لا تزال تنتظرك في آخر الشارع. دعي هذا الأمر لي.»

وهكذا، في ظرف نصف الساعة، دلفت حرم السيد درايتون المحترمة إلى غرفة زوجها المريض، وهي تشع أناقة مرتدية فستان سهرة ومجموعة من الحُلِيِّ. ولحسن الحظ كانت الأضواء خافتة في الغرفة، وإلا كان من المحتمَل أن يتشكَّك في الانطباع الذي تحاول زوجته إيصاله إليه. فالتعبير على وجهها لم يكن تعبير امرأة ذاهبة إلى حفل عشاء.

قال بيلي: «أبلغتني الممرضة أنكِ ذاهبة إلى آل جريفيليس هذا المساء. يُسعدني ذلك حقًّا. كنت قلِقًا من أن تظلي هنا في هذا الجو المُفعَم بالكآبة طوال الموسم.» ثم أمسك بيدها ورفعها على بعد ذراع منه، وأضاف: «يا لجمالك يا عزيزتي! إنني على يقين من أنهم جميعًا يلعنونني لأني أبقيكِ محبوسة هنا مثل أميرة في قلعة غول! لن أجرؤ على مواجهتهم مجددًا.»

ضحكت زوجته مسرورة بكلماته.

ثم قالت: «لن أتأخر. سأتوق إلى العودة سريعًا كي أرى كيف تصرَّفت في غيابي. وإذا لم تُحسن التصرُّف، فلن أخرج مجددًا.»

تبادلا القبل، ثم افترقا، وفي الساعة الحادية عشرة، عادت زوجته إلى الغرفة. وأخذت تحكي له كم كانت الأمسية مبهجة وتباهت قليلًا بما نالته من إعجاب.

ولاحقًا أخبرتها الممرضة أنه كان مبتهجًا في تلك الليلة أكثر من ليالٍ عديدة سابقة.

لذا، واصلا أداء هذه المسرحية الهزلية يوميًّا لأجل خاطره. فكانت الزوجة تتظاهر بأنها مدعوَّة على الغداء اليوم، وتخرج مرتدية ثوبًا من تصميم ريدفيرن، متجر الأزياء الشهير، وفي الليلة التالية كانت تدَّعي أنها ذاهبة إلى حفلٍ راقص، مرتدية فستانًا أُرسل مباشرة من باريس، وعاودت الكَرَّة كل يوم، فكانت تُخبره أنها ستخرج لزيارة أحد المنازل أو لحضور حفل موسيقي أو حفل عشاء. كان المارة والمتسكعون يتوقفون كي يحدِّقوا في تلك المرأة المنهكة، الحمراء العينَين التي ترتدي ثيابًا أنيقة، وتتسلَّل مثل اللصوص من وإلى بيتها.

سمعت مجموعة تتحدَّث عنها في عصر أحد الأيام، في منزل كنت أزور أصحابه، فانضممت إليهم كي أنصت لما يقولون.

كانت امرأة منهم تقول: «طالما اعتقدت أنها قاسية القلب، لكني ظننت أنها امرأة عاقلة. لا يتوقع أحد من النساء أن يغرمن بأزواجهن، لكني لا أرى داعيًا إلى أن تستعرض تجاهلها له وهو على فراش الموت.»

تذرَّعتُ بأني كنت غائبًا عن المدينة كي أستفهم عما تعنيه، فسمعت القصة نفسها منهم جميعًا. لاحظ أحدهم أن عربتها كانت تقف عند باب منزلها ليومَين أو ثلاثة أيام متتالية. ورآها آخر وهي عائدة إلى المنزل. ولمحها شخص ثالث وهي خارجة منه، وهكذا.

شعرت أن ما سمعته يتناقض مع ما أعرفه عنها؛ لذا قررت زيارتها في مساء اليوم التالي. وفور أن بلغت المنزل، فتحت لي الباب بنفسها.

وقالت: «رأيتك قادمًا من النافذة. ادخل بسرعة، لا تتكلم.»

تبعتها إلى الداخل، وأغلقَت هي الباب وراءها. كانت ترتدي ثوبًا مبهرًا، وكان شعرها يلمع ببريق الألماس الذي يزينه، فتجلَّت على وجهي أمارات الحيرة.

ضحكَت بمرارة ثم قالت مفسِّرةً: «من المفترض أن أكون في الأوبرا الليلة. اجلس، إذا كان لديك القليل من الوقت.»

قلت إني جئت كي أتحدَّث معها؛ فجلسنا في غرفة مظلمة لا يُضيئها سوى الضوء القادم من عمود الإنارة بالشارع، وأخبرتني القصة كاملة. وبعدما أنهت حديثها أرخت رأسها على ذراعَيها العاريَتين، وتحوَّلتُ أنا عنها وطفقت أنظر من النافذة لبعض الوقت.

نهضت من مكانها ثم قدمت ناحيتي وقالت: «أشعر بسخافة بالغة. سأظل جالسة هنا طوال المساء، مرتدية تلك الثياب. أخشى ألا أمثِّل دوري جيدًا، لكن بيلي العزيز لم يتمتع قطُّ بملكات نقدية، وقدراتي على التمثيل تكفي لإقناعه. سوف أخبره بأكاذيب نكراء عما قاله الجميع لي، وعمَّا قلته لهم، وعن إعجابهم بفساتيني. ما رأيك في الفستان الذي أرتديه اليوم؟»

رددتُ عليها رد صديق مُخلِص ومتعاطف.

قالت: «يسعدني أنك تُحسن الظن بي. إن بيلي يحترمك كثيرًا. سوف تسمع بعض الحكايات الغريبة. يسرني أنك تعرف الحقيقة.»

اضطررت إلى مغادرة لندن مجددًا، وتوفي بيلي قبل عودتي. سمعت أنهم اضطروا إلى إحضار زوجته من حفل راقص، وأنها استطاعت تقبيله في آخر لحظة قبل أن تبرد شفتاه. بَيْد أن أصدقاءها عذروها، بزعم أنه تدهور فجأة.

زُرتها بعد ما حدث بفترة قصيرة، وقبل أن أغادر ألمحت إلى ما كان الناس يردِّدونه، وسألتها أليس من الأفضل أن أخبرهم بالحقيقة.

أجابتني قائلة: «أفضِّل ألا تفعل ذلك. أرى في ذلك إفشاء لأسرار تخصُّ الجانب الشخصي من حياة المرء.»

احتججت بقولي: «لكنهم سوف يظنون …»

قاطعتني قائلة: «هل يهم حقًّا ما يظنونه؟»

وقد فاجأني سماع هذا الرأي الاستثنائي من حرم السيد درايتون المحترمة، التي كانت تُدعى قبلًا الآنسة لوفيل الكبرى.

اختيار سيرل هارجون

بين مشرف طلابي مبتدئ يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا، وصبي متأخر دراسيًّا في الخامسة عشرة من العمر فجوة لا يمكن تجاوزها. ولكن صحفي مكافح في الحادية والثلاثين وطبيب في الخامسة والعشرين، له سجل حافل بالنجاحات ويُتوقَّع منه تحقيق المزيد في المستقبل، قد تنشأ بينهما صداقة وثيقة.

كان القس تشارلز فاوربيرج هو مَن عرَّفني على سيرل هارجون.

أتذكَّر أنه وقف واضعًا يده على كتف تلميذه وتحدَّث إليَّ بذلك الأسلوب التوجيهي الذي يميِّز المعلمين قائلًا: «صديقنا الصغير هذا عانى من بعض التجاهل، لكني أرى أنه يتمتَّع بإمكانات مبشِّرة، مبشِّرة حقًّا إن جاز لي القول. سوف يبقى تحت رعايتي الخاصة في الوقت الحالي؛ لذا لا داعي إلى أن تشغل نفسك بدروسه. وسوف ينام مع ميلينج والآخرين في السكن الطلابي رقم ٢.»

نما لدى الفتى إعجاب ناحيتي، وأظن، بل آمل، أنني جعلت إقامته المؤقتة في مدرسة ألفا هاوس الداخلية أقل مشقة من المعتاد. كان منهج القس تشارلز للتعامل مع الطلاب المتأخرين دراسيًّا لا يختلف في شيء عن طريقة تربية الإوز؛ إذ كان يحشدهم في مكان واحد ثم يصبُّ المعلومات صبًّا في عقولهم. وهي عملية مُربِحة للمعلم ومؤلمة للإوز.

تركت أنا وهارجون الشاب مدرسة «ألفا هاوس» مع نهاية الفصل الدراسي نفسه؛ الْتَحق هو بكلية برايسنوز في حين توجَّهتُ أنا إلى حي بلومزبيري في لندن. حرص على زيارتي كلما أتى إلى لندن، وحينئذٍ كنا نتعشى معًا في أحد المطاعم المعتمة بحي سوهو، والذي تفوح منه رائحة الثوم، ثم نتحدث عن خططنا المستقبلية ونحن نحتسي زجاجة من خمر بون الرخيص؛ وعندما بدأ العمل بمستشفى جاي كنت قد تركت شارع جون، واستأجرتُ مسكنًا بالقرب من محل إقامته في ستابل إن. كانت تلك أيامًا جميلة. يبالغ

الناس في تقدير مرحلة الطفولة، رغم أن ما بها من أسًى يفوق ما تحمله من بهجة. لا أرغب في عيش طفولتي مجددًا حتى لو أُتيحت لي الفرصة، لكني على استعداد لأن أضحِّي ببقية عمري في سبيل عيش عقد العشرينيات مجددًا.

كان سيرل يراني رجلًا واسع الخبرة، ويلجأ إليَّ لسماع آرائي الحكيمة، لكنه لم يدرك دومًا، مع الأسف، أنه يتحلى بالحكمة هو الآخر؛ أما أنا فكنت أستمد منه الحماس وقد ساعدني على إدراك مدى النفع الذي يعود على الرجل منا حين يلتزم بمبادئه.

في كثير من الأحيان، بينما نتحدث، كنت أشعر أن ضوءًا جليًّا ينبعث منه، ويحيط وجهه بهالة كما في صور بعض القديسين. لقد أهدرت الطبيعة قدراته عندما جلبته للحياة في زمننا هذا، في القرن التاسع عشر. القرن الذي شهد اكتمال جميع انتصاراتها. فجيشها وأبطاله — القليل منهم تغنى الناس بأمجادهم والكثير منهم طواهم النسيان — تقرَّر تسريحه. وساد الأرض السلام[1] الذي دفعوا ثمنه بدمائهم ومعاناتهم. ليت الطبيعة جعلت من سيرل واحدًا من جنودها. فربما أصبح شهيدًا في الأزمنة حين كانت الأفكار تودي بصاحبها إلى الحرق حيًّا، أو مُدافِعًا عن الحق عندما كان التعبير عن الرأي جزاؤه الموت. إن العمل الأنسب له هو السعي المستميت في سبيل رُقيِّ الحضارة؛ بَيْد أن القدر حكم عليه بأن يضطلع بدور الحارس في مجتمع أُرسِيَت قواعده.

لكن العالم لا يزال يحتاج إلى الجهد البشري، وإنْ كان العمل مطلوبًا الآن في الحقول لا في ميادين الحرب. وبفضل دخل صغير، لكنه كافٍ، نال سيرل حريته. يرى معظم الرجال أن الدخل الثابت هو مقبرة الطموح؛ لكن في حالة سيرل كان هذا الدخلُ المحفِّزَ الأساسي لرغبته في العمل. فبعدما تخلَّص من ضرورة العمل لكسب العيش، صار يملك ترف العيش من أجل العمل. كان يعشق عمله؛ ولم يرَه بعين الفضول البارد الذي يميز العالِم، بل بعين المريد المتفاني الواسع الخيال. كان يحلم بتوسيع آفاق الطب، وحمل رايته إلى الصحراء المجهولة التي تقع خلف حدود المعرفة البشرية.

في إحدى أمسيات الصيف، أتذكر أننا كنا جالسين في مسكنه، وفي لحظة صمت تناهى إلى سمعنا صوت أنين المدينة قادمًا من النافذة المفتوحة، وكأنها طفل مُتعَب يتأوَّه. نهض

[1] كتبت هذه المجموعة القصصية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر؛ حيث سادت إنجلترا فترة سلام طويلة نسبيًّا، وقد دامت حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

سيرل ومدَّ ذراعَيه نحو الشوارع المظلمة، كأنما يدعو جميع الرجال والنساء الكادحين لأن يأتوا إليه كي يخفِّف عنهم.

صاح قائلًا: «ليتني أستطيع مساعدتكم يا إخواني وأخواتي. يا إلهي، أتضرَّع إليك! اجعل حياتي مُكرَّسة لخدمة عبيدك.»

عندما أقرأ كلامه هذا مكتوبًا يبدو لي كلامًا مسرحيًّا، لكن الشباب لن يعدُّوه سخيفًا مثلنا نحن الرجال الأكبر عمرًا.

وبحسب التطور الطبيعي للأحداث، وقع في الحب، حب امرأة من النوع الذي يُتوقَّع منه أن ينجذب له. كانت إليسبث جرانت من النساء اللاتي استلهم منهن فنَّانو العالم، على نحو غريزي لا عن قناعة، وجوه السيدة العذراء والقديسين. من المستحيل وصف امرأة بالكلمات. وجمال إليسبث لم يكن سِمة منفصلة يمكن تقييمها على حدة بل جزء لا يتجزأ من ذاتها. كان المرء يشعر به مثلما يشعر بجمال فجر يوم صيفي إذ يبزغ مبددًا ظلال المدينة النائمة، لكنه يعجز عن وصفه كتابةً. لقيتها مرارًا، وعندما كنت أتحدَّث معها، كنت أشعر — أنا الصحفي الفاشل، زبون حانات شارع فليت، وبيَّاع القصص التي يرويها الرجال في غرف التدخين — أنني سيد مهذب راقٍ، لا يعرف معنى الخسة، ولا يبدر منه سوى كل فعل نبيل.

في حضورها كانت الحياة تبدو جميلة وكريمة؛ وكانت هي تجسيدًا حيًّا لقيم اللباقة والرقة والبساطة.

تساءلت منذ ذلك الحين، بعدما اكتسبت فهمًا أوضَح قليلًا لطبائع البشر، ألم يكن من الأفضل لو كانت أقل روحانية، لو اتسمت طبيعتها بمزيد من الخصال الأرضية بما يجعلها أكثر ملائمة لأغراض هذا العالم العادي. لكن وقتها، بدا لي أن هذين الصديقين قد خُلق كلٌّ منهما لأجل الآخر.

راقت الآنسةَ جرانت الجوانب الأسمى من شخصية سيرل، وعبَدَها هو بافتتان ظاهر إلى حدٍّ قد يحسبه رجل أقل نبلًا تكلُّفًا واصطناعًا، وتقبلت هي مشاعره تلك بسرور عَذْب مثلما كانت الإلهة أرتميس تتقبَّل توقير إنديميون وإجلاله لها.

لم تُعقَد خِطبة رسمية بينهما. بدا أن سيرل ينفر من إضفاء طابع مادي على حبهما عَبْر فكرة الزواج. كان يراها مثَلًا أعلى للأنوثة لا امرأة من لحم ودم. كان حبه لها حبًّا روحانيًّا خالصًا، لا تلوِّثه أي شهوات دنيوية.

لو كنت أكثر خبرة بالحياة وقتها ربما توقعت ما ترتب على ذلك؛ فصديقي رجل يجري الدم في عروقه؛ ونحن، مع الأسف، قد نحلم بالمُثل التي تمجِّدها قصائد الشعر، بَيْد

أننا لا نحيا وفقًا لها. لكن في ذلك الوقت كنتُ أرى أن فكرة تفريق امرأة أخرى بينهما لا تزيد على زعم أحمق. وتصوُّر أن تكون تلك المرأة الأخرى هي جيرالدين فاولي كان يثير استيائي لأني سأعدُّه إهانة لذكائي؛ هذا الجزء من القصة لا أفهمه حتى الآن.

أما انجذاب سيرل لها، ورغبته في التواجد بقربها، ومشاهدة الحمرة القانية إذ تروح وتجيء فوق وجهها، والسعي لإشعال نار الفضول في عينيها الداكنتين فتلك كانت مسألة مختلفة، ويمكن فهمها إلى حدٍّ كبير؛ فالفتاة كانت رائعة الجمال، وجمالها كان من النوع الصارخ المُغري، الذي يدعو الآخرين ويتحدَّاهم في الوقت نفسه. لكن إذا استثنينا المنظور الشهواني، تظلُّ جيرالدين فاولي امرأة مُنفِّرة. في بعض الأحيان، كانت تُبدي لطفًا مفاجئًا في حال ناسب ذلك أغراضها ورأت أنه يستحق الجهد، لكن تظاهرها باللطف كان دائمًا مُبالَغًا فيه وغير مُتقَن، ولم يخدع سوى الحمقى.

في جميع الأحوال، لم ينخدع سيرل بسلوكها هذا. في إحدى الأمسيات، كنا في تجمُّع بوهيمي، كان الدخول إليه يعتمد على سوء سُمعة المرء لا أخلاقه، رأيتهما يتحدثان معًا لوقت طويل، ورغبت في التحدث إلى سيرل، فسِرتُ نحوهما كي أنضم إليهما. لكن ما إن اقتربت منهما حتى ابتعدَت هي؛ إذ إن نفورها مني كان يعادل نفوري منها؛ وربما كان هذا من حُسن حظي.

علَّقتُ، وأنا أراقبها تبتعد، قائلًا: «يبدو أن الآنسة فاولي تفضِّل صحبة شخص واحد على صحبة شخصَين.»

رد ضاحكًا: «أخشى أنها تراك شخصًا غير متعاطف.»

سألته صراحةً: «هل تُعجبك؟»

استقرَّت عيناه عليها إذ تقف عند مدخل المنزل تتحدث مع رجل ضئيل الجسد ذي لحية سوداء عرَّفَه أحدُهم عليها للتو. وبعد بضع لحظات خرجت معه وذراعها في ذراعه، وحينئذٍ الْتَفتَ سيرل ناحيتي.

أجابني بصوت خفيض، مراعاة للناس من حولنا، قائلًا: «أرى أنها تجسيد لكل جوانب الشر في النساء. في الأزمنة الماضية، كان يمكن أن تكون كليوباترا أو ثيودورا أو دليلة. في عصرنا الحالي، ونظرًا إلى نقص الفُرص، أصبحت «امرأة ذكية» تفتِّش عن سبيل للانضمام إلى المجتمع الراقي، فضلًا عن كونها ابنة فاولي العجوز. أشعر بالتعب؛ فلنعُد إلى منازلنا.»

كان ذِكْره أباها أمرًا ذا دلالة. فقليل من الناس يربطون جيرالدين فاولي الجميلة والذكية بـ «فاولي المحتال»، السجين السابق والمرتد عن الديانة اليهودية، والذي يعمل

سمسارًا غير قانوني؛ ولأنه يعقد آمالًا على ما قد تحقِّقه ابنته، فقد حرص على ألا يعيق جهودها عَبْر الظهور برفقتها في أي مناسبة. لكن مَن لقي الأب ولو مرَّة في حياته فلن ينسى أبدًا صِلة القرابة تلك إن تحدَّث مع الابنة. فوجهُها نسخة من وجه الأب، بقسوته ومَكْره وطَمَعه، ويحمل الملامح والخطوط نفسها. وكأن الطبيعة، في نزوة فنية من نزواتها، عزمت على خَلْق البشاعة والجمال من المواد الخام نفسها. هل ثمَّة فرق بين ابتسامة الرجل الشهوانية الكريهة وابتسامة الفتاة؟ الإجابة عن هذا السؤال كانت ستحيِّر أي طالب تشريح. ورغم ذلك، فإن ابتسامة الأب تثير الاشمئزاز في حين أن الكثير من الرجال على استعداد لتقديم الكثير في مقابل أن تبتسم الفتاة في وجوههم.

أرضتني إجابة سيرل وقتها. كان يلقى الفتاة كثيرًا، بطبيعة الحال. فهي كانت مغنِّية مشهورة بعض الشيء، وكنا ننتمي إلى دائرة اجتماعية معروفة باهتماماتها الأدبية والفنية. يجدر بي، من باب الإنصاف، أن أذكر أنها لم تحاول استمالته قطُّ، أو حتى معاملته بلُطف زائد. على العكس، بدا أنها تسعى جاهدةً كي تبيِّن له طبيعتها، أي سِماتها الأشد إثارة للبُغض والاستهجان.

في أحد الأيام، كنت أنا وسيرل نحضر ليلة افتتاح عرض مسرحي، وبينما نغادر قاعة العرض، لقيناها في ردهة المسرح. كنت أتبع سيرل على مسافة قريبة بعض الشيء، لكن عندما توقَّفَ للتحدُّث إليها أدَّت حركة الحشود إلى دفعي كي أقف خلفه بالضبط.

سمعته يسألها بصوت خفيض: «هل ستذهبين إلى منزل لايتونز غدًا؟»

أجابته: «نعم سأذهب، وأتمنى ألا تأتي.»

سألها: «لماذا؟»

ردَّت قائلة: «لأنك أحمق، وصُحبتك تضجرني.»

في الأوضاع العادية، كنت سآخذ كلامها هذا على سبيل المزاح الثقيل؛ فهذا النوع من الظَّرف يتلاءم مع طبيعتها. لكن وجه سيرل تكدَّر وبدا عليه الغضب والاستياء. لم أعلِّق بشيء. فلم أرغب في أن يعرف أنني سمعت كلامها عرَضًا. حاولت إقناع نفسي بأنه يسلِّي نفسه، لكن تفسيري هذا لم يُرضِني.

في مساء اليوم التالي، ذهبتُ إلى منزل لايتنز وحدي. كان آل جرانت في المدينة وكان سيرل يتناول العشاء معهم. وجدتُ أنني لا أعرف الكثير من الحاضرين، ومَن أعرفهم لا يهمونني. كنت على وشك التسلُّل هاربًا عندما سمعت الخادم يُعلن مجيء الآنسة فاولي. اضطرت إلى التوقف والتحدث معي لأنني كنت واقفًا بجوار الباب. تبادلنا القليل من الكلام

المعتاد. كانت إما تتودَّد إلى الرجال أو تعاملهم بوقاحة. لم تنظر إليَّ وهي تُحادثني، بل كانت تبتسم وتومئ برأسها للناس من حولها. وقد لقيت الكثير من النساء القليلات التهذيب مثلها، دون أن يكون لهُنَّ عذر مثل عذرها. بَيْد أنها، حوَّلت عينَيها ناحيتي للحظة.

ثم سألتني: «أين صديقك، سيرل هارجون؟» ثم أضافت: «ظننتُ أنكما لا تفترقان.»

نظرتُ إليها بدهشة.

ثم أجبتُها: «إنه يتناول العشاء بالخارج الليلة.» واستطردتُ: «لا أظن أنه سيأتي.»

ضحكت. أظن أن أسوأ ما فيها كان ضحكتها؛ كانت تشي بقسوة بالغة.

ثم قالت: «أظن أنه سيأتي.»

أغضبني ردُّها إلى حدٍّ دفعني للتصرُّف بتهوُّر. كانت تتحرك مُبتعِدة. فخطوتُ أمامها كي أوقفها.

ثم سألتها، بصوت أدركتُ أنه أفشى الاضطراب الذي أشعرني به ردُّها: «لمَ تظنين ذلك؟»

نظرَت إلى وجهي مباشرةً. كانت تتمتَّع بفضيلة واحدة، فضيلة تتفوق بها الحيوانات على بني البشر؛ ألا وهي الصدق. كانت تعلم أنني لا أحبها، كنت سأقول إني أكرهها، مراعاةً لدقة التعبير، لو لم تبدُ هذه الكلمة عتيقة الطراز في هذا الزمن، وفوق ذلك لم تتظاهر البتة بأنها لا تدري حقيقة مشاعري بل أظهرت أنها تكنُّ لي الشعور نفسه.

أجابتني قائلة: «لأني هنا.» ثم استطردَت: «لمَ لا تُنقذه؟ أليس لك تأثير عليه؟ قُل لتلك المرأة القديسة أن تحتفظ به؛ فأنا لا أريده. لقد سمعتُ ما قلتَه له ليلة البارحة. لن أتزوجه إلا طمعًا في مكانته، وفي المال الذي قد يربحه إنْ كان يرغب في العمل لا في لعب دور الأحمق. أبلِغه هذا الكلام؛ لن أنكر أني قُلته.»

ثم تركَتْني كي تحيِّي لوردًا هرِمًا بابتسامة متلهِّفة، ووقفتُ أنا أحدِّق في أثرها، وعلى وجهي تعبير ينمُّ عن الغباء، حتى جاء شاب أحمق من الحضور كي يسألني باسمًا هل رأيت شبحًا أم راهنت على «فرس خاسر».

لم تكُن ثمَّة حاجة للانتظار؛ لم أشعر بأي فضول. أنبأني شيء ما أن هذه المرأة قد نطقت بالحقيقة. ما جعلني أتلكَّأ قبلًا كان افتقاد الدافع للتدخُّل. بعد قليل رأيت سيرل يدخل، وراقبته إذ يتتبَّع خُطاها، مثل كلب، في انتظار كلمة طيبة، أو حتى نظرة. كنت أعرف أنها تراني، وأدركت أن وجودي زاد من متعتها. لم أتحدَّث إليه إلا بعدما خرجنا إلى الشارع. جفل عندما لمسته. لم يكن أيٌّ منا يجيد التمثيل. حتمًا قرأ الكثير على وجهي،

ولم يُخفِ ذلك عليَّ؛ سِرنا جنبًا إلى جنب صامتَين، كنت أفكِّر فيما سأقول، متسائلًا ما إذا كنت سأنفعه أم سأضره، وتمنَّيتُ لو كنا في أي مكان آخر غير تلك الشوارع الصامتة التي تعج بمظاهر الحياة، وتمتلئ بما لا تراه العيون. ظللنا صامتَين حتى كِدنا نصل إلى قاعة ألبرت هول. حينئذٍ بدأ هو بالحديث، قال: «هل تظن أنني لم أقُل لنفسي هذا الكلام؟». ثم أضاف: «هل تظن أنني لا أعرف أني أحمق ووغد وكاذب! ما فائدة الحديث عن هذا الأمر بحق الجحيم؟»

قلت: «لكني عاجز عن فَهْمه.»

رد قائلًا: «لأنك أحمق، ولأنك لم ترَ سوى جانب واحد مني. أنت تظن أنني سيد مهذَّب عظيم، لأني أتحدث بفصيح العبارة، وأبدو مفعمًا بالمشاعر النبيلة. عجبًا لك أيها الأحمق، الشيطان نفسه قد يخدعك بالطريقة نفسها. أظن أنه يصير أحيانًا في حالة مزاجية جيدة، ويتحدث مثل القديسين، ويتلو صلواته معنا. هل تتذكر ليلتي الأولى في مدرسة فاوربيرج العجوز؟ لقد دسست رأسك الأبله هذا بين درفتَي باب المهجع ورأيتني راكعًا بجوار السرير في حين وقف باقي الصبية وعلى وجوههم ترتسم ابتسامات عريضة. أغلقتَ الباب برفق حينها؛ إذ ظننتَ أنني لم أرَك. لم أكُن أصلِّي، كنت أحاول أن أصلي.»

أجبتُه قائلًا: «إنْ دلَّ هذا على شيء فإنه يدل على شجاعتك.» ثم أضفت: «معظم الصبية لم يحاولوا حتى، لكنك واظبت على الصلاة.»

قال: «نعم، لقد وعدت أمي بذلك. يا للعجوز المسكينة، لقد كانت بلهاء مثلك. كانت تؤمن بي. ألا تذكر أنك ضبطتني عصر يوم سبت وأنا أزدرد الكعك والمربى؟»

ضحكت عندما تذكرت، ويعلم الله أنني لم أكُن في مزاج يسمح بالضحك.

كنت قد وجدته جالسًا وأمامه تشكيلة من المعجنات تكفي لإصابته بالمرض طوال أسبوع، فضربته على أذنه، وألقيت الحلوى كلها خارجًا.

تابع حديثه قائلًا: «كانت أمي تعطيني مصروفًا أسبوعيًّا مقداره شلنان ونصف شلن، أخبرت باقي الصبية أني لا أملك سوى شلن، كي أستحوذ على الشلن والنصف الباقيين وأتخم نفسي بالطعام دون إزعاج من أحد. تبًّا! كان لي طبع دنيء حتى في تلك الأيام!»

حاججتُه قائلًا: «تلك مجرد حيلة من حِيَل الصبيان، وأمر طبيعي في هذه السن.»

رد بقوله: «أجل، وما أفعله الآن هو حيلة من حِيَل الرجال، وهي أمر طبيعي أيضًا؛ بَيْد أنها سوف تدمر حياتي وتحولني من إنسان إلى بهيمة. هل تظن أنني لا أعلم ما ستفعله بي تلك المرأة؟ سوف تجرني إلى أسفل سافلين، إلى مستواها. سوف أقايض مُثلي العليا

وطموحاتي وكل ما حققته في عملي كي أصير طبيبًا متعجرفًا يعالج المرضى مقابل المال. سوف أخطط وأدبر كي أحصِّل دخلًا كبيرًا يمكِّننا من العيش مثل زوجين من الخنازير المكتنزة، ومن ارتداء الملابس المبهرجة واستعراض ثروتنا. لن يرضيها شيء. النساء على شاكلتها يُشبهن العلَقات التي تتغذَّى على الدم؛ شعارهن الوحيد في الحياة هو «هات، هات، هات». طالما وفرت لها المال، سوف تتحملني، ولكي أجلب لها المال سوف أبيع قلبي وعقلي وروحي. سوف ترتدي طنًّا من المجوهرات، وتتجوَّل بين المنازل نصف عارية كي توزع نظراتها الشهوانية على كل رجل تلقاه؛ تلك هي «الحياة الحقيقية» من منظور هؤلاء النسوة. وسوف أهرول وراءها بعدما صرت أضحوكة الحمقى، ومحط ازدراء الرجال.»

كان يتحدَّث بحماس بالِغ جعل كلماتي تبدو واهية من قبل أن أنطق بها. أي حجج قد أدفع بها تفوق ما ذكره هو نفسه؟ عرفت رده على كل شيء قد أطرحه.

كان خطئي أني تخيَّلتُه مختلفًا عن باقي الرجال. بدأت أدرك حينها أنه لا يختلف عن بقيتنا؛ نصفه ملاك والنصف الآخر شيطان. بيد أنه كشف لي أمرًا جديدًا: كلما علا النصف الملائكي، زاد انحطاط النصف الآخر. بدا لي كما لو أن الطبيعة تحرص على مراعاة التوازن فيما تصنع؛ كلما اقتربت أوراق الشجرة من السماء، ضربت جذورها عميقًا في ظلمة الأرض. عرفت أن ولعه بهذه المرأة لم يغيِّر شيئًا في حبه الأول الحقيقي. فهذا الحب كان حبًّا روحانيًّا، أما عاطفته تجاه المرأة الأخرى فلم تكُن سوى شهوة حيوانية. بدأت أتذكر حوادث حيَّرتني وقت حدوثها لكنها عادت إليَّ الآن كي تعينني على الفهم. تذكرت أني كثيرًا ما كنت أسمع خطواته الثقيلة والمترددة تمرُّ ببابي أثناء الليالي التي قضيتها ساهرًا لإتمام عملي؛ وتذكرت أني رأيت مرَّة شخصًا يشبهه بدرجة غريبة في حي قذر من أحياء لندن. وقد تبعته كي أتحدَّث معه، لكن عينَي الرجل الحمراوين والمنتفختين حدَّقَتا فيَّ بغضب فاستدرت عائدًا، وأنا أتهم نفسي بالحمق بسبب هذا الخطأ. والآن بينما أتطلَّع إلى الوجه الواقف بجواري، فهمت.

عندئذٍ رأيت الوجه الذي كنت أعرفه جيدًا ماثلًا أمام عيني، الوجه النبيل المتحمِّس الذي كان النظر إليه فحسب يولد شعورًا طيبًا داخلي. كنا قد بلغنا شارعًا صغيرًا تنبعث منه رائحةٌ آسنةٌ يصل ميدانَ ليهستر بحي هولبورن. أمسكته من كتفيه وأدرت وجهه ناحيتي وكان ظهره يواجه السلالم الحديدية لإحدى الكنائس.

نسيت ما قلته له وقتها. نحن البشر كائنات غريبة. كنت أفكر في الصبي الخجول المتأخر دراسيًّا، الذي وجَّهته وقسوت عليه في مدرسة فاوربيرج العجوز، في الفتى الضاحك

الوسيم الذي شاهدته يبلغ طور الرجولة. كان المطعم الذي اعتدنا ارتياده أيام دارسته في أكسفورد — حيث باح كلٌّ منا بمكنونات روحه للآخر — يقع في هذا الشارع الذي كنا نقف فيه. في تلك اللحظة شعرت ناحيته بمشاعر ربما تماثل ما شعرت به أمه؛ أردت أن أوبِّخه وأن أبكي معه؛ أن أرجَّه رجًّا وأن أحيطه بذراعيَّ. توسلت إليه وحاولت إقناعه ونعته بكل الشتائم التي تفتق عنها ذهني. لا بد أن محادثتنا بدت مستغربة. فعندما مر شرطي بجوارنا، ارتاب فينا بطبيعة الحال، وحول عينيه الثاقبتين نحونا، ثم نصحنا بصرامة أن نعود إلى منازلنا. ضحكنا، ومع تلك الضحكة عاد سيرل إلى ذاته الحقيقية، وواصلنا السير نحو ستابل إن في هدوء ورصانة. وعدني أنه سيستقل أول قطار صباح اليوم التالي، ويسافر لأربعة أو خمسة أشهر، وتعهدت بتقديم التفسيرات الضرورية لسفره المفاجئ.

شعر كلانا بتحسُّن بفضل حديثنا، وعندما تمنَّيت له ليلة طيبة على باب مسكنه، كانت يد سيرل هارجون الحقيقي هي التي صافحت يدي؛ وأقول سيرل الحقيقي لأن أفضل ما في الإنسان هو ما يشكِّل ذاته الحقيقية. وإذا كان للإنسان مستقبل فيما وراء هذا العالم، فإن الخير بداخله هو الذي سيبقى. أما الجانب الآخر منه فهو مخلوق من طين الأرض؛ وهو الجانب الذي سيتركه وراءه.

أوفى سيرل بوعده. وغادر في الصباح الباكر، ولم أرَه مجددًا أبدًا. تلقيت خطابات كثيرة منه، كانت مُفعَمة بالأمل في البداية، وتعج بالقرارات الحاسمة. أخبرني أنه بعث خطابًا إلى إليسبث، لم يحكِ لها القصة كلها؛ لأنها سوف تعجز عن فهم موقفه، لكنه ذكر الكثير مما يفسر ما حدث، وقد تلقى منها خطابات أنثوية في غاية اللطف ردًّا على خطاباته. خشيت أن تعامله ببرود وقسوة؛ فالنساء الصالحات لا يُبدِين في كثير من الأحيان شفقة كبيرة تجاه مَن يخوضون صراعات، لأنهن لم يتعرَّضن أنفسهن للأغراء. بيد أن طيبتها لم تكن مجرد صفة ظاهرية؛ فقد أحبته أكثر لأنه كان يحتاج إليها. وأعتقد أنها كانت ستنقذه من نفسه، لولا أن تدخل القدر وتسبب في إخراج الأمور عن سيطرتها. إن النساء قادرات على تقديم تضحيات عظيمة؛ وأومن بأن هذه المرأة كانت سترضى بأن تحطَّ من قدر نفسها إن كان ذلك سيؤدي إلى الارتقاء به.

لكن لم يكتب لذلك التحقق. كان قد أرسل إليَّ من الهند يخبرني أنه سيعود إلى الوطن. لم أكُن قد لقيت تلك المرأة المدعوَّة فاولي منذ فترة، ولم ترد على ذهني حتى وقعت يدي صدفةً على صحيفة مختصة بأخبار المسرح يرجع تاريخها إلى أسابيع مضت، وقرأت فيها الخبر التالي: «أبحرت الآنسة فاولي إلى كالكوتا الْتِزامًا بعقد عمل طويل الأمد.»

كان خطابه الأخير في جيبي. جلست وشرعت أقارن التواريخ. من المفترض أن تصل إلى كالكوتا قبل يوم من مغادرته. لم أدرِ قطُّ ما إذا كان الأمر صدفة أو مخطَّطًا من جانبها؛ احتمالية حدوث الأمر صدفة لا تقل عن الاحتمالية الأخرى، ففي هذا العالم نزعة قدرية تشكِّل مصائرنا.

لم أسمع منه بعد ذلك، وهو ما توقعته، بَيْد أني لقيت صديقًا مشتركًا بيننا بعد ثلاثة أشهر على سلالم النادي.

قال لي: «هل سمعت ما جرى لسير هارجون الشاب؟»

أجبته: «لا.» ثم سألته: «هل تزوج؟»

رد قائلًا: «تزوج! لا، بل مات، يا للمسكين!»

كدتُ أقول «الحمد لله»، لكني تمالكت نفسي. سألته: «كيف مات؟»

أجابني قائلًا: «في رحلة لصيد الطيور في أرض حاكم هندي. يبدو أن بندقيته قد علقت في بعض الشجيرات. فقد مرَّت الرصاصة عبر رأسه مباشرة.»

قلت: «يا إلهي، يا لها من مأساة!» ولم أعرف ما أقول غير ذلك في تلك اللحظة.

تجسُّد روحَي تشارلز وميفانواي

يعيب هذه القصة أنها لا تُصدَّق؛ هكذا سيرى معظم الناس. فأحداث القصة تبدو مستبعَدة، وجوُّها يخاله المرء مُصطَنعًا. ولأن حقائق الحياة هي مستحيلات الأدب، فأنا أعي جيدًا أن جُرمي يزداد فداحةً عندما أزعم أن وقائعها قد حدثت بالفعل لكن ليس كما سأشرع في كتابتها الآن، فقلم الكاتب المحترف لا يملك سوى تنميق كلماته وتجميلها، حتى وإن أضرَّ ذلك بقصته. والأديب الحقيقي كان سيدع هذه القصة لحالها، أو كان سيحتفظ بها على أكثر تقدير لإغاظة أصدقائه في الدوائر الأقرب له. بيد أن الغرائز الدنيا بداخلي تدفعني إلى الاستفادة منها. روى لي رجل هرِمٌ هذه الحكايةَ. كان يملك سابقًا نُزل كروملك أرمز، وهو النُّزل الوحيد في قرية صغيرة تحاوطها الصخور في الساحل الشمالي الشرقي لمقاطعة كورنوال، وقد امتلك هذا النُّزل طوال تسعة وأربعين عامًا. صار النُّزل الآن يُدعى فندق كروملك، ويديره طاقم جديد، وفي موسم الرواج يجلس يوميًّا على مائدة الطعام في صالة الاستقبال ذات السقف المنخفض عددٌ من السياح يملأ أربع عربات كاملة، ويتناولون طعام الغداء المكوَّن من أصناف محدَّدة بأسعار ثابتة. لكن القصة التي سأرويها حدثت منذ سنوات بعيدة، عندما كان المكان ميناء صيد فحسب، لم تكتشفه بعدُ كُتيِّبات الإرشاد السياحي.

تحدَّث المالك العجوز إليَّ، وأصغيتُ له ونحن جالسان على دكة تمتد بمحاذاة الحائط أسفل النوافذ الشبكية بالنُّزل، وكنا نحتسي الجعة الخفيفة في أقداح فخارية في ساعة متأخرة ذات مساء صيفي. كان حديثنا ينقطع كثيرًا؛ إذ كان العجوز يتوقَّف عن الكلام كي ينفث دخان غليونه في صمت، ويلتقط أنفاسه، وحينئذٍ كانت تتناهى إلى مسامعنا همسات المحيط الأطلنطي؛ وكثيرًا ما كان يخالط الزئير المهيب للأمواج الضخمة البعيدة

صوت ضحكة عابثة لموجة صغيرة ربما تسلَّلَت نحونا كي تستمع إلى الحكاية التي يسردها مالك النُّزل العجوز.

الخطأ الذي ارتكبه كلٌّ من تشارلز سيبون — الشريك الأصغر في شركة سيبون وابنه لأعمال الهندسة المدنية في لندن ونيوكاسل أبون تاين — وميفانواي إيفانز — الابنة الصغرى للقس توماس إيفانز، راعي الكنيسة المشيخية في بريستول — كان الزواج في سنٍّ مبكِّرة جدًّا. فتشارلز كان قد بلغ العشرين لتوِّه، وميفانواي كانت قد تجاوزت السابعة عشرة بقليل عندما التقيا لأول مرة فوق المنحدرات، على بُعد ميلين من نُزل كروملك أرمز. جاء تشارلز سيبون إلى القرية ضمن نزهة على الأقدام وقرَّر قضاء يوم أو اثنين لاستكشاف الساحل الخلَّاب، وكان أبو ميفانواي قد استأجر في ذاك العام منزلًا ريفيًّا مجاورًا للشاطئ، لقضاء عطلة الصيف.

في ساعة مبكِّرة من صباح أحد الأيام — فالمرء في الحادية والعشرين من العمر يكون مجتهدًا ويخرج للتريُّض قبل الإفطار — كان تشارلز سيبون الشاب مستلقيًا على جانب المنحدر، يتابع تكسُّر الأمواج التي يعلوها الزبد الأبيض فوق الصخور السوداء بالأسفل ثم انحسارها عنها، حينما لمح طيفًا يبرز من الأمواج. لم يسمح له موقعه بتبيُّن ماهيته بوضوح؛ إذ كان بعيدًا جدًّا، لكن بملاحظة ما يرتديه أدركَ أنه طيف أنثى، وعلى الفور تحوَّلَت أفكاره، ذات الطابع الشاعري، إلى فينوس أو أفروديت، وكان يفضِّل الاسم الثاني نظرًا إلى كونه رجلًا مهذَّبًا رفيع الذوق. شاهد الطيف يختفي خلف اللسان الممتد في المحيط، لكنه ظلَّ ينتظره. وفي غضون عشر دقائق أو ربع ساعة، عاود الظهور مرتديًا الثياب السائدة في ستينيات القرن التاسع عشر، وتوجَّه ناحيته. كانت مجموعة من الصخور تُخفي تشارلز عن الأنظار، فصار في وسعه مراقبة هذا الطيف على مهل؛ إذ يصعد الدرب المنحدر مبتعدًا عن الشاطئ، وأتصوَّر أنه كان سيبدو غاية في العذوبة والأناقة حتى لعينٍ أقل تأثرًا من عين شاب في العشرين. ومع أن مياه البحر لا تصلح بديلًا لأدوات تمويج الشعر — وليصحِّح لي القرَّاء هذا إن كنتُ مخطئًا — فإنها منحت خصلات شَعر الآنسة إيفانز الصغرى تموُّجًا من أروع ما يكون. كان وجه الفتاة مثل لوحة تفنَّنَت الطبيعة في رسمها باللونين الأحمر والأبيض، وبدا أن عينَيها الطفوليتَين الواسعتين تجوبان العالَم بحثًا عمَّن يرسم الضحكة على شفتَيها الحُلوتَين البارزتَين. وكان وجه تشارلز المتطلِّع نحوها مشدوهًا وتعلوه أمارات الإعجاب. ندَّت عن شفتَيها المنفرجتَين قليلًا صيحةُ إجفال، تبعتها ضحكات مرِحة، انقطعت فجأةً عندما تخضَّبَت وجنتاها بحمرة قانية. ثم بدت

عليها مظاهر الاستياء كأنما تُعلن لتشارلز أن ما حدث كله كان خطأه، مثلما تفعل النساء عادةً. شعر تشارلز بالذنب بفعل نظرة السخط الحادة في عينَيها فنهض في ارتباك واعتذر في خنوع، رغم أنه لم يدرِ عمَّ يعتذر، أعَن ذهابه إلى المنحدرات من الأساس أم عن استيقاظه في ساعة مبكرة أكثر من اللازم؟

قبلت الآنسة إيفانز الصغرى اعتذاره بانحناءة مهذَّبة، ثم واصلت طريقها، ووقف تشارلز يحدِّق بها حتى ضمَّها الوادي بين ذراعَيه المنبسطتَين وأخفاها عن بصره.

كان هذا الموقف بداية كل شيء؛ كل شيء في الكون من منظور تشارلز وميفانواي.

بعد ذلك بستة أشهر، صارا زوجين شابَّين، أو طفلين بالأحرى. أشار سيبون الأب بالتأجيل، لكن نفاد صبر سيبون الابن كانت له الغلبة. أما القس إيفانز، فكان لديه، مثل أغلب المشتغلين باللاهوت، مخزون كبير من البنات غير المتزوجات ودخل محدود. لذا لم يرَ داعيًا إلى تأجيل الزواج.

قضى الزوجان شهر العسل في منطقة نيو فورست. وكان قرارهما هذا خطأً بادئ ذي بدء. فأجواء نيو فورست في شهر فبراير تبعث على الكآبة، فضلًا عن أنهما اختارا بقعة من أشد بقاعها انعزالًا. ربما كان من الأفضل لهما أن يقضيا أسبوعين في باريس أو روما. فحتى الآن لم يجدا موضوعًا يتحدَّثان عنه سوى الحب، وكانا قد قضيا الشتاء كله يتحدثان في هذا الموضوع ويكتبان عنه باستمرار. وهكذا، في صباح اليوم العاشر من شهر العسل، تثاءب تشارلز، وقضت ميفانواي نحو نصف ساعة تبكي في غُرفتها بسبب ذلك. وفي مساء اليوم السادس عشر، كانت ميفانواي تشعر بضِيق لا تعرف له سببًا (كأن قضاء خمسة عشر يومًا في أجواء نيو فورست الرطبة والباردة ليس سببًا كافيًا لإثارة الضِّيق في نفس أي امرأة)، وطلبت من تشارلز ألا يفسد تصفيفة شعرها؛ فانعقد لسان تشارلز من الدهشة وخرج إلى الحديقة حيث أقسم، ونجوم السماء شاهدة عليه، أنه لن يداعب شَعر ميفانواي أبدًا حتى آخر عُمره.

وقد ارتكبا أيضًا حماقة كبرى أخرى قبل أن يبدآ شهر العسل. طلب تشارلز من ميفانواي، مثلما يفعل العشاق الصغار، أن تكلفه بمهمة ما. كان يرغب في القيام بفعل عظيم ونبيل كي يثبت إخلاصه لها. أظن أنه كان يفكر في مهمة تتضمَّن تنانين، وإن لم يعِ ذلك على الأرجح. ولا شك أن التنانين قد خطرت ببال ميفانواي أيضًا، لكن لسوء حظ العاشقين انتهى مخزون التنانين من العالم. بَيْد أن الفكرة راقت ميفانواي، فتدبَّرَت الأمر مليًّا، ثم قرَّرَت أن تحكم على تشارلز بالإقلاع عن التدخين. فبعد أن ناقشت المسألة مع

شقيقتها المفضَّلة، كانت تلك هي الفكرة الوحيدة التي تفتَّق عنها ذهن الفتاتين. بدت خيبة الأمل على وجه تشارلز لما سمع بالأمر. واقترح القيام بأي مهمة بطولية أخرى، أو تضحية تستحق أن يقدمها عند قدمَي ميفانواي. لكن ميفانواي كانت قد قالت كلمتها. وأضافت أنها ربما تفكر في أي مهمة أُخرى، لكن طلب الإقلاع عن التدخين سيظل ساريًا على أي حال. ثم أنهت النقاش في المسألة بترفُّع يليق بماري أنطوانيت.

وهكذا لم يعُد التبغ؛ الصديقُ الوفي لجميع الرجال، موجودًا بجانب تشارلز كي يعلِّمه الصبر ودماثة الخُلق يومًا بعد يوم، وبدأت طباعه تنحو نحو الأنانية وسرعة الغضب.

استقرَّا بعد ذلك في ضاحية بمدينة نيوكاسل، بيد أن هذا المكان لم يناسبهما أيضًا، فعدد السكان هناك كان محدودًا ومعظمهم أناس في منتصف العمر؛ لذا اضطرا إلى الاكتفاء بصحبة بعضهما بعضًا أغلب الوقت.

كانت معرفتهما بالحياة قليلة، ومعرفة كلٍّ منهما بالآخر أقل، ولم يعرفا شيئًا على الإطلاق عن نفسيهما. بالطبع تشاجرا، وكان كل شجار يخلِّف وراءه جرحًا أشد إيلامًا. لم يجدا بجوارهما صديقًا طيِّبًا ذا خبرة يضحك على تصرفاتهما. فكانت ميفانواي تدوِّن أحزانها كلها في مذكرات سَميكة، ما كان يفاقم مشاعرها سوءًا؛ ولم تكُن تمضي عشر دقائق في الكتابة حتى يسقط رأسها الجميل الأبلَه فوق ذراعَيها وتُبلِّل دموعها صفحات الكتاب، ومكانه الأنسب، في رأيي، هو نيران المدفأة؛ أما تشارلز فكان يتلكأ في المكتب المُعتم بعد انتهاء العمل وانصراف الموظفين، ويُمعن التفكير في توافِه الأمور حتى تتضخَّم وتتفاقم.

ثم حلَّت النهاية في مساء أحد الأيام بعد وجبة العشاء، عندما صفع تشارلز ميفانواي في خضم انفعاله أثناء جدال سخيف. كان تصرُّفه أبعَد ما يكون عن تصرُّف رجل مهذَّب، وقد خجل من نفسه بشدة لحظة ارتكابه لهذا الفعل، كما ينبغي له. العذر الوحيد الذي يمكن ذكره لصالحه هو أن الفتيات اللاتي يتمتَّعن بجمال يكفي لأن يدفع كل مَن حولهن إلى تدليلهن منذ الطفولة قد يصِرن في بعض الأحيان مستفزات إلى أقصى درجة. هرعت ميفانواي إلى حجرتها وحبست نفسها داخلها. ركض تشارلز خلفها كي يعتذر، لكنه بلغ الباب في لحظة أن صفقته في وجهه.

كان كفه قد لامسها بالكاد. ومعروف أن عضلات الفتى تتحرك أسرع من أفكاره. لكن ميفانواي عدتها ضربة عاتية. وصارت تحدِّث نفسها بأن هذا ما آلت إليه الأمور! وهكذا ينتهي حب الرجل.

قضت نصف الليل تكتب في مذكراتها الغالية، ما نتج عنه أن نزلت صباحًا من غرفتها شاعرةً بمرارة تفوق ما شعرت به عندما صعدت إليها. وكان تشارلز قد قضى الليل كله

يتجوَّل في شوارع نيوكاسل، بَيْد أن ذلك لم يخفِّف عنه في شيء. لقيها باعتذار يصحبه عذر، ما انطوى على سوء تخطيط منه. بالطبع ركزت ميفانواي على العذر، فعاودا الشجار من جديد؛ قالت إنها تكرهه؛ ولَمَّح هو إلى أنها لم تحبه قطُّ، فردَّت عليه محتدَّة بأنه هو الذي لم يحبها قطُّ. ولو تدخَّل أحدٌ بينهما في تلك اللحظة وقرع رأسيهما ثم اقترح أن يتناولا طعام الإفطار أولًا، لانتهت المسألة دون ضرر كبير، لكن تأثير ليلة مؤرقة على أمعاء خاوية أسفر عن نتائج كارثية. كانت كلماتهما تقطر سُمًّا، وصدَّق كلٌّ منهما أن الآخر يقصد ما يقوله. وفي عصر ذلك اليوم، أبحر تشارلز من ميناء هال على سفينة متجهة إلى رأس الرجاء الصالح، وفي مساء اليوم نفسه، وصلت ميفانواي إلى بيت أهلها في بريستول حاملة حقيبتين وأخبرتهم بإيجاز أنها انفصلت عن تشارلز إلى الأبد. وفي صباح اليوم التالي، كان كلٌّ منهما يفكِّر في كلام يطيِّب به خاطر الآخر، لكن صباح اليوم التالي كان الأوان قد فات منذ أربع وعشرين ساعة.

بعد ذلك بثمانية أيام، ارتطمت سفينة تشارلز بسفينة أخرى قبالة سواحل البرتغال ما أدَّى إلى غرق الأولى، وافترض الجميع أن كل مَن كانوا على متنها قد قضوا نحبهم. قرأت ميفانواي اسم تشارلز ضمن أسماء المفقودين؛ فتبدَّدَت بقايا الطفولة بداخلها، وصارت تعرف أنها امرأة أحبَّت من أعماق قلبها، ولن تحب مجددًا أبدًا.

ومن حُسن الحظ، أنقذ مركب تجاري صغير تشارلز ومسافرًا آخر، ورَسَا بهما في الجزائر. عندئذٍ علم تشارلز بخبر موته، وخطر له ألا يعلن عن نجاته. فمن ناحية، سوف يحل هذا الوضع مشكلةً كانت تؤرِّقه. كان يثق أن أباه سوف يتولى تسليم تَرِكَته الصغيرة إلى ميفانواي، وربما أضاف إليها بعض المال من جانبه، وسوف تصير هي حُرَّة إن أرادت الزواج مجددًا. كان مقتنعًا أنها لم تعُد تهتم بأمره وأنها شعرت بارتياح حين قرأت خبر موته. وقرَّر أن يبدأ حياة جديدة وأن ينساها.

واصل تشارلز رحلته نحو رأس الرجاء الصالح، وما إن بلغها حتى حاز مكانة متميزة في وقت وجيز. كانت المستعمرة في بدايتها، وكان المهندسون محل ترحيب، وتشارلز كان بارعًا في عمله. وجد الحياة هناك مشوِّقة ومُمتِعة. ناسَبَه العمل في المناطق الداخلية الخطرة والوعرة من البلاد، ومرَّ الوقت عليه سريعًا.

لكن عندما ظنَّ أنه سينسى ميفانواي لم يأخذ في الحسبان طبيعة شخصيته، التي كانت في جوهرها شخصية نبيلة حقًّا. وهناك، وسط السهول الأفريقية المنعزلة، وجد نفسه يحلم بها. وعاودته ذكرى وجهها الجميل وضحكتها المرِحة في كل وقت وحين. أحيانًا

كان يلعنها صراحةً، لكن ذلك لم يعبِّر إلا عن استيائه وألَمه النابعَين من تفكيره بها؛ كان يلعن نفسه وحماقته في حقيقة الأمر. وخفَّف بُعده عنها من تأثير سرعة غضبها وطابعها الطفولي المتذمِّر فصارت سمات تزيد من جاذبيتها ليس إلا؛ وإذا كنا سنعد النساء بشرًا لا ملائكة، فمن المؤكد أنه أضاع من يده امرأة لطيفة حقًّا وجديرة بالحب. صار تشارلز يتمنى أن تكون بجانبه الآن، بعدما أضحى رجلًا في استطاعته تقدير قيمتها، لا مجرَّد صبي أحمق وأناني. كانت هذه الفكرة تراوده وهو جالس يدخِّن على باب خيمته، وحينئذٍ كان يتحسَّر على أن النجوم التي تطل عليه من عَلٍ ليست النجوم التي تزيِّن سماءها، فلو كانت النجوم نفسها كان سيشعر بأنه أقرب إليها.

قد لا يصدِّق كثير من الشباب أن المرء يزداد عاطفية كلما زاد عمره؛ على الأقل هذا ما يحدث لبعضنا؛ أقلنا حكمة على الأرجح.

في إحدى الليالي حلم بها حلمًا بالغ الوضوح. رآها تأتي إليه وتمد له يدها، فأمسك بها ثم ودَّع بعضُهما بعضًا. كانا يقفان على المنحدر حيث التقيا أول مرة، وكان أحدهما سيمضي في رحلة طويلة، بَيْد أنه لم يكن متأكدًا مَن منهما تحديدًا.

في المدينة، يضحك الناس على الأحلام، لكن عندما نبتعد عن الحضارة ننصت عن طِيب خاطر إلى الحكايات الغريبة التي تهمس لنا بها الطبيعة. تذكَّر تشارلز سيبون هذا الحلم عندما استيقظ صباحًا.

قال لنفسه: «إنها تموت، لقد جاءت كي تودِّعني.»

قرَّر أن يرجع إلى إنجلترا من فوره؛ فربما لو سارع بالعودة يصل في الوقت المناسب لتقبيلها مرَّة أخيرة. لكنه لم يستطع المغادرة في ذاك اليوم، فثمة عمل ينبغي له إتمامه؛ وعلى الرغم من أن تشارلز كان، ولا يزال، عاشقًا، فإنه صار أيضًا رجلًا، وأصبح يدرك أنه لا يصح إهمال العمل إبدًا حتى إنْ كان ذلك تلبيةً لنداء القلب. لذا مكث يومًا أو يومين، وفي الليلة الثالثة حلم بميفانواي مجددًا، وفي هذا الحلم كانت ترقد داخل الكنيسة الصغيرة في بريستول، التي كثيرًا ما جلس فيها بجوارها في صباحات أيام الأحد. سمع صوت أبيها يقيم مراسم الدفن فوق جسدها، وكانت أختها الأقرب إليها تجلس بجواره وتبكي بصوت خفيض. حينئذٍ أدرك تشارلز أنه لا داعي إلى استعجال رحلة العودة. وقرَّر البقاء كي يُنهي عمله. وحينما يفرغ منه، سوف يعود إلى إنجلترا. فهو راغب في أن يقف مرَّة أخرى على المنحدرات، التي تشرف على تلك القرية الصغيرة بمقاطعة كورنوال، حيث التقيا أول مرة.

وهكذا بعد بضعة أشهر، سار تشارلز سيبون، أو تشارلز دينينج كما صار يدعو نفسه، إلى نُزل كروملك أرمز، الذي دخله قبل ست سنوات حاملًا حقيبته القماشية على

ظهره، وطلب غرفة معبرًا عن رغبته في الإقامة بالقرية لبعض الوقت؛ كانت بشرته بلون البرونز وبدا أكبر عمرًا حتى لم يعُد من السهل التعرُّف عليه، لا سيما من قِبل أولئك الذين لم يعرفوه جيدًا.

في المساء، خرج يتمشى سالكًا طريقه نحو المنحدرات. وفي ضوء الشفق بلغ تلك البقعة الصخرية التي أطلق عليها أهل كورنوال الواسعو الخيال اسم «مرجل الساحرات». كانت تلك هي البقعة التي رأى عندها ميفانواي قادمة نحوه من البحر للمرة الأولى.

أبعد الغليون عن فمه، واتَّكأ على صخرة، بدَت تُحاكي وجه صديق قديم، وشرع يحدِّق في الدرب الضيق أدناه، الذي ازداد ضبابية في هذا الضوء الخافت. وبينما يتطلَّع إلى الأسفل، رأى طيف ميفانواي يصعد الدرب ببطء قادمًا من البحر، ثم يتوقَّف أمامه.

لم يشعر بخوف. فقد توقَّع أن يراه. ومجيئها كان متممًا لأحلامه. بدَت أكبر سنًّا وأكثر رصانة، بَيْد أن وجهها بات أجمل، ربما بفعل هذه التغيرات.

تساءلَ، تُرى هل ستتحدث إليه، لكنها اكتفت بالتطلُّع نحوه بعينَين حزينتَين؛ وظلَّ هو واقفًا هناك تحت ظِل الصخور دون حركة، حتى غابت في أفق المغيب.

لو قرَّر حينها أن يحكي ما حدث لصاحب النُّزل، أو حتى أبدى استعدادًا لسماع حديث العجوز، الذي كان محبًّا للثرثرة، ربما علم أن أرملة شابة تُدعى حرم السيد تشارلز سيبون قدمت مؤخرًا، بصحبة أختها الكبرى غير المتزوجة، إلى المنطقة، واستأجرت منزلًا ريفيًّا صغيرًا في موقع منعزل بالوادي على بُعد ميل من القرية، بعدما تُوفي مستأجره السابق، وأن نزهتها المسائية المفضَّلة هي الذهاب إلى البحر عَبْر الممر المنحدر الذي يمر بصخرة «مرجل الساحرات».

ولو قرَّر تتبُّع طيف ميفانواي إلى الوادي، لعرف أنه بعدما تجاوز «مرجل الساحرات» شرع يركض سريعًا حتى بلغ بابًا مفتوحًا، ثم ألقى بنفسه بين ذراعَي طيف آخر قدم مسرعًا للقائه.

قالت المرأة الأكبر سنًّا: «ماذا دهاكِ يا عزيزتي؟ أنت ترتجفين مثل ورقة شجر.» ثم سألَتْها: «ماذا حدث؟»

أجابتها ميفانواي: «لقد رأيتُه.»

سألت الأخت: «مَن رأيتِ؟»

«تشارلز.»

«تشارلز!» كرَّرت المرأة الأخرى الاسم وهي تتطلَّع إلى ميفانواي مثلما يتطلَّع المرء إلى امرأة مجنونة.

قالت ميفانواي موضحةً بصوت وجل: «أقصد رأيت روحه». ثم استطردت: «كان واقفًا تحت ظِل الصخور في البقعة نفسها التي التقينا فيها أول مرة. بدا أكبر سنًّا ومُثقَلًا بالهموم؛ آه يا مارجريت، كان وجهه ينطق بالحزن والعتاب.»

قالت أختها وهي تقودها إلى الداخل: «عزيزتي، إنكِ في حالة اضطراب شديدة. ليتنا لم نعُد قطُّ إلى هذا البيت.»

ردَّت ميفانواي قائلة: «لكني لم أخَف، كل ليلة كنت أتوقَّع أن أراه. ويُسعدني حقًّا أنه أتى. ربما يأتي مرَّة أخرى، كي أطلب منه السماح.»

وفي الليلة التالية، أصرَّت ميفانواي على الخروج في نزهتها المعتادة، متجاهلةً نصائح أختها ومخالفةً رغبتها، وفي ساعة الغسق نفسها، انطلق تشارلز من النُّزل.

رأته ميفانواي مرَّة أخرى واقفًا تحت ظِل الصخور. كان تشارلز قد عقد عزمه على التحدُّث إليها إذا تكرَّر الأمر مجددًا، لكن عندما وقعت عيناه على طيفها الصامت، يكتنفه الضوء المنحسر، توقَّف وأخذ يحدِّق فيه وخانته شجاعته.

لم يُراوده أدنى شك في أن الروح الواقفة أمامه هي روح ميفانواي. فالمرء قد يظن الأشباح التي يزعم الآخرون رؤيتها أوهامًا، تدل على خفة العقل، لكنه يعرف يقينًا أن الأشباح التي يراها حقيقية، وكان تشارلز قد أقام طوال السنوات الخمس الماضية بين أناس يؤمنون بأن الموتى يبقون بينهم. مرَّة استجمع شجاعته وحاول التحدث، لكن عندما شرع في ذلك أجفل طيف ميفانواي فلم تخرج من شفتَيه سوى تنهيدة، وحينما سمعها الطيف استدار وسار مجدَّدًا عبر الدرب المؤدِّي إلى الوادي، تاركًا تشارلز يحدِّق في أثره.

لكن في الليلة الثالثة، بلغ كلاهما بقعة التلاقي بإصرار لا يلين على الحديث.

تحدَّث تشارلز أولًا. فعندما اقترب منه طيف ميفانواي، وعيناه الحزينتان شاخصتان نحوه، خطا مبتعدًا عن ظلال الصخور ووقف أمامه.

قال: «ميفانواي!»

ردَّ طيف ميفانواي هاتفًا: «تشارلز!»

تحدَّثا بهمسات وجلة تناسب الموقف، وحدَّق كلٌّ منهما في الآخر بنظرات مُفعَمة بالأسى.

سألته ميفانواي: «هل أنت سعيد؟»

ربما يبدو سؤالها هزليًّا بعض الشيء، لكن علينا تذكُّر أن ميفانواي ابنة مبشر إنجيلي تقليدي، وقد تربَّت على معتقدات لم يكن قد عفَّاها الزمن وقتها.

جاء الرد الحزين: «سعيد بقدر ما أستحق السعادة»، شعرت ميفانواي برجفة تجتاح قلبها، فإجابته لم توحِ بأنه يستحق الكثير من السعادة.

تابع تشارلز قائلًا: «كيف أكون سعيدًا بعدما أضعتكِ من يدي؟»

الآن صار لكلماته وَقْع طيِّب على أذنَيها. فقد بدَّدَت، بادئ ذي بدء، من قنوطها حيال مستقبل تشارلز. لا شك أن معاناته الحالية شديدة، لكن لا يزال ثمة أمل في إنقاذه. ثانيًا، كان كلامه لطيفًا، رغم أنه شبح، ولا أظن أن ميفانواي كانت ستنفر من تبادل القليل من عبارات الغزل مع شبح تشارلز.

سألته ميفانواي: «هل تسامحني؟»

رد تشارلز بنبرة دهشة وجلة: «أسامحك؟!» ثم أضاف: «هل تسامحينني أنتِ؟ لقد كنتُ أحمقَ فظًّا، لم أستحق حبك.»

يا لها من روح راقية ومهذَّبة! لقد نسيت ميفانواي أن تخاف منها.

ردَّت ميفانواي: «كلانا يستحق اللوم.» هذه المرة، قلَّت نبرة الإذعان في صوتها. ثم أضافت: «لكني أنا من أتحمَّل القَدر الأكبر من اللوم. كنت طفلة سيئة الطبع. لم أعرف قطُّ كم أحببتُك.»

ردَّد تشارلز عبارتها: «كنتِ تحبينني!»، وتمهل إذ يتلفظ بتلك الكلمات كأنما كان مذاقها حلوًا في فمه.

ردَّت ميفانواي: «قطعًا لم تشك في حبي لك!» ثم استطردت قائلة: «لم أتوقف قطُّ عن حبك. وسوف أظلُّ أحبك دائمًا وأبدًا.»

اندفع طيف تشارلز قُدمًا راغبًا على ما يبدو في احتواء طيف ميفانواي بين ذراعَيه، لكنه توقف فجأة على بُعد خطوة أو خطوتين منها.

ثم ركع أمامها حاسر الرأس وقال: «امنحيني بركتك قبل أن تغادري.»

حقًّا في وسع الأشباح أن تصير في غاية اللطف إنْ أرادت ذلك. انحنت ميفانواي في تكرُّم نحو الطيف المتضرِّع، وبينما تفعل ذلك لمحت عيناها شيئًا على العشب بجواره، وهذا الشيء كان غليون مرشومي واضح اللون. لم يكن ثمة شك في أنه غليون، حتى في ذاك الضوء الخافت؛ كان يلمع على الأرض حيثما سقط من جيب صدار تشارلز عندما ركع على ركبتيه.

تتبَّع تشارلز نظرة ميفانواي ورآه أيضًا، واسترجع ذكرى حظر التدخين الذي كان مفروضًا عليه.

مدَّ يده غريزيًّا والْتَقط الغليون ثم حشره مجددًا في جيبه، دون أن يفكر في عبثية هذا الفعل، أو في كونه ينطوي على اعتراف صريح؛ وعندئذٍ اجتاح عقل ميفانواي فيض من الإدراك المختلط بالحيرة، والخوف الممزوج بالبهجة. شعرت أن عليها فعل أمر من أمرين، إما أن تضحك أو تصرخ وتظل تصرخ، بَيْد أنها شرعت تضحك. جلجلت ضحكاتها بين الصخور، في حين نهض تشارلز في اللحظة المناسبة كي يلتقط جسدها المتهاوي بين ذراعيه.

بعد عشر دقائق سارت الآنسة إيفانز الكبرى نحو باب المنزل بعدما سمعت صوت خطوات ثقيلة. ورأت ما حسبته روح تشارلز سيبون، يمشي مترنحًا تحت ثقل جسد ميفانواي الغائب عن الوعي، فارتعبت من المشهد بطبيعة الحال. بَيْد أن تشارلز طلب منها إحضار بعض البراندي، وهو طلبٌ بشري طبيعي، وكان لزامًا عليها الاعتناء بميفانواي، وقد حفظ ذلك عقلها من الانجراف نحو أمور تقود إلى الجنون.

حمل تشارلز ميفانواي إلى حجرتها ومدَّد جسدها على السرير.

ثم همس إلى الآنسة إيفانز الكبرى: «سأتركها معك.» وأضاف: «من الأفضل لها ألا تراني حتى تسترد وعيها كاملًا. لقد تعرَّضَت لصدمة.»

انتظر تشارلز في غرفة الاستقبال المظلمة لفترة بدَت له أطول من اللازم. لكن الآنسة إيفانز الكبرى عادت أخيرًا من غرفة ميفانواي.

وسمع منها الكلمات المحببة: «لقد أصبحت بخير الآن.»

فقال: «سوف أدخل لأراها.»

صاحت الآنسة إيفانز محرجةً: «لكنها ترقد في السرير.»

لكن تشارلز ضحك فحسب. فاستدركت الآنسة إيفانز: «آه، طبعًا، تفضَّل ...»

ثم جلست الآنسة إيفانز الكبرى، بعدما صارت وحدها، تحاول إقناع نفسها بأنها لم تكُن تحلم.

صورة امرأة

شغل عملي فكري، وتحداني، لكن كلما عظُم تحدِّيه لي، تضاءلت شجاعتي لمواجهته مثل محارب جبان. تصارعت معه في مكتبي فهربت منه إلى كتبي. خرجت إلى الشارع لكني لقيته هناك، فلجأت إلى المسارح أو الملاهي كي أحتمي منه. وحينئذٍ زاد إلحاحه على نفسي وهيمنته على أفكاري حتى غيَّم ظله الكئيب على أفعالي كافةً. صار يجلس بجواري على مائدة الطعام ويُفسد شهيتي. وتبعتني ذكراه خارج المنزل، فحالت بيني وبين أصدقائي، وبددت الكلمات من على شفتَيَّ، فصرت أهيم بين الناس مثل رجل تطارده الأشباح.

ثم أضحت المدينة النابضة، التي تضجُّ بآلاف الأصوات المشتتة، تثير جنوني. وشعرت بحاجة إلى الاختلاء بنفسي؛ فالعزلة هي ملهمة الفنون كلها وراعيتها، وعندئذٍ تذكرت تلال يوركشاير، حيث قد يسير المرء طوال النهار دون أن يلقى أي كائن، ودون أن يسمع صوتًا سوى صيحة طائر الكروان، ويستطيع أن يستلقي على العشب العطر ويشعر بخفقان الأرض تحته إذ تمضي في مسارها بسرعة أحد عشر ميلًا في الدقيقة عَبْر الأثير. لذا، قمت في صباح أحد الأيام وحزمتُ أمتعتي، الضروري منها وغير الضروري، في حقيبة، وغادرت مسرعًا، خشية أن يحدث شيء أو أن ألقى أحدًا يعطِّلني عن خططي، وفي تلك الليلة بتُّ في بلدة شمالية صغيرة على حدود المدينة الغارقة في دخان المصانع وعلى مشارف الأراضي البرية الشاسعة؛ وفي الساعة السابعة صباح اليوم التالي، تبوَّأتُ مقعدي بجوار سائق عربة أعور خلف فرس مرقط. ضرب السائق سوطه في الهواء، فهرول الفرس المرقط إلى الأمام. وهكذا تركنا القرن التاسع عشر بهَرْجه ومَرْجه خلفنا مُنطلِقين نحو التلال البعيدة، وشرعنا نقترب منها رويدًا رويدًا حتى ابتلعتنا وصرنا نقطة ضئيلة تتحرَّك على سطح الأرض الساكن.

وفي وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، بلغنا قرية، كانت ذكراها تزداد وضوحًا في ذهني منذ زمن. تقع على قطعة أرض مثلَّثة تحيط بها منحدراتِ ثلاثة تلال كبرى؛ لم يكن التلغراف قد وصلها بعدُ، على الأقل في وقت كتابتي هذه السطور، كي ينقل إليها همسات العالم المضطرب خارجها. لم يعكر سكونها سوى سائق العربة الأعور، الذي كان يترك أثناء مروره بالقرية بضعة خطابات وطرود لسكانها القاطنين في المزارع المتناثرة فوق التلال، هذا إن امتد العمر بالسائق المُسِن وبحصانه العجوز كي يشهدا صباح يوم جديد. يلتقي داخل القرية جدولَا ماء صاخبان. يسمعهما المرء في النهار الناعس وفي الليل الهادئ يُثرثران مثل طفلَين مندمجَين في لعبة من نسج خيالهما. ينحدر الجدولان من منبعهما البعيد في التلال، ويمتزج ماؤهما في القرية، ثم يواصلان رحلتهما معًا، وتغدو الأحاديث الدائرة بينهما أكثر جدِّيَّة، مثل حبيبَين تشابكت أيديهما وسارا قدمًا نحو حياة مشتركة. ويصِلان لاحقًا إلى مدن حزينة منهكة، يعمها السواد أسفل غمامة من الدخان لا تنقشع أبدًا، ويعلو فيها صليل الحديد على أصوات البشر كافَّةً ليلَ نهارَ، ويلعب أطفالها بأكوام الرماد في حين يكسو أوجُهَ الرجال والنساء بها تعبيرٌ يمزج بين الضجر والصبر؛ ثم يواصلان طريقهما، بعدما تعكَّرَت مياههما وتلطَّخَت نحو البحر العميق الذي لا ينفكُّ يناديهما. لكن هنا، في هذه القرية، لا تزال مياههما صافية ومُنعِشة، وجريانهما هو الاختلاج الوحيد الذي يعرفه الوادي. لا شك أن مكانًا هادئًا كهذا هو الأنسب لكاتب مُرهَق يحتاج إلى استعادة قوته.

اقترح صديقي الأعور أن أقيم في منزل السيدة تشوملي، وهي أرملة تحيا مع ابنتها الوحيدة في كوخٍ مَطليٍّ بالجير الأبيض يقع في آخر القرية، أصِلُ إليه عَبْر الطريق الصاعد أعلى هضبة كول.

وأضاف مشيرًا بسوطه: «يمكنك أن ترى البيت من هنا؛ لأنه أعلى من باقي بيوت القرية. لن تجد مكانًا آخر تقيم فيه، فلا يأتي الكثير من الزوار إلى تلك الأنحاء.»

بدا الكوخ الصغير الذي تكسو زهور الصيف نصف جدرانه مكانًا شاعريًّا ساحرًا، وبعد أن تناولتُ غداءً من الخبز والجُبن في النزل الصغير بالقرية، انطلقت نحوه متخذًا دربًا يمرُّ عَبْر باحة الكنيسة. كنت قد استحضرت في خيالي صورةً لامرأة لطيفة، قوية البنية، تُشعر المرء بالراحة والطمأنينة وتساعدها فتاة شابة مرِحة سوف يعينني خداها الحمراوان ويداها اللتان لفحتهما الشمس على أن أمحو من ذهني كل ما يثقله من ذكريات المدينة، وهكذا دفعت الباب نصف المفتوح، ودلفت إلى الكوخ يحدوني الأمل.

فاجأني أثاث البيت، الذي كان ينمُّ عن ذوق رفيع، لكن قاطِنَتَيه خيَّبَتا أملي. فلم تكُن ربَّة البيت النشِطة المليحة التي تخيَّلتُها سوى سيدة مُسِنَّة، ضعيفة البصر، تكسو التجاعيد وجهها. كانت تقضي نهارها غافية في كرسيها الكبير أو جاثمة أمام المدفأة، تمدُّ يدَيها المتغضنتَين كي تدفِّئهما النيران. أما الفتاة الشابة الحلوة الشكل والطبع التي حلمتُ بها فقد تبدَّدَت صورتها بمجرَّد وقوع بصري على الابنة التي كانت امرأة حادة الملامح يبدو عليها الإنهاك، تبلغ من العمر أربعين أو خمسين عامًا. ربما مضى زمن لمعت فيه هاتان العينان الخاملتان بجذل لعوب، وربما برزت هاتان الشفتان المنكمشتان المشدودتان يومًا ما على نحو مُغرٍ، لكن للعنوسة براثن تعتصر جاذبية المرأة بلا رحمة، ورياح الريف القوية قد تنفع المرء بين الحين والآخر، مثل شراب المزر القديم، لكن العيش في كنفها يضعف العقل. وجدتُها امرأة مملة وضيِّقة الأفق، تعاني من خجل مضحك بالنظر إلى عمرها، ورغم ذلك لم يُساعدها خجلها هذا على تجنُّب ثرثرة صاحبة البيت حول «أيام الماضي الجميل»، فضلًا عن تظاهرها بأنها أصغر سنًّا، الذي بدا لي مزعجًا وإنْ كان بلا ضرر.

وفيما عدا ذلك، كانت ظروف الإقامة مُرضية تمامًا. وهكذا جلست أمام النافذة التي تُطلُّ على الطريق الذي يقطع الوادي نحو المروج الشاسعة، وواجهت عملي.

لكن المرء بعدما يشحذ همَّته للإقبال على العمل، يفاجأ بها تفتر تدريجيًّا. وهكذا جلستُ أكتب لساعة تقريبًا، ثم ألقيت بقلمي العقيم، وأخذت أتطلَّع إلى الغرفة من حولي بحثًا عن إلهاءٍ ما. وقع بصري على خزانة كتب من طراز شيبندايل تستند إلى الحائط، فمشيت نحوها. كان مفتاحها في القفل، ففتحت بابها الزجاجي وشرعت أطالع رفوفها المزدحمة بالكتب. كانت تحتوي على مجموعة من الكتب أثارت اهتمامي، تنوَّعَت بين مجلدات تجمع موضوعات مختلفة وتتميَّز بأغلِفة لامعة ذات طراز قديم محبَّب، وروايات ودواوين لكتَّاب وشعراء لم أسمع بأسمائهم قطُّ، ومجلات قديمة توقف إصدارها منذ زمن ونسيت أسماءها، وتذكارات وكُتيِّبات سنوية يفوح منها عبق حقبة مضت حين اتسمت المشاعر بالرِّقة والرومانسية وشاعت الملابس الحريرية ذات اللون الأرجواني. غير أني وجدت في الرف العلوي ديوانًا لكيتس، محشورًا بين كتاب «قصص وعظات من الإنجيل» وقصيدة «أفكار ليلية» للشاعر إدوارد يونج، فوقفت على أطراف أصابعي وأخذت أحاول أن أُخرج الكتاب من مكانه.

كان الديوان محشورًا بشدة حتى إن مساعيَّ لإخراجه أدَّت إلى سقوط ثلاثة أو أربعة كتب أخرى فوق رأسي، وأحاطت بي سحابة من الغبار الناعم في حين سقطت عند قدمي

صورة مصغَّرة مُحاطة بإطار من الخشب الأسود، مصدرةً جلبة ناتجة عن تحطُّم قطع من الزجاج والمعدن.

التقطتُها من الأرض واقتربتُ من النافذة كي أتفحَّصها. كانت صورة فتاة شابة، ترتدي ملابس كانت رائجة منذ ثلاثين عامًا مضت، وأعني منذ ثلاثين عامًا وقت وقوع أحداث هذه القصة. أظنُّ أنها ترجع الآن إلى خمسين عامًا مضَت، عندما كانت جدَّاتنا تصفِّفن شعورهن على هيئة خصلات لولبية، ويرتدين فساتين مفتوحة الصدر يتعجَّب المرء كيف كُنَّ يحافظن عليها من الانزلاق للأسفل. كان وجهها جميلًا، لكن جماله لم يقتصر على ذلك الجمال المعتاد الذي نراه في الصور المصغَّرة، حيث الوجوه المتناسقة حدَّ الملل والمكسوَّة بألوان أبعَد ما تكون عن الواقع، بل نبع جمالها من روحها المُطلَّة عَبْر عينَيها العميقتَين الحانيتَين. بينما أحدِّق في الصورة بدا لي أن الشفتَين الحلوتَين تبتسمان لي، بَيْد أن ابتسامتها كانت تُضمر حزنًا دفينًا، وكأن الفنان الذي رسم الصورة استطاع، في لحظة نادرة، أن يستشرف ما سيلقاه هذا الوجه السعيد من متاعب في حياته لاحقًا. ورغم معرفتي المحدودة بالفن، أدركت أن تلك اللوحة هي عمل فني بارع، وتساءلت لمَ تُترك مُهمَلة هكذا لوقت طويل، رغم قيمتها الفنية حتى لو استُخدمت للزينة فقط. لا بد أن أحدهم قد وضعها في خزانة الكتب منذ سنوات مضت ونسيها.

أرجعتها مكانها بجوار الكتب المتربة التي طالما رافقتها، وجلست مجددًا إلى عملي. لكن الوجه في الصورة ظلَّ ماثلًا أمامي في الضوء المتلاشي، وعجزت عن صرفه من مخيلتي. أينما وجَّهتُ ناظري وجدتُه يتطلَّع إليَّ من الظلال. وأنا بطبيعتي لستُ شخصًا خيالي الطابع، والعمل الذي يشغلني، وهو كتابة مسرحية كوميدية هزلية، ليس من النوع الذي يوقظ الجانب الحالم في الطبيعة البشرية. بدأت أغضب من نفسي، وبذلتُ مزيدًا من الجهد كي أركِّز انتباهي على الورقة الموضوعة أمامي. لكن أفكاري أبَت أن تعود من تجوالها. وعندما نظرت ورائي في إحدى المرَّات كِدتُ أقسم أنني رأيت الفتاة صاحبة الصورة جالسة في المقعد الكبير المكسو بالقماش المنقوش بالأزهار في الركن البعيد من الغرفة. كانت ترتدي فستانًا أرجوانيًّا فاتح اللون، مُزيَّنًا بشريط من الدانتيل، ولم تفُتني ملاحظة جمال يدَيها المطويَّتَين، رغم أن الصورة لم تُظهر سوى الرأس والكتفَين.

وفي الصباح التالي، كنت قد نسيت هذه الحادثة، لكن ذكراها عاودتني ليلًا مع ضوء المصباح، وزاد فضولي إلى حدٍّ دفعني إلى إخراج اللوحة المصغَّرة مجددًا من مخبئها والتطلُّع إليها.

عندئذٍ أدركت فجأةً أنني أعرف هذا الوجه، تُرى أين رأيته ومتى؟ لقد لقيتها وتحدَّثتُ إليها. كانت الصورة تبتسم لي كأنما تحثُّني على مواجهة نسياني. أرجعتها مجددًا إلى الرف، وجلست أعتصر ذهني في محاولة للتذكُّر. لقد التقينا في مكان ما، في الريف، منذ زمن بعيد وتحدَّثنا عن أمور عادية. كان طيفها يستدعي رائحة الورد وهمهمات المزارعين إذ يجمعون التبن. لماذا لم أرَها مجددًا أبدًا؟ لمَ انمحت صورتها كليًّا من ذاكراتي؟

دخلت الابنة الغرفة كي تقدِّم لي طعام العشاء، فسألتُها عن الأمر متصنِّعًا نبرة لا مبالية. كانت الذكرى الضبابية قد اكتسبت قيمة عاطفية، رغم أني جادلت نفسي في هذا وضحكت عليها. كنت أشعر كأنما آتي على ذكر صديق راحل عزيز على نفسي حتى إن الحديث عنه أمام عامة الناس يُعد تدنيسًا لذكراه. لذا لم أرغب في أن تطرح المرأة أسئلة عليَّ بدورها.

قالت إن سيدات شابات كثيرًا ما أقمن معها. وبعض الناس كانوا يقضون الصيف كله هنا، ويمضون وقتهم في التجوُّل بالغابات والتلال، غير أن الهضاب المرتفعة ظلَّت مهجورة على حدِّ علمها. بعضٌ من المستأجرين كُنَّ سيدات شابات، لكنها لا تذكر أن أيًّا منهن تمتَّعَت بجمال باهر، مضيفة أن النساء لا يجدن الحكم على غيرهن من النساء كما يقال. ذكرت أنهن جِئنَ ورحلن وقليلات منهن عُدن مجددًا، وهكذا بددت الوجوه الجديدة ما سبقها من وجوه. سألتها: «أنت تؤجرين هذه الغرفة منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ لقد أقام غرباء في هذه الغرفة طوال الخمسة عشر أو العشرين عامًا الأخيرة على ما أظن، أليس كذلك؟»

قالت بهدوء، متحرِّرة للحظة من مظاهر التصنُّع كافةً: «بل أجَّرتُها لفترة أطول من ذلك. لقد جئنا هنا من المزرعة بعدما تُوفي والدي. كان قد تعرَّض لبعض الخسائر المالية ولم يتبقَّ لنا سوى القليل. حدث هذا منذ سبعة وعشرين عامًا.»

سارعت بإنهاء المحادثة، خشية أن تشرع في حديث مطول عن ذكريات «الماضي الجميل». وكنت قد سمعت هذا الحديث مرارًا منها أو من أمها. لم أعرف الكثير. من الفتاة التي تظهر في الصورة؟ كيف انتهى الحال بصورتها مُلقاة في ركن منسي من خزانة كتب يملؤها الغبار؟ ظلَّ هذان السؤالان لغزَين بلا حل؛ وعزفت عن طرحهما مباشرةً على المرأة بعناد غريب لم أستطع تبريره لنفسي.

مرَّ يومان على تلك المحادثة. وكان عملي يستحوذ شيئًا فشيئًا على تفكيري، ولم يعُد الوجه في الصورة يزورني كثيرًا. لكن في مساء اليوم الثالث، الذي كان يوم أحد، وقع أمر غريب.

كنت عائدًا من نزهة على الأقدام، وكان الظلام قد بدأ يحل عندما بلغت الكوخ. وبينما كنت أفكر في مسرحيتي الهزلية وأضحك على موقف بدا لي كوميديًّا مررت على نافذة حجرتي، حينئذٍ لمحتُ ذلك الوجه العذب الجميل الذي صرت أعرفه حق المعرفة يتطلَّع من النافذة. رأيت فتاة شابة رشيقة القوام تقف بجوار زجاج النافذة المقسم إلى مربعات، وترتدي ذاك الفستان الأرجواني القديم الطراز الذي تخيَّلتُها ترتديه في أول ليلة قضيتها هنا، وكانت يداها الجميلتان معقودتَين عند صدرها، مثلما كانتا مطويَّتَين في حجرها وقتها. وكانت عيناها شاخصتَين نحو الطريق الذي يعبر القرية ويتجه جنوبًا، لكنهما بدتا تحلمان ولا تريان، وأثَّرَ فيَّ الحزن البادي فيهما مثلما يتأثر المرء بآهات الألم. كنت قريبًا من النافذة لكن سياج الأشجار حجبني عن الرؤية، وظللت في مكاني أرقب المشهد لدقيقة على ما أظن، رغم أنها بدَت لي أطول، حتى انسحبت الفتاة داخل الغرفة المظلمة واختفت.

دخلت الغرفة لكنها كانت خالية. ناديت، لم يرد عليَّ أحد. سيطر عليَّ إحساس مزعج بأنني أفقد عقلي شيئًا فشيئًا. فكل ما حدث قبلًا كان بوسعي تفسيره، مجرد تجسد لأفكاري المتدفقة، لكن هذه المرة تراءى لي هذا الطيف فجأة في وقت انشغل فيه فكري بأمور أخرى. لقد تجلى لحواسي لا لعقلي. لست أومن بالأشباح، لكني أصدق أن العقل الضعيف يكون عرضةً للهلوسة؛ لذا أثار تفسيري لما حدث بعض الاستياء بداخلي.

حاولت تجاهل تلك الواقعة، لكنها ظلَّت تطاردني، وفي مساء اليوم ذاته حدث أمر جعلها ماثلة في ذهني بوضوح أكبر. كنت قد تناولت كتابَين أو ثلاثة عشوائيًّا كي أسلي بهم نفسي خلال الأمسية، وبينما أقلِّب في صفحات كتاب منها — ديوان لشاعر مغمور — وجدت أن أحدهم قد وضع خطوطًا أسفل الفقرات العاطفية بالكتاب وكتب بقلم رصاص تعليقات كثيرة في الهوامش، مثلما كان شائعًا بين قرَّاء الأشعار منذ خمسين عامًا، وربما لا تزال تلك العادة شائعة حتى الآن، فالكتاب الساخرون المتشائمون في صحف شارع فليت لم يغيروا العالم ومجرياته إلى الحد الذي يتصوَّرونه.

بدا واضحًا أن قصيدة بعينها كان لها تأثير بالغ في نفس القارئ. كانت قصيدة عن تلك القصة القديمة التي تروي حكاية زير نساء يُغوي صبية عذراء ثم يرحل بعيدًا ويتركها تنتحب. كان الشعر ركيكًا، ولو كنت قرأتها في مناسبة أخرى كنت سأسخر حتمًا من أسلوبها التقليدي. لكن عندما قرأتها بالتزامن مع الملاحظات المتناثرة عبر هوامش الصفحة، والتي تتسم بسذاجة محببة، لم أشعر بأدنى رغبة في التهكُّم. تلك القصص الدارجة التي نضحك عليها لها مغزًى عميق لدى الكثير ممَّن وجدوا فيها لمحة عمَّا يعانون

من أحزان، وصاحبة هذا الكتاب — إذ كان الخط خط امرأة — قد أحبَّت ما ورد به من أشعار مبتذلة؛ لأن تلك القصائد عبَّرَت عن مكنونات قلبها. وتلك القصة التي ترويها القصيدة كانت قصتها أيضًا. وهي قصة شائعة في الحياة وفي الأدب، لكنها جديدة لَمن يُعايشها.

لم أجد سببًا يدفعني إلى ربط صاحبة الكتاب بالمرأة في الصورة، باستثناء العلاقة الطفيفة بين خط اليد المضطرب في الكتاب والملامح المعبرة في الصورة؛ رغم ذلك استشعرت أنهما الشخص نفسه، وأنني كنت أتتبَّع بخطوات حثيثة أثر صديقتي المنسية.

شعرت بدافع يحثني على تقصِّي الأمر أكثر؛ لذا في صباح اليوم التالي تبادلت، مرة أخرى، حديثًا حذرًا مع الابنة وهي ترفع الأطباق بعد وجبة الإفطار.

قلت: «بالمناسبة، إذا تركت أي كتب أو أوراق هنا بعد رحيلي، أرجو أن ترسليها إليَّ على الفور. كنت أفكر في هذا الأمر منذ قليل، وخطر لي أن أنبهك إليه، فلديَّ ميل إلى نسيان أغراضي في الأماكن التي أقيم بها.» ثم أضفت: «أظن أن المستأجرين هنا كثيرًا ما يتركون بعض مقتنياتهم خلفهم.»

فكرت أنني بذلك لجأت إلى حيلة خرقاء كي أدفعها للكلام. وتساءلت تُرى هل ستشك في وجود غرض آخر وراء سؤالي.

أجابتني: «ليس كثيرًا، حسبما أتذكر، باستثناء سيدة وحيدة مسكينة ماتت هنا.»

رفعتُ عينيَّ سريعًا وسألتها: «في هذه الغرفة؟»

بدا أن نبرة صوتي قد أقلقتها.

فردَّت قائلة: «لا ليس في هذه الغرفة تحديدًا. لقد حملناها إلى الدور العلوي، لكنها ماتت على الفور. كانت موشكة على الموت عندما جاءت هنا، ولو كان لديَّ علم بهذا ما كنت أجَّرتُ لها الغرفة. فالكثير من الناس يتحيَّزون ضد البيوت التي تُوفِّي بها أحد، كأنما يوجد مكان في العالم لم يمُت به أحد. وهذا ظلم لنا كما ترى.»

سكتُّ لبرهة، ولم يُسمع بالغرفة سوى صوت الأطباق والسكاكين.

وأخيرًا سألت: «ماذا تركَت هنا؟»

ردَّت المرأة: «بضعة كتب وصور ليس إلا، وتلك الأغراض الصغيرة التي يجلبها الناس معهم إلى الغرف المستأجرة. وعَدني أهلها بأنهم سيُرسلون مَن يأخذ حاجياتها، لكنهم لم يفوا بوعدهم قطُّ، وأظن أني نسيت وجودها. لم تكُن أغراضًا ذات قيمة.»

وبينما تغادر الغرفة استدارت وخاطبتني قائلة: «أتمنى ألا يدفعك ما قلته إلى مغادرة البيت يا سيدي. لقد حدث ما حدث منذ زمن بعيد.»

أجبتها: «بالطبع لا. أثار الأمر اهتمامي ليس إلا.» فخرجَت من الغرفة وأغلقَت الباب وراءها.

هذا إذَن تفسير ما حدث، إن اخترتُ قبوله. جلست طويلًا ذلك الصباح أسأل نفسي هل تكون الأمور التي تعلَّمتُ أن أسخر منها حقيقية رغم كل شيء. وبعد يوم أو يومين اكتشفت شيئًا أكَّد استنتاجاتي الغامضة.

كنت أقلِّب في خزانة الكتب المغبرة ذاتها حين عثرت في أحد الأدراج التي يصعُب فتحها — أسفل كومة من الكتب الممزَّقة والمبعثرة — على مذكرات كُتبت في خمسينيات هذا القرن، وكانت صفحاتها الملطَّخة تضم الكثير من الخطابات والزهور المفتتة؛ ولأن كاتب قصص مثلي يعجز عن مقاومة إغراء الوثائق التي تسجل حياة البشر، جلست أقرأ في هذه اليوميات القصة التي عرفتها قبلًا.

كانت قصة قديمة حقًّا، وفي غاية التقليدية، بطلها فنان، وهل توجد قصة من هذا النوع بطلها ليس فنانًا؟ كانا يعرفان بعضهما بعضًا منذ الطفولة، وأحَبَّ كلٌّ منهما الآخر دون أن يدريا، حتى تجلى لهما هذا الحب في أحد الأيام. فيما يلي صفحة من المذكرات تصف هذا الحدث:

> «١٨ مايو: لا أعرف ماذا أقول، أو كيف أبدأ. كريس يحبني. منذ ذلك الحين وأنا أدعو الله أن يجعلني جديرة به، وأرقص في غرفتي حافية خشية أن أوقظ أهل البيت بالأسفل. قبَّل كريس يديَّ ووضعهما حول عنقه، وقال إنهما جميلتان مثل يدَي إلهة، ثم ركع وقبَّلَهما مجددًا. وأنا الآن أحتضن يدي وأقبِّلهما. يُسعدني أنهما جميلتان جدًّا. يا ألله! لمَ تعاملني بهذا الكرم؟ ساعدني أن أكون زوجة مخلصة له. ساعدني ألا أسبِّب له لحظة ألم واحدة! امنحني مزيدًا من القدرة على الحب، كي أحبه حبًّا أقوى.»

وما إلى ذلك من أفكار حمقاء تسوِّد العديد من الصفحات؛ أفكار حمقاء من النوع الذي حمى هذا العالم القديم المنهك، والطافي في الفضاء منذ أزمنة عديدة، من التحوُّل لعالم قاسٍ بغيض.

وتستكمل صاحبة المذكرات القصة لاحقًا بصفحات كتبتها في شهر فبراير:

> «غادر كريس صباح اليوم. وضع بيدي في اللحظة الأخيرة مظروفًا صغيرًا، وقال إنه يحتوي على أغلى ما يملك، وإن عليَّ أن أفكر به كلما نظرت إلى هذا الغرض

المخبَّأ لأنه يحبه كثيرًا. بالطبع خمَّنتُ ما بداخل المظروف، لكني لم أفتحه إلا بعدما صرت وحدي في غرفتي. كان بداخله الصورة التي رسمها لي، وأحاطها بهذا القدر من السرية، يا لجمالها! تُرى هل أنا بهذا الجمال حقًّا؟ ليته لم يجعلني أبدو حزينة هكذا. ها أنا ذي أقبِّل الشفتين الصغيرتين في الصورة. أحبهما لأنه أحب تقبيلهما. آه يا حبيبي! سينقضي وقت طويل قبل أن تقبلهما مجددًا. بالطبع، كان من مصلحته أن يرحل، ويسرني إنه تمكَّنَ من ذلك. فلن يتمكَّن من الدراسة كما ينبغي في هذا الريف الهادئ، الآن سيصير في وسعه زيارة باريس وروما وسوف يصبح فنانًا عظيمًا. حتى أغبى الناس هنا يلاحظون مدى براعته. لكن مع الأسف، لن أراه مجددًا قبل مرور زمن طويل. آه يا حبيبي!»

ومع كل خطاب يأتي منه، سودت صفحات من المذكرات بعبارات ثناء مماثلة، لكن بينما أقلِّب صفحات المفكرة، بدأت أدرك أن تلك الخطابات قلَّت وصارت أكثر برودًا، واستشعرت خوفًا باردًا يسري بين الكلمات، خوفًا لا تجرؤ صاحبة المذكرات على ذكره صراحةً.

«١٢ مارس. مرَّت ستة أسابيع دون أن يرسل كريس خطابًا، يا إلهي! كم أشتاق لخطاباته، لقد أخذت أقبِّل خطابه الأخير حتى مزَّقتُه تقريبًا. أظن أنه سيكتب أكثر حالما يصل إلى لندن. أعرف إنه يبذل جهدًا كبيرًا في الدراسة، وربما أكون أنانية إذا انتظرت منه أن يكتب لي أكثر، لكني لا أمانع أن أسهر الليل كله طوال أسبوع كي لا أفوِّت كتابة خطاب واحد له. يبدو أن الرجال يختلفون عن النساء في هذه النقطة. يا إلهي، ساعدني، ساعدني على تحمل ما سيحدث أيًّا كان! إن أعصابي تالفة حقًّا الليلة. لطالما كان كريس مستهترًا. سوف أعاقبه عندما يعود، لكني لن أقسو عليه كثيرًا.»

قصة تقليدية فعلًا.

تصلها خطابات منه بعد ذلك، لكن يبدو أن خطاباته تثير استياءها أكثر فأكثر؛ لأن الكتابات في المذكرات صارت أشد غضبًا ومرارة، وكانت بعض الصفحات ملطَّخة ببقع ناتجة عن دموع صاحبتها. وبعد مرور عام آخر، تأتي الفقرات التالية، مكتوبة بخط منظم ودقيق على غير العادة:

«لقد انتهى كل شيء الآن. وأنا سعيدة لأنه انتهى. لقد كتبت له وأخبرته أنني سأتركه. أخبرته أنني لم أعُد أحبه وأن من الأفضل أن يصير كلٌّ منَّا حرًّا في حياته. هكذا أفضل. كان سيطلب مني أن أحرِّره من وعده لي، وكان ذلك ليؤلمه. لطالما كان رقيق الطبع. بالتأكيد سيصير في وسعه الآن أن يتزوجها بضمير مستريح، ولن يضطر أبدًا إلى معرفة كل ما عانيته. هي تناسبه أكثر مني. أتمنى أن يحظى بالسعادة. أظن أنني فعلت الصواب.»

يلي هذا بضعة أسطر فارغة، ثم تتواصل الكتابة، بخط قوي محموم:

«لماذا أكذب على نفسي؟ إني أكرهها! سأقتلها إن استطعتُ. أتمنى أن تجعله تعيسًا، وأن يكرهها مثلما أكرهها، أتمنى أن تموت! لمَ تركتُه يقنعني بإرسال ذلك الخطاب الكاذب؟ سوف يعرضه عليها، وسوف تدرك حقيقته وتضحك عليَّ. كان بوسعي التَّمسُّك بوعده لي، ولم يكن ليستطيع التهرُّب منه.

لا تهمني الكرامة والأنوثة والصواب، إلى آخر تلك الكلمات الرنانة! أنا أريده لي. أريد أن أشعر بقبلاته وبذراعَيه حولي. إنه ملكي! لقد أحبني في يوم من الأيام! وقد تركته لأني ظننت أن لعب دور القديسة سيكون رائعًا. لكنه كان كذبًا وخداعًا. أفضِّل أن أكون شريرة ما دام يحبني. لمَ أخدع نفسي؟ أنا أريده. لا يهمني أي شيء آخر في هذه الحياة؛ أريد حبه، أريد قبلاته!»

ثم تأتي تلك الكلمات قرب نهاية الصفحة: «يا إلهي، ما هذا الذي أقوله؟ ألا أستحيي؟ هل أنا ضعيفة إلى هذه الدرجة؟ يا إلهي، ساعدني!»

وهنا تنتهي المذكرات.

طالعت الخطابات التي كانت بين الصفحات. معظمها كان موقَّعًا باسم «كريس» أو «كريستوفر». لكنه وقَّع أحدها باسمه الكامل؛ كان اسم رجل مشهور أعرفه جيدًا ولقيته كثيرًا. تذكَّرتُ زوجته الجميلة القاسية الملامح، وبيته الكبير البارد في كينسنجتون، الذي خصص نصفه معرضًا لأعماله الفنية، والذي لم يخلُ يومًا من الضيوف الأذكياء اللبقين، وكان دائمًا ما يبدو ضيفًا متطفلًا وسطهم. تذكرت وجهه المنهك ولسانه اللاذع. وبينما تتابعت أفكاري، بزغ أمامي الوجه العذب الحزين للمرأة في الصورة، والْتَقَت عيناي بعينَيها إذ تبتسم لي وسط الظلال، فأخذت أتطلَّع إليها متعجبًا.

تناولت الصورة المصغَّرة من الرف. لا ضرر الآن من معرفة اسمها. لذا حملتها بيدي وظللت واقفًا حتى دخلت الابنة بعد قليل كي تضع الملابس المغسولة.

قلت لها: «لقد أوقعتُ هذه الصورة من الخزانة، وأنا أحاول إخراج بعض الكتب. إنها صورة امرأة أعرفها، امرأة التقيتها قبلًا، لكنني أعجز عن تذكُّر أين لقيتها. هل تعرفين مَن هي؟»

تناولت المرأة الصورة من يدي، وللحظة علت وجهها الذابل حمرة باهتة، وأجابتني قائلة: «لقد ضاعت مني. لم يخطر ببالي البحث عنها هنا. إنها صورة مرسومة لي، ترجع لسنوات مضت، رسمها صديق.»

نظرت إليها، ثم إلى الصورة المصغرة، وبينما كانت تقف بين الظلال، وضوء المصباح ينعكس على وجهها، رأيتها، ربما للمرة الأولى.

قلت لها: «يا لي من أحمق! أجل، أرى التشابه بينكما الآن.»

الرجل الذي أحب أن يساعد

حَكى لي أولئك الذين يعرفونه جيدًا — وأنا أصدِّقهم — أنه في سنِّ عامٍ ونصف كان يبكي لأن جدَّتَه لم تدَعْه يُطعمها بالملعقة، وفي سنِّ ثلاثة أعوام ونصف، انتشلوه، مُنهَك القُوى، من خزَّانٍ لمياه الأمطار كان قد تسلَّقَه كي يُعلِّم ضفدعًا كيف يسبح.

بعد ذلك بعامَين تعرَّضَ لإصابة بالغة في عينه اليُسرى بينما كان يبيِّن لِقطَّة كيف تحمل صِغارها دون أن تُؤذيهم، وفي السنِّ نفسها تقريبًا، أُصيب بلسعة خطيرة من نحلة كان ينقلها من زَهرة بَدَا له أنها تُضيع وقتها عليها إلى زهرة أخرى تزخر بالرحيق.

طالما رغِبَ في مساعدة الآخرين. وكثيرًا ما كان يقضي صباحات كاملةً يشرح لدجاجات مُسِنَّة كيف ترقد على البيض، وكان يُضحِّي بنزهات جَمْع التُّوت البري في أوقات الأصيل ويبقى في البيت كي يقشِّر المكسرات لسنجاب اتَّخَذه حيوانه الأليف. ولم يكَد يبلغ السابعة من العمر حتى بدأ يجادل أمَّه حول أساليب التعامل مع إخوته، ويُوبِّخ والده على طريقته في تربيتهم.

في طفولته، لم يُسعِده ويُبهِجه شيءٌ بقَدْر محاولة «رعاية» الأطفال الآخرين، ولم يُزعِج هؤلاء الأطفالَ شيءٌ بقَدْر هذه المحاولات. وكان يأخذ على عاتقه أداءَ هذا الواجب المزعج للآخرين من تلقاء نفسه، دون انتظار كلمة شُكر أو لَفْتة امتنان. لم يُهِمَّه مطلقًا ما إذا كانوا يكبرونه أو يصغرونه في العمر، أقوى أو أضعف منه؛ أينما وجدهم وكلما وجدهم كان يشرع في محاولة «رعايتهم». مرَّة، في أثناء رحلة مدرسية، سُمِعت صرخاته المُعذَّبة آتيةً من أقصى الغابة، وبعد البحث والتنقيب وجده أحدُ المعلِّمين مُمدَّدًا على الأرض بينما كان صبيٌّ من أبناء عمومته، يزِن ضِعف وزنه، يجلس فوقَه مُكِيلًا له اللكمات بلا انقطاع.

وبعدما أنقذه المعلم، حاول نصحه قائلًا: «لمَ لا تقصر محاولاتك على الصِّبية الصِّغار؟ ما شأنُك بصبيٍّ مثله؟»

وكان رده: «أرجوك يا سيدي، لقد كنتُ أحاول رعايته.»

ولو كان قد عاصر النبي نوحًا لَكان سيحاول قطعًا «رعايته».

بالرغم من ذلك، عُرِف بأنه صبيٌّ طيِّب ووَدُود، فلطالما رحَّب أن ينقل الصفُّ كلُّه من صحيفة إجابته، بل كان يحثهم على فعل ذلك. بالطبع كانت نيته سليمة، لكنَّ إجاباته كانت دومًا خطأً — خطأ بتفرُّد مُميَّز خاص به ولا يُمكن تقليده — ومن ثَم لم يرضَ مَن نقلوا منه بتاتًا عن نتائجهم؛ ولما كان الشباب يتَّسم بضحالة الفكر ويحكم بناءً على النتائج فقط مُتجاهلًا النوايا، كان زملاؤه ينتظرونه خارجَ المدرسة كي يضربوه.

كلُّ طاقاته كان يكرِّسُها لتوجيه الآخرين، ولم يأبَه لنفسه أو لأهدافه الخاصة. في شبابه، كان يدعو الفتية الأغرار إلى غُرفته كي يعلِّمَهم الملاكمة.

كان يقف أمام أحدهم في وضعية الدفاع صائحًا: «حاول الآن أن تَلْكمني في أنفي … لا تخَف. اضربْ بكل قُوَّتك.»

وكانوا يضربونه بالفعل. وفورَ إفاقته من الصدمة وبعد السيطرة على النزيف، كان يوضِّح لهم كيف أخطئوا تمامًا في توجيه الضربة، وأنه كان بوسعه إيقافها بكل سهولة لو أنهم ضربوه على النحو السليم.

في لعبة الجولف، أُصِيب مرَّتَين بعرج استمرَّ أسبوعًا بينما يعلِّم لاعبًا جديدًا الضربات الطويلة المدى. أمَّا في الكريكت، فأتذكَّر أني رأيت الجذع الخشبي في منتصف نصيبة فريقه يتهاوى أرضًا في لمح البصر، بينما يشرح للضارب كيف يصدُّ الكُرة بضربات أفقية ممتدة لحماية النصيبة. وعقِبَ ذلك انهمك في جدال طويل مع الحَكَم حول ما إذا كان يصِحُّ أن يخرج من الملعب أم لا.

ويُحْكى أنه كان في إحدى المرات على متن سفينة تَعْبر المانش في ليلة عاصفة، حينما هرع إلى قمرة القيادة كي يُخبِر القبطان متحمسًا أنه رأى «للتو ضوءًا على بُعد ميلَين تقريبًا ناحية اليسار». أمَّا إذا استقلَّ الحافلة فكان عادةً ما يجلس بجوار السائق كي يُنبِّهه إلى ما قد يعترض طريقه من عراقيل تهدِّد سَيْر الرحلة.

وكانت الحافلة هي المكان الذي شهِدَ بدايةَ معرفتي الشخصية به. كنتُ أجلس خلفَ سيدتَين عندما أتى المحصِّل لجمع الأجرة. ناولته إحدى الراكبتين ستة بنسات وأخبرته أنها ذاهبة إلى تقاطُع بيكاديلي سيركس، وهي مسافة أُجْرتها بنسان.

لكنَّ السيدة الثانية أوقفَتْها عن الدفع هاتفةً: «لا، لا تَدْفعي، أنا مَدِينة لكِ بستة بنسات»، ثم أعطَت المحصِّل شلنًا، وقالت له: «أعطِني أربعة بنسات من الشلن أيها المحصِّل، وبذلك أكونُ دفعت لنا نحن الاثنتَين.»

تناول المحصِّل الشلن وقطع تذكرتَين من فئة بنسَين، ثم توقَّفَ محاوِلًا استيعابَ الحِسْبة.

هنا أردفَت السيدة الثانية: «حسنًا، والآن أعطِ صديقتي أربعة بنسات.»

أطاعها المحصِّل.

ثم توجَّهت لصديقتها قائلةً: «والآن أعطيني البنسات الأربعة.»

أعطَتْها السيدة الثانية إياها.

ثم توجَّهَت إلى المحصِّل مجددًا: «وأنتَ أعطِني ثمانية بنسات، وبذلك نكون قد سوَّينا الأمر.»

أخذ المحصِّل يضع البنسات في يدها في تشكُّك — الستة بنسات التي أخذها من السيدة الأولى، إضافةً إلى بنس وعملتَين من فئةِ نصف بنس من حقيبة جمع الأجرة الخاصة به — ثم غادر مغمغمًا بعبارات عن أن واجبات وظيفته لا تتضمَّن إجراء حسابات ذهنية معقَّدة في التو واللحظة.

هنا خاطبَتِ السيدة الأكبر سنًّا صديقتَها الأصغر منها قائلةً: «حسنًا، أنا مَدِينة لك الآن بشلن.»

كنتُ قد اعتبرتُ الموقف منتهيًا عندما رأيت فجأةً رجلًا أحمرَ الوجه جالسًا على الناحية المقابلة للسيدتَين يزعق بصوت جَهْوَري قائلًا: «أيها المحصِّل! توقَّف! لقد خَدعتَ هاتَين السيدتَين واستوليتَ على أربعة بنسات من دون وجه حق.»

رد المحصِّل مُمتعِضًا: «ماذا تقول؟ خدعتُهما! إن الأجرةَ بنسان لكلٍّ منهما.»

تابَعَ الرجل ذو الوجه الأحمر مُحتدًّا: «بنسان زائد بنسَين لا تساوي ثمانية بنسات» ثم توجَّهَ إلى السيدة الأولى سائلًا: «كم أعطيتِ المحصِّلَ يا عزيزتي؟»

ردَّت السيدة بينما كانت تتفقَّد كيسَ نقودها: «أعطيتُه ستةَ بنسات» ثم أضافَت مُخاطِبةً رفيقتَها: «ثم أعطيتُكِ أربعةَ بنسات.»

هنا دوَّى من المقاعد الخلفية صوتُ رجل يبدو من الطبقة العاملة قائلًا: «هذا يساوي بنسَين وفوقهما بنسان.»

لكن الأخرى ردَّت قائلة: «هذا مستحيلٌ يا عزيزتي؛ لأنني كنتُ مَدينة لك في الأصل بستة بنسات.»

أصرَّت السيدةُ الأولى على مَوْقفها: «لكني أعطيتُكِ بالفعل ستة بنسات.»

قال المحصِّل، الذي عاد موجِّهًا إصبعَ الاتهام نحو السيدة الأكبر سنًّا: «أنتِ أعطيتني شلنًا.»

أومأتِ السيدةُ الأكبر سنًّا برأسها.

ثم أضاف: «وأنا أعطيتُكِ ستةَ بنسات وبنسَين، أليس كذلك؟»

أقرَّتِ السيدة بذلك.

ثم أشار بإصبعه إلى السيدة الأصغر سنًّا قائلًا: «ثم أعطيتها أربعة بنسات. ألم أفعل ذلك؟»

علَّقتِ السيدة الأصغر سنًّا مُخاطِبةً رفيقتَها: «وقد أعطيتُ تلك البنسات الأربعة لك يا عزيزتي، ألَا تتذكَّرين؟».

هنا صاح المحصِّل: «فَلْتأخذني داهيةٌ إذَن إنْ لم أكُن أنا مَن خُدِع وسُرِقت منه أربعةُ بنسات.»

أضاف السيد الأحمر الوجه: «لكن السيدة الأخرى أعطَتك ستة بنسات.».

ردَّ المحصِّل بينما يوجِّه إصبعَ الاتهام مجددًا للسيدة الأكبر سنًّا: «وقد أعطيتها إياها.» وأضاف: «فتِّش حقيبتي إن شئتَ، فلن تجد بها ستةَ بنسات ذوات قيمة.»

حينئذٍ كان الجميع قد نسوا ما فعلوه، وناقَض بعضهم بعضًا. أمَّا الرجل ذو الوجه الأحمر فقد أخذ على عاتقه مهمة تصحيح أقوال الجميع، وكانت النتيجةُ — قبل وصول الحافلة لتقاطُع بيكاديلي سيركس — أنْ هدَّد ثلاثةٌ من الركاب برفع شكوى ضدَّ المحصِّل لاستخدامه ألفاظًا نابية، في حين استدعى المحصِّلُ شرطيًّا وسجَّل اسمَ السيدتَين وعنوانَهما بنِيَّةِ مُقاضاتهما لاستردادِ البنسات الأربعة (وقد رغبتا حقًّا في دفعها، لكنَّ الرجل الأحمر الوجه لم يسمح لهما بذلك قطُّ)؛ وأضحَت السيدة الأصغر سنًّا مقتنعةً بأن السيدة الأكبر سنًّا قصدَت خداعَها، في حين شرعَتِ السيدة الأخرى في البكاء.

واصلتُ أنا والرجل الأحمر الوجه رحلتَنا بالحافلة حتى محطة سكة حديد تشارينج كروس، حيث اتَّضَح لنا عند شباك التذاكِر أننا ذاهبان إلى الضاحية نفسها، وهكذا واصلنا رحلتنا معًا، ولم ينقطع حديثه عن البنسات الأربعة طوال الطريق.

عند بوابة منزلي تصافحنا، وعبَّر في ذوق بالغ عن سروره لاكتشاف أننا نُعَد جيرانًا. وقد عجزتُ في البداية عن فَهْم ما جذَبَه في شخصي، فقد أشعرني بملل لا حدَّ له طوال الطريق، وقد سعيتُ قدرَ استطاعتي لتجاهُلِه. لاحقًا عرفتُ أنَّ من سِماته المميزة الإعجاب الشديد بأيِّ شخصٍ لم يشتمه صراحةً.

عقِبَ ذلك بثلاثة أيام، اقتحم حجرة مكتبي بلا دعوة؛ فقد اعتبر نفسَه على ما يبدو صديقًا حميمًا لي، وأخذ يطلب مني مُسامَحتَه على أنه لم يأتِ لزيارتي قبل اليوم، فقلتُ له إني أسامحه.

قال: «قابَلتُ ساعي البريد في طريقي إليك.» ثم ناوَلَني ظرفًا أزرقَ مضيفًا: «لقد أعطاني هذا الظرفَ، إنه مُوجَّه إليك.»

فتحت الظرف، إنها فاتورة المياه.

وواصَلَ كلامَه: «لا بد أن نأخذ موقفًا لمواجهة هذا الظلم، إنها فاتورة الاستهلاك حتى التاسع والعشرين من سبتمبر. بأيِّ حقٍّ تدفعها في شهر يونيو!»

رددتُ بما مفاده أن فواتير المياه لا بد من دفعها، ولا فرق لديَّ إن دفعتها في يونيو أو سبتمبر.

قال: «الأمر لا يتعلَّق بذلك، بل يتعلَّق بمنطق الأمور، لِمَ يجب عليك دفع أموال نظير مياه لم تصلك بعدُ؟ بأيِّ حقٍّ يبتزُّونك ويُجبِرونك على الدفع نظير خدمة لم تحصل عليها من الأساس؟»

كان متحدثًا فصيحًا طلق اللسان، وكنت مغفلًا بما يكفي للاستماع إليه. وبعد نصف ساعة من الحديث كان قد أقنعني بالفعل أن هذه المسألة ذاتُ صلة وثيقة بأهم حقوق الإنسان وأشدها رسوخًا، وأني إذا دفعت تلك الأربعة عشر جنيهًا والبنسَين في يونيو بدلًا من سبتمبر، فلن أصبح جديرًا بتلك المزايا التي حارب أجدادي وماتوا في سبيل منحي إياها.

أخبرني أن شركة المياه في موقف لا تُحسَد عليه، وبتحريض منه جلستُ وكتبتُ خطابًا يعجُّ بالإهانات موجَّهًا لمدير الشركة.

بعد ذلك، بلغني ردٌّ من سكرتير المدير كان ملخصه أنه نظرًا إلى الموقف السلبي والمهين الذي اتخذتُه حيالهم، فقد تعيَّن عليهم التعامل مع حالتي باعتبارها سابقة قضائية، وأنهم بعثوا بأوراق دعوى قضائية ضدي إلى محاميَّ.

وعندما عرضتُ عليه الخطاب ابتهج في حبور.

وأردف بينما كان يضع الردَّ في جيبه: «اترك لي هذه المسألة ... سوف نلقِّنُهم درسًا.»

وتركت المسألة له. وعذري الوحيد أني كنت منغمسًا في كتابة ما كان يدعى وقتَها «مسرحية درامية-كوميدية». ويبدو أن القدر الضئيل من الحسِّ السليم لديَّ كان ولا بد مكرَّسًا لكتابة المسرحية.

وجاء قرارُ قاضي الصلح في القضية ليُطفئ حماسي، لكنه زاد حماسه اشتعالًا فحسب. قال إن قُضاة الصُّلح ليسوا سوى مجموعة من العجائز المحافظين المشوَّشِي الذهن، وإن المسألة تتطلَّب قاضي محكمة.

كان قاضي المحكمة رجلًا مهذَّبًا كبيرَ السن، وقال إنه نظرًا إلى الصياغة غير المُرضِية للبندِ الفرعي (الخطاب الذي أرسلتهُ إلى الشركة)، فإنه لا يظنُّ أنَّ بوسعه ترك الشركة تتحمَّل نفقات القضية، ومن ثَم تمخَّضَ الأمرُ عن تحمُّلي ما يقرب من خمسين جنيهًا إجمالًا من النفقات، متضمِّنة الأربعة عشر جنيهًا والبنسات العشرة الأصلية.

بعد تلك الحادثة، اضمحلَّتْ صداقتنا، بَيْد أننا نقطن الحيَّ المعزولَ نفسه، ما حتَّم عليَّ أن أراه كثيرًا، وأن أسمع عنه أكثر.

في شتى أنواع الحفلات، كان وجوده بارزًا، ولَمَّا كان طابعُه الودود الدَّمِث يبلغ أقصى درجاته في تلك المناسبات، كان الجميع يخشونه أشدَّ ما يكون. فلم يوجد قطُّ امرؤ مثله يجتهد في سبيل سعادة الآخرين، ويتسبَّب مع ذلك في شقاء لا حدَّ له.

في ظهيرة يوم الكريسماس، بينما كنت أزور صديقًا لي، فُوجِئتُ بمشهد لأربع عشرة أو خمس عشرة من الرجال والسيدات المُسنَّات، يهرولون في مَهابة حول صفٍّ من الكراسي في منتصف غرفة المعيشة، بينما كان بوبليتون — وهو اسمُه بالمناسبة — يعزف على البيانو. وبين الحين والآخر، كان يتوقَّف فجأةً عن العزف، فيتهاوَون في تعبٍ، كلٌّ فوق أقرب كرسي، ويتبدَّى على وجوههم السرور لما حازوا من راحة؛ كلهم عدا واحدًا، ينسلُّ من الغرفة في هدوء متبوعًا بنظرات الحسد من أقرانه الذين تركهم خلفه. وقفتُ بجوار الباب أتفرَّج على هذا المشهد العجيب، حين قدِمَ ناحيتي أحدُ اللاعبين الهاربين، فسألتُه عن المعنى المفترَض لهذه المراسم العجيبة.

ردَّ متكدِّرًا: «لا تسألني ... إنها واحدة من حماقات بوبليتون اللعينة تلك» ثم أضاف في غضب شديد: «وسوف نلعبُ الشايب بالأحكام بعد ذلك.»

في غضون ذلك، كانت الخادمة لا تزال تنتظر الفرصة المناسبة لتُعلِن حضوري، فنقدتُها شلنًا كي لا تقول شيئًا، وهرعت خارجًا قبل أن يلحظني أحد.

عقِبَ عشاء دَسِم، كان يقترح على الحضور تنشيط أجسادهم برقصة مرتجلة، ثم يطلب منك أن تَطوِي السجاد أو تساعده في نقل البيانو إلى الناحية الأخرى من الغرفة.

وكان على دراية بعدد من الألعاب الجماعية المعذبة تكفي لخلق جحيم مُصغَّر من تصميمه. فمثلًا إنْ كنتَ في خِضَمٍّ مناقشة ممتعة أو مستغرقًا في حوار شائق مع امرأة

مَليحة، فستجده أمامَك فجأةً من حيث لا تحتسب هاتفًا: «تعالَ بسرعة، سوف نلعب لعبة «قصة نكتبها جميعًا».» ثم يجرُّك جَرًّا نحو الطاولة، ويضع أمامَك ورقةً وقلمًا، ويأمرك بأن تكتبَ وصفًا لبطلتِك المفضَّلة في إحدى الروايات، وسوف يُصِرُّ على أن تفعل ذلك أمامه وحالًا.

لم يدَّخر جهدًا قطُّ في مُساعدة الناس. وهو دائمًا أول مَن يتطوَّع لمرافَقةِ السيدات المُسنَّات إلى محطة القطار، ولا يتركهن أبدًا حتى يطمئنَّ أنهن قد صعدن بسلامة على متن القطار الخاطئ. وهو مَن يلعب مع الأطفال الصغار لعبة «وحوش الغابة»، ويتسبَّب في إخافتهم حتى يُصابوا بنوبات من الرعب الشديد تدوم طوال الليل.

من ناحية النِّيَّة، كان أطيب الرجال قلبًا. ولم يحدث قطُّ أن زار مريضًا فقيرًا دون أن يحمل معه صِنفًا من أطايب الطعام لا يصحُّ للمريض تناوُلُه ويؤدي إلى تدهوُر حالته. وكان ينظِّم — على نفقته الخاصة — رحلات إبحار باليخت لأُناسٍ لا يفقهون شيئًا في الإبحار، ثم يعتبر شكواهم المريرة لاحقًا نُكرانًا للجميل.

وكان يهوى تنظيم حفلات الزفاف. في إحدى المرات، تولَّى تنظيم حفل وصلَت فيه العروس إلى مذبح الكنيسة قبل ثلاثة أرباع ساعة من وصول العريس، ما أدَّى إلى شيوع جوٍّ من الكَدَر في يوم من المفترَض أن تَسُوده البهجة، ومرَّة نَسي أن يُحضِر القسيس. بَيْد أنه دائمًا ما يُبدِي استعدادًا للاعتراف بخطئه متى ارتكب خطأً.

وفي الجنازات أيضًا تجده في المقدِّمة، موضِّحًا للأقارب الحَزَانى أن كَوْن الجثة ميتة أمرٌ يصبُّ في مصلحة الجميع، ومتمنيًا في ورَع أن يلحقوا به قريبًا.

بَيْد أن أعظم مباهج حياته كان التدخُّل في نزاعات الآخرين العائلية. لم يفلت نزاع عائلي في دائرة قُطرها عدة أميال حول منزله من تدخله. كان يتدخل بداية كوسيط، ثم تنتهي به الحال شاهدًا رئيسيًّا لمقدِّم الطعن على الحُكم.

لو كان امتهن الصحافة أو السياسة، لَكان استيعابُه المذهل لشئون الآخرين سيُكسِبه كلَّ احترام وتقدير. لكنَّ خطأه الوحيد هو تطبيقُه هذا الاستيعاب على المستوى العملي.

الرجل الذي عاش لإرضاء الآخرين

أول مرَّة التقينا فيها كي نتحدَّث، كان جالسًا مستندًا بظهره إلى شجرة صفصاف شذبت فروعها العليا، ويدخِّن غليونًا من الفخار. كان يدخِّن ببطء شديد وبعناية بالغة. فبعد كل نفس كان يبعد الغليون عن فمه ثم يستخدم قبعته في طرد الدخان.

سألته من وراء شجرة: «هل بدأت تشعر بالتعب؟»، وجهزت نفسي للركض هربًا، فردود الصبية الكبار على وقاحات الصبية الصغار أمر يُستحسن تجنُّبه في المعتاد.

بَيْد أنني فوجئت أنه يرى سؤالي سؤالًا عاديًّا ولائقًا، وتنفَّستُ الصعداء لأني أدركت، بالنظر مجددًا إلى ساقيه، أني لم أقدِّر طولهما بدقة عندما خططت للهرب ركضًا. وقد رد عليَّ بصراحة لا يشوبها افتعال: «لا ليس بعد.»

صرت راغبًا في التخفيف عنه، وأظن أنه أدرك رغبتي هذه وبدا ممتنًّا لي. وهكذا تقدمت في العراء، ثم جلست على الأرض في مواجهته، وأخذت أراقبه في صمت.

سألني: «هل جرَّبتَ شرب البيرة من قبل؟»

أجبته بأنني لم أجربها.

فرد سريعًا برجفة لا إرادية: «إنها شراب بشِع».

وعندما أنسته ذكرى الماضي المرير متاعب اللحظة الحالية، أخذ يدخِّن غليونه بشراهة وبلا اكتراث.

سألته: «هل تشربها كثيرًا؟»

رد في كآبة: «نعم. نحن جميعًا في الصف الخامس نحتسي البيرة وندخِّن الغليون.»

حينئذٍ كست وجهه مسحة من لون أخضر داكن.

نهض فجأة وتوجَّه نحو سياج الأشجار. وقبل أن يصل إليه، توقَّف وقال سريعًا دون أن يلتفت إليَّ: «لو اتبعتني أيها الصبي، أو نظرت إلى ما أفعله، فسوف أحطِّم رأسك»، ثم غاب عن ناظري مُصدرًا صوت تقيُّؤ.

ترك المدرسة مع نهاية الفصل الدراسي ولم أرَه مجددًا حتى صرنا، نحن الاثنين، في عمر الشباب. لقيته صدفة في أحد الأيام بشارع أكسفورد، ودعاني إلى قضاء بضعة أيام في منزل عائلته بمقاطعة سري.

عندما وصلت، بدا لي مكتئبًا وكاسف البال، وكان يتنهَّد بين الحين والآخر. وبينما كنا نسير في المراعي المفتوحة ارتفعت روحه المعنوية ارتفاعًا ملحوظًا، لكن فور أن بلغنا باب المنزل، بدأ يتمالك نفسه، وشرع يتنهَّد من جديد. لم يتناول شيئًا تقريبًا من طعام العشاء، بل اكتفى ببضع رشفات من كأس النبيذ وبلُقَيمات من شريحة من الخبز. قلقت عليه عندما لاحظت هذا، لكن قريباته، وهن عمته العزباء، المقيمة في المنزل، وأختاه الأكبر سنًّا، وابنة عمه الضعيفة البصر التي يعمل زوجها في الهند، كُنَّ معجبات دون شك بسلوكه. إذ كُنَّ يتبادلن النظرات ويومِئن برءوسهنَّ ويبتسمن. ومرَّة ابتلع وهو شارد قطعة كبيرة بعض الشيء من قشرة الخبز، وعلى الفور تبدَّى مزيج من الألم والدهشة على وجوههن.

في غرفة الجلوس، قررت الاستفسار من عمته عن حاله، مستغلًّا انشغال الجميع بسماع أغنية عاطفية كانت تنشدها ابنة العم.

سألتها: «ما خطبه؟ أهو مريض؟»

أطلقت السيدة العجوز ضحكة خافتة، ثم همست في جذل: «سوف تصير مثله يومًا ما.»

سألتها في قلق نظرًا إلى طبيعة الموقف: «متى؟»

أجابتني: «عندما تقع في الحب.»

صمتُّ للحظة ثم سألتها: «أهو واقع في الحب؟»

فردَّت بنبرة يشوبها الازدراء: «ألا تلاحظ ذلك عليه؟»

رأت أنني شاب مثله ومن المفترض أن تهمني تلك الأمور.

سألتها مجددًا: «ألن يتناول طعام العشاء أبدًا حتى يتجاوز الأمر؟»

أدارت رأسها ونظرت إليَّ بحدة، لكنها قرَّرَت على ما يبدو أنني مجرَّد شاب أحمق.

ردَّت وهي تهزُّ خصلات شعرها: «انتظر حتى يحين دورك. وحينئذٍ لن تكترث كثيرًا بطعام العشاء، إذا كنت تحب بصدق.»

في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلًا، سمعت صوت خطوات في الردهة. تسلَّلت نحو باب الغرفة وفتحته، فلمحت صديقي يهبط السلالم مرتديًا ثياب النوم وخُفًّا. ظننت أن عقله قد تأثر بفعل المحنة التي يواجهها، فصار يمشي أثناء النوم. وبدافع من الفضول الممزوج برغبة في الاعتناء به، ارتديت بنطالي وتبعته.

رأيته يضع شمعته على طاولة المطبخ ثم يتوجَّه مباشرةً نحو باب غرفة المُؤَن، ويخرج حاملًا طبقًا يحوي نحو كيلوجرام من اللحم البقري البارد ونحو ربع جالون من البيرة في إبريق؛ فغادرتُ راجعًا إلى غرفتي، وتركته يتلمَّس طريقة بحثًا عن المخللات.

كنت حاضرًا في حفل زفافه، وقد بدا لي أنه يجاهد كي يُبدي فرحًا عارمًا يفوق ما يستطيع أي إنسان الشعور به؛ وبعد خمسة عشر شهرًا، لمحتُ صدفةً إعلانًا عن مولد ابنه في عمود المواليد الجدد بجريدة «التايمز» فقرَّرتُ زيارته في طريق عودتي من المدينة كي أهنِّئه. وجدته يسير جيئةً وذهابًا في ردهة الاستقبال مرتديًا قبعته، ويتوقف بين الحين والآخر كي يتناول لُقيمات من وجبة لا تبدو محفِّزة للشهية، مكوَّنة من لحم ضأن بارد وكوب من الليمونادة موضوعَين على أحد الكراسي. لاحظت أن الطاهية والخادمة كانتا تتجوَّلان في البيت ويبدو الملل على وجهَيهما من قلة العمل، وأن غرفة السفرة كانت شاغرة ومرتَّبة فلا سبب يمنعه من تناوُل طعامه هناك بعيدًا عن الغادين والرائحين، فلم أفهم في البداية سبب اختياره المتعمَّد لهذا المكان غير المريح لتناول الطعام. لكني احتفظت بأفكاري لنفسي، وسألته عن صحة الأم والطفل الرضيع.

أجابني متنهِّدًا: «في أفضل حال. قال الطبيب إنه لم يلقَ طوال سنوات خبرته حالة مطمئنة كهذه.»

قلت: «يسعدني سماع ذلك. كنت أخشى أن تقلق نفسك عليهما.»

صاح قائلًا: «أقلق نفسي فحسب؟! بل قُل إني لا أعرف رأسي من قدمي من شدة القلق. هذا أول طعام يدخل معدتي منذ أربع وعشرين ساعة.»

في تلك اللحظة، ظهرت المربية أعلى الدرج. فاندفع نحوها متحمِّسًا، حتى كاد يقلب كوب عصير الليمون.

سألها بصوت مختنق: «ما الأمر؟ أهما على ما يُرام؟»

ألقت السيدة العجوز نظرة سريعة على طبق اللحم البارد وابتسمت في رضًا ثم ربتت على كتفه بحنان أمومي وأجابته: «هما في خير حال. لا تُقلق نفسك.»

ردَّ عليها قائلًا: «ليس بيدي حيلة يا سيدة جونسون»، ثم جلس أسفل الدرج وأراح رأسه على الدرابزين.

قالت السيدة جونسون بنبرة إعجاب: «بالطبع، ليس بيدك حيلة، هكذا يكون الرجل الحقيقي في تلك المواقف.» حينئذٍ فهمت لمَ يرتدِ قبعته ويتناول عشاءً باردًا في ردهة المنزل.

في الصيف التالي، أجَّرت عائلته منزلًا قديمًا بديعًا في مقاطعة بيركشاير، ودعَوني لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معهم. كان المنزل قريبًا من النهر؛ لذا وضعت في حقيبتي بذلة صيفية خفيفة، وارتديتها يوم الأحد صباحًا. لقيني صديقي في الحديقة، وكان يرتدي سترة رسمية ثقيلة وصديرية بيضاء، ولاحظت أنه لا ينفك يرمقني بطرفَي عينَيه، وبدا منزعجًا من أمر ما. دق جرس الإفطار، وعندئذٍ قال لي: «ألم تجلب أي ملابس لائقة معك؟»

توقفت منزعجًا، ثم صحت: «ملابس لائقة؟! لماذا؟ هل وقع أمر يستدعي ذلك؟»

رد مفسِّرًا: «لا، لم يحدث شيء، أقصد ملابس تصلح للذهاب إلى الكنيسة.»

قلت متعجبًا: «الكنيسة! لا تقُل لي إنك ستذهب إلى الكنيسة في يوم صحو كهذا؟ لقد توقعت أنك ستلعب التنس أو ستذهب إلى النهر. لطالما اعتدت القيام بتلك الأنشطة.»

رد متوترًا وهو ينكز شجيرة ورد بغصن صغير الْتقطَه من الأرض: «هذا صحيح، لسنا نحن مَن نرغب في الذهاب إلى الكنيسة، أنا ومود نفضل الاستمتاع بتلك الأنشطة، لكن الطباخة التي تعمل لدينا اسكتلندية ولديها أفكار متزمتة بعض الشيء.»

سألته: «وهل تصرُّ على أن تذهبا معها إلى الكنيسة صباح كل يوم أحد؟»

أجابني: «في الواقع ... هي ترى أن تخلُّفنا عن الذهاب أمرٌ مُستغرَب؛ لذا عادةً ما نذهب، في الصباح فحسب، وفي المساء أيضًا. وبعد الظهيرة، تأتي مجموعة من فتيات القرية وننشد كلنا بعض التراتيل وما إلى ذلك. صدِّقني إني أكره إيذاء مشاعر أي شخص وأحاول تجنُّب ذلك قدر استطاعتي.»

لم أصرِّح برأيي فيما قاله، بل قلت له: «لديَّ تلك البذلة المصنوعة من قماش التويد، التي ارتديتها أمس. يمكنني ارتداؤها إذا أحببت.»

توقف عن ضرب شجيرة الورد، وعقد حاجبَيه. بدا أنه يسترجع صورة البذلة في خياله.

هز رأسه رافضًا وقال: «لا. أخشى أن هذا الزي سوف يصدمها.» وأضاف نادمًا: «الخطأ خطئي، أعلم هذا. كان يجب عليَّ إخبارك قبل أن تأتي.»

ثم أتته فكرة.

أردف قائلًا: «ألا يمكنك التظاهر بالمرض، والمكوث في السرير اليوم فقط؟»

وضَّحتُ له أن ضميري لن يسمح لي بالمشاركة في تلك الخديعة.

رد قائلًا: «أجل، توقعت أن ترفض. لا بد أن أشرح لها. سأقول إنك قد فقدت حقيبتك. لا أودُّ أن تظن بنا الظنون.»

لاحقًا، توفي قريب بعيد له، وأورثه ثروة ضخمة. ابتاع ضيعة في يوركشاير، وتحوَّل هو وأسرته إلى «عائلة ريفية». حينئذٍ بدأ يواجه مشكلات حقيقية.

فمنذ بداية مايو حتى منتصف أغسطس، كان ينعم بحياة هادئة إلى حدٍّ معقول، لا يتخلَّلها سوى أنشطة صيد أسماك محدودة تؤدِّي غالبًا إلى إصابته بالزكام بسبب تبلُّل قدمَيه. لكن منذ بداية الخريف حتى نهاية الربيع، اكتشف أن العمل الذي تنطوي عليه حياة الريف شاقٌّ جدًّا دون شك. كان رجلًا بدينًا بعض الشيء، وكان يتوتر بطبيعته من الأسلحة النارية، وبالنسبة إليه كانت رحلات الصيد التي يسير فيها طوال ست ساعات في الحقول المحروثة حاملًا سلاحًا ثقيلًا، في رفقة حشد من الأشخاص المستهترين الذين ما انفكوا يُطلقون أسلحتهم مرَّة تلو الأخرى على بُعد بوصة من أنوف رفاقهم، نشاط منهك وموتر. كان يضطر إلى النهوض في الساعة الرابعة في صباحات أكتوبر الباردة كي يشارك في رحلات لصيد صغار الثعالب؛ وفي الشتاء كان يخرج للصيد مرَّتَين أسبوعيًّا على ظهر الخيل وبصحبة قطيع من الكلاب، باستثناء الأوقات التي كان ينعم خلالها بفترة راحة وجيزة بفضل انتشار الصقيع. كان يعود من تلك الرحلات مصابًا ببعض الكدمات والارتجاجات البسيطة في العمود الفقري، ويرجع الفضل في هذا إلى بنيته الضئيلة والبدينة التي حمته من إصابات أخطر. فعندما كان يلقى متاريس خشبية، كان يغلق عينيه وينطلق بحصانه بقوة. وعلى بُعد تسعة أمتار من النهر كان يشرع في التفكير في الجسور.

رغم ذلك، لم يشتكِ أبدًا.

كان يقول: «إذا صار المرء سيدًا نبيلًا يقطن في الريف، فلا بد أن يحيا حياة سادة الريف النبلاء، ويتقبَّلها بحلوها ومرها.»

ولسوء حظه، تضاعفت ثروته بفعل مضاربة تجارية عارضة، وصار لزامًا عليه أن يصبح عضوًا في البرلمان ويبتاع يختًا حسب العرف. كان حضور جلسات البرلمان يسبِّب له الصداع، أما ركوب اليخت فكان يُصيبه بالغثيان. ومع ذلك، كان يحشد في يخته مجموعة من الضيوف الذين يكلفونه ثروة ويشعرونه بالسأم، ويبحر بهم طوال شهر بائس من كل صيف في البحر الأبيض المتوسط.

وفي أثناء واحدة من تلك الرحلات تورَّط ضيوفه في فضيحة مقامرة مليئة بالأحداث المشوقة. ورغم أنه كان منعزلًا في قمرته وقت وقوع تلك الفضيحة ولم يدرِ شيئًا عنها،

وصلت القصة إلى صحف المعارضة التي وصفت اليخت بأنه «جحيم عائم»، ونشرت صحيفة «أخبار الشرطة» صورته في موضع بارز مانحةً إياه لقب «كبير المجرمين» لهذا الأسبوع.

لاحقًا انضم إلى جماعة من المثقفين، يهيمن عليها طالب جامعي غليظ الشفتَين. قبل ذلك اقتصرت قراءته الأدبية على روايات ماري كوريلي ومجلة «عجائب وطرائف» الأسبوعية، لكنه بات الآن يقرأ أعمال الشاعر والروائي جورج ميريديث ومجلة «الكتاب الأصفر» الأدبية الدورية، ويسعى لفهم ما يقرؤه؛ وبدلًا من حضور المسرحيات الكوميدية في مسرح «جايتي»، أصبح عضوًا في رابطة المسرح المستقل وصار يشاهد مسرحيات شكسبير باللغة الهولندية كي «ينمي ذائقته ويوسع مداركه». أما فيما يتعلَّق بالفن التشكيلي، فكان يحبُّ اللوحات التي تصور فتاة مليحة واقفة بجانب باب كوخ وبجوارها طفل وكلب يلهو بحركات مضحكة. لكنَّ أصدقاءه الجدد أخبروه أن تلك الرسومات سيئة ودفعوه إلى شراء لوحات «انطباعية» كانت تثير الاضطراب في أعماق جوفه كلما نظر إليها؛ لوحات تصور تلالًا حمراء تسبح في ضوء قمر وردي، أو جثثًا قرمزية الشعر بأعناق طولها ثلاثة أقدام.

كان يقول في خنوع إن تلك اللوحات تبدو له غير طبيعية، وكانوا يردون بأن الطبيعة لا علاقة لها بالأمر، ما يهم هو أن عين الفنان رأت الأشياء على هذه الصورة، وأن ما يراه الفنان، بغض النظر عن حالة ذاك الفنان وقت الرؤية، هو الفن.

كانوا يصحبونه إلى مهرجانات الاحتفاء بالمؤلف الموسيقي فاجنر في ألمانيا، وإلى عروض خاصة للوحات الرسام برون جونز. تلوا عليه قصائد لكل شاعر مغمور في المدينة. وحجزوا له مقعدًا في عروض مسرحيات إبسن كافةً. قدَّموه إلى الأوساط الأعمق فكرًا وعاطفة في المجتمع الفني. وهكذا صارت أيامه عبارة عن أعيادٍ ثقافية يستمتع بها الجميع سواه.

في صباح أحد الأيام لقيته وهو يهبط سلالم نادي الفنون. كان يبدو متعبًا، فقد غادر لتوِّه العرض الخاص المُقام في معرض «نيو جاليري». وفي عصر هذا اليوم، كان عليه حضور عرض هواة لمسرحية «آل تشنشي» تقدِّمه رابطة محبي الشاعر شيلي. وبعد ذلك كان من المخطَّط أن يستضيف ثلاث حفلات أدبية وفنية في بيته، ثم يتناول العشاء مع حاكم هندي لا يعرف حرفًا من اللغة الإنجليزية، ثم يحضر أوبرا تريستان وإيزولد في مسرح «كونفينت جاردن»، ويختتم اليوم بحضور حفل راقص في بيت لورد سالزبيري.

وضعتُ يدي على كتفه.

قلت له: «تعالَ معي إلى غابة إيبنج فروست، سوف نستقلُّ عربة إلى هناك من تقاطُع تشارينج كروس في الساعة الحادية عشرة. اليوم السبت ومن المؤكَّد أننا سنجد جمعًا من الناس هناك. سوف نلعب البولينج ونجرِّب حظنا في لعبة حبات جوز الهند، لطالما كنت بارعًا في تلك اللعبة. يمكننا تناول طعام الغداء هناك، ثم نرجع في الساعة السابعة ونتعشى في مطعم تروكادو الفاخر، ثم نقضي ليلتنا في مسرح «ذا إمباير»، وبعد ذلك يمكننا تناول وجبة خفيفة في فندق سافوي. ما رأيك؟»

وقف متردِّدًا على السلالم، وتبدَّت في عينَيه نظرة حنين.

وفي تلك اللحظة، جاءت عربته وتوقَّفَت بجوار الرصيف، فجفل كما لو كان في حلم.

رد عليَّ قائلًا: «يا صديقي العزيز، ماذا سيقول الناس عني إن فعلت هذا؟» ثم صافحني وركب عربته، وصفق خادمه باب العربة وراءه.

أسير العادة

كنا ثلاثة جالسين في غرفة التدخين في نادي «ألكساندرا»؛ أنا وصديق عزيز، وفي الركن المقابل جلس رجل ذو سمت متواضع وملامح خجلة، عرفنا بعد ذلك أنه رئيس تحرير إحدى الجرائد التي تصدر يوم الأحد في مدينة نيويورك.

كنت أتحدث مع صديقي عن العادات، الجيدة والسيئة.

قال صديقي: «قد يتحوَّل المرء إلى قديس أو إلى وغد دون جهد كبير، إذا التزم بسلوك معيَّن طوال بضعة أشهر؛ فسوف يصير هذا السلوك مجرد عادة.»

قاطعتُه قائلًا: «صحيح، أن ينهض المرء من السرير فور أن يُنادى عليه، وأن يصيح «حاضر» ثم ينقلب على جنبه ليغفو خمس دقائق إضافية، يصبحان سلوكين متماثلين في درجة السهولة إذا ما اعتاد أيًّا منهما. والامتناع عن السباب ليس أصعب من التلفُّظ بالشتائم إذا صار أيهما عادةً لدى المرء. وتناوُل الماء والخبز المحمص لا يقل متعة عن احتساء الشمبانيا، إذا تعوَّد المرء على استطياب مذاقهما. وكل سلوك ونقيضه يتساويان في السهولة، واتباع أحدهما دون الآخر ليس سوى مسألة اختيار يعقبه التزام.»

وافقني صديقي الرأي.

ثم أضاف: «فلتأخذ هذا النوع من السيجار»، ثم دفع علبة سيجاره المفتوحة ناحيتي.

أجبتُ مسرعًا: «لا، شكرًا، لا أدخِّن حاليًّا.»

قال: «لا تخَف، أقصد أن تأخذه على سبيل المثال. أعرف أن تدخين سيجار من هذا النوع سوف يجعلك تُعاني لمدة أسبوع.»

وافقته القول.

تابع قائلًا: «حسنًا. ربما لاحظت أنني أدخِّن هذا النوع من السيجار طوال اليوم، وأستمتع بتدخينه. أتعرف لماذا؟ لأني عوَّدتُ نفسي عليه. منذ سنوات مضت، في شبابي،

اعتدت تدخين سيجار كوبي باهظ الثمن. لكني اكتشفت أنني أوشك على الإفلاس بسببه. وكان من الضروري أن أدخِّن نوعًا أرخَص ثمنًا. كنت أقطن في بلجيكا وقتها، وحينئذٍ اقترح عليَّ أحد الأصدقاء تدخين هذا السيجار. لا أعرف بالضبط ما بداخله، على الأرجح بعض أوراق الكرنب المزوجة بفضلات الطيور، هكذا بدا لي مذاقه في البداية، بَيْد أنه كان رخيصًا. فشراء خمسمائة سيجار لم يكلِّفني سوى ثلاثة بنسات. ومن ثَم عقدتُ العزم على أن أحبَّه، وبدأت بتدخين سيجار واحد يوميًّا. أعترف أني تعذَّبتُ في البداية، لكني قلت لنفسي إن الأمر لا يقارن أبدًا بمدى سوء تدخين السيجار الكوبي لأول مرة. التدخين ذوق مكتسب، ومن السهل حتمًا على المرء تعلُّم التلذُّذ بنكهة معيَّنة دون الأخرى. لذا، ثابرت في مسعاي حتى انتصرت. وقبل أن ينتهي ذلك العام صرت قادرًا على التفكير في هذا السيجار دون اشمئزاز، ومع نهاية العام الثاني، أصبحت أدخِّنه دون عناء بالغ. والآن أفضِّله على أي نوع آخر مُتاح في السوق. بل إن تدخين أنواع السيجار الجيدة صار يُتعبني.»

سألته ألم يكن من الأسهل أن يقلع عن التدخين كليًّا.

رد قائلًا: «فكرت في ذلك، لكني لم أحبَّ قطُّ صحبة الرجل الذي لا يدخِّن. ثمَّة طابع ودود ومؤنس مرتبط بالتدخين.»

ثم أرجعَ ظهره ونفث سحبًا هائلة من الدخان في الهواء، ملأت الغرفة الصغيرة برائحة كريهة هي مزيج من رائحة المياه الآسِنة والمقابر.

توقف قليلًا، ثم تابع حديثه قائلًا: «إليك مثال آخر: النبيذ الأحمر الذي أشربه. أعرف أنك لا تحبه.» (لم أكن قد نطقت بكلمة، لكن التعبير على وجهي فضحني.) «لا أحد يحبه، على الأقل ممَّن لقيتهم. بيد أن هذا النبيذ ساعدنا على الإمساك بلصَّين منذ ثلاث سنوات، عندما كنت أقطن في ضاحية هامرسميث. تمكَّن اللصان من فتح الصوان في غرفة السفرة، واحتسيا نحو خمس زجاجات منه. وجدهما شرطي لاحقًا جالسَين على عتبة منزل يبعد مائة ياردة وبجوارهما حقيبة قماشية تحوي الغنيمة المسروقة. كان الإعياء قد بلغ منهما مبلغًا أعجزهما عن إبداء أي مقاومة، وذهبا إلى قسم الشرطة صاغرَين بعدما وعدهما الشرطي بأن يجلب لهما طبيبًا ما إن يصيرا آمنين وراء القضبان. ومنذ ذاك الحين، أحرص كل ليلة على ترك قارورة مليئة به على الطاولة.»

وأردف: «أحب هذا النبيذ حقًّا، وطالما كان له تأثير جيد عليَّ. في بعض الأحيان أعود إلى البيت منهك القوى. فأتناول بضعة كئوس منه، وعلى الفور يتجدَّد نشاطي. بدأت أحتسيه للسبب ذاته الذي دفعني إلى تدخين هذا السيجار، ألَا وهو رخص ثمنه. أطلبه مباشرة من

جنيف، وتكلفني الدستة منه ستة شلنات فحسب. لا أعرف كيف ينتجون نبيذًا رخيصًا كهذا. ولا أريد أن أعرف. فكما تعلم، هو نبيذ مسكر حقًّا وله نكهة قوية.»

ثم أضاف: «أعرف رجلًا كان متزوِّجًا من امرأة ثرثارة مزعجة. طوال اليوم كانت تتحدَّث إليه أو تتحدَّث عنه أو تتحدَّث دون انتظار رد منه، وكان ينام ليلًا على الإيقاع المتذبذب لصوتها إذ تعبر عن رأيها فيه. وأخيرًا ماتت الزوجة، فهنَّأَه أصدقاؤه، وأخبروه أنه سينعم بالسلام من الآن فصاعدًا. لكن السلام الذي ساد البيت كان موحشًا، ولم يسعد الرجل به. فعلى مدار اثنين وعشرين عامًا، كان صوتها يتردَّد في أرجاء المنزل، مخترقًا الجدران الزجاجية لبيت النباتات، ومتدفِّقًا في موجات خافتة من الزعيق عَبْر الحديقة ونحو الطريق العام. والصمت الذي صار يُهيمن الآن على البيت أخافه وأزعجه. لم يعُد يشعر أنه في بيته. كان يفتقد الإهانات الصباحية المُنعِشة التي اعتادت توجيهها إليه، وساعات التوبيخ في ليالي الشتاء الطويلة بجوار نيران المدفأة المتراقصة. وجافاه النوم ليلًا. فكان يتقلَّب في سريره لساعات، وأذناه تتوقان إلى الإيقاع المهدئ المعتاد لصوتها إذ تذم في شخصه.

كان يصيح في مرارة: «صدق مَن قال إن المرء لا يعرف قيمة ما لديه حتى يفقده.»

أصابه المرض. وأعطاه الأطباء أنواعًا من المنوِّمات لم تُجدِ معه شيئًا. وأخيرًا أخبروه صراحة أن حياته تتوقَّف على إيجاد زوجة قادرة على مناكدته ومستعدة لمواصلة ذلك حتى ينام.

كان بالحي الذي يقطن به نساء كُثر من النوع الذي يريده، لكن النساء غير المتزوِّجات كُنَّ، بحكم الضرورة، عديمات الخبرة، ولم تكُن صحته لتتحمل إمضاء الوقت في تدريب أيٍّ منهن.

ومن حُسن الحظ، تُوفي رجل في الأبرشية المجاورة، وقيل إن زوجته هي مَن أزهقت روحه بحديثها المتواصل. سعى إلى التعرُّف عليها، ثم زارها في اليوم التالي للجنازة. كانت امرأة عجوزًا مشاكسة، والتودُّد إليها كان عملية صعبة ومنهكة، بَيْد أنه واصل مسعاه بشغف وحماس، ولم تمضِ ستة أشهر حتى نجح في إقناعها بالزواج منه.

لكن اتضح، مع الأسف، أنها بديل أدنى كفاءةً من زوجته الراحلة. كانت ترغب صدقًا في مناكفته غير أنها افتقدت الملكات التي تُعينها على فعل ذلك. فلم تكُن تتمتَّع بفصاحة اللسان ولا النَّفَس الطويل اللذين ميَّزا نظيرتها. ولم يكن الرجل يسمع لها حسًّا من كرسيه في آخر الحديقة، لهذا السبب اضطر إلى نقل الكرسي إلى بيت النباتات. لم يمانع في تغيير

المكان ما دامت تستمرُّ في توجيه الإهانات إليه؛ لكن حالما كان يسترخي في كرسيه ويشرع في قراءة الصحيفة وتدخين غليونه، كانت، بين الحين والآخر، تتوقَّف فجأة عن الحديث.

كان ينحِّي الصحيفة جانبًا وينصت بعناية وعلى وجهه تعبير قلِقٌ ومهموم.

وبعد برهة كان ينادي عليها: «أأنتِ هنا يا عزيزتي؟»

فكانت ترد لاهثة بصوت منهك: «نعم هنا، أين تظنني ذهبت أيها العجوز الأحمق؟»

وما إن يسمع كلماتها كان وجهه يُشرق ويُجيبها قائلًا: «واصلي حديثك يا عزيزتي. أنا مُنصِت إليك، أحبُّ سماع صوتك.»

لكن المرأة المسكينة استُنزفت تمامًا، ولم تكُن قادرة حتى على إطلاق زفرة.

حينئذٍ كان يهزُّ رأسه بحزن ويقول: «إنها لا تملك طلاقة عزيزتي سوزان المسكينة، كانت امرأة لا مثيل لها!»

ليلًا كانت تحاول بذل قصارى جهدها، لكنَّ أداءها كان ضعيفًا وتعوزه الثقة. فبعدما كانت توبِّخه نحو ثلاثة أرباع ساعة، كانت تستلقي على المخدة وتستعد للنوم. لكنه كان يهز كتفها برفق.

كان يقول لها: «واصلي حديثك يا عزيزتي، كنتِ تقولين إنني لم أرفع عينيَّ من على جاين طوال الغداء.»»

واختتم صديقي حديثه مشعلًا سيجارًا جديدًا بقوله: «مدهش كم نحن أسرى لعاداتنا.»

علَّقت قائلًا: «مدهش فعلًا. أعرف رجلًا اعتاد سرد قصص صعبة التصديق حتى جاء اليوم الذي حكى فيه قصة حقيقية فلم يصدِّقها أحد.»

قال صديقي: «تلك قصة حزينة جدًّا.»

عندئذٍ، قال الرجل ذو السمت المتواضع الجالس في ركن الغرفة: «على سيرة العادات. لديَّ قصة حقيقية أراهن بآخر دولار معي أنكما لن تصدِّقاها.»

ردَّ صديقي الذي كان يهوى المقامرة: «لا أملك دولارات لكني أراهنك بعشرة شلنات أنني سأصدِّقها. مَن سيحكم بيننا؟»

قال الرجل المتواضع: «سأثق بكلمتك»، ثم شرع في سرد قصته على الفور.

«الرجل الذي سأحدِّثكم عنه من مدينة جيفرسون. ولد بها ولم ينَم ليلة واحدة خارجها طوال سبعة وأربعين عامًا. كان رجلًا محترمًا ووقورًا، تاجر أصباغ من الساعة التاسعة

حتى الرابعة، وكان مسيحيًّا ملتزمًا بعقيدة الكنيسة المشيخية في باقي يومه. كان يقول إن العادات الجيدة هي ضمان الحياة الجيدة. كان يستيقظ في السابعة، ويصلِّي مع عائلته في السابعة والنصف، ثم يتناول إفطاره في الثامنة، ويذهب إلى محل عمله في التاسعة. وفي الساعة الرابعة عصرًا، يطلب إحضار حصانه إلى المكتب، ويمتطيه لمدة ساعة، ثم يعود إلى منزله في الخامسة، فيستحم ويحتسي كوبًا من الشاي، ويقضي بعض الوقت في اللعب مع الأطفال والقراءة لهم (كان رجلًا محبًّا للحياة الأسرية) حتى السادسة والنصف، وفي السابعة كان يرتدي ملابسه ويتناول وجبة العشاء، بعد ذلك كان يذهب إلى النادي ويلعب الويست حتى الساعة العاشرة والربع، وحينها يعود لمنزله مجددًا ويصلي صلاة المساء في العاشرة والنصف، وفي الحادية عشرة يكون مستلقيًا في سريره. طوال خمسة وعشرين عامًا، عاش تلك الحياة دون أدنى تغيير. وأضحى هذا النظام جزءًا لا يتجزأ من ذاته، بل صار نمطًا تلقائيًّا. كانت الكنيسة تضبط ساعتها عليه. وكان علماء الفلك المحليون ينظرون إليه كي يتأكدوا من موضع الشمس.

ظلَّ هكذا حتى تُوفي قريبٌ له بعيدًا في لندن، كان هذا القريب يعمل تاجرًا في شرق الهند وشغل سابقًا منصب عمدة المدينة، وأوصى لبطلنا بتركته وكلَّفه بتنفيذ الوصية. اكتشف الرجل أن التجارة التي أضحى مسئولًا عنها معقَّدة وتحتاج إلى إدارة. ومن ثَم قرَّر أن يكلف ابنه من زوجته السابقة، الذي كان شابًّا في الرابعة والعشرين من عمره، بتولِّي أعماله في مدينة جيفرسون، وارتحل مع زوجته الثانية وأطفالهما إلى إنجلترا كي يشرف على التجارة في شرق الهند.

وهكذا ارتحل من مدينة جيفرسون في الرابع من أكتوبر، ووصل لندن في السابع عشر من الشهر نفسه. كان قد أمضى الرحلة كلها مريضًا، ووصل إلى المنزل الذي استأجره بمنطقة بايزواتر في حالة يُرثى لها. لكنه استعاد صحته بعدما ارتاح لبضعة أيام في السرير، وفي مساء يوم الأربعاء أعلن عن نيته الذهاب إلى المدينة صباح الغد لتفقُّد أعماله.

في صباح يوم الخميس، استيقظ في الساعة الواحدة ظهرًا. أخبرته زوجته أنها لم ترغب في إزعاجه؛ إذ ظنَّت أن النوم سوف يفيده. أقرَّ بأن كلامها قد يكون صحيحًا، فهو يشعر بأنه في حالة جيدة، ونهض ثم شرع في ارتداء ملابسه. فيما بعد قال إنه لا يحبِّذ بدء أول يوم له في العمل بإهمال واجباته الدينية، ووافقته زوجته، ومن ثَم جمعا الخدم والأطفال في غرفة الطعام، وأقاموا صلاةً جماعية في الواحدة والنصف ظهرًا. بعد ذلك تناول إفطاره وانطلق نحو المدينة وبلغ وجهته في الساعة الثالثة ظهرًا تقريبًا.

كان الموظفون قد سمعوا عن دقة مواعيده، ومن ثَم فوجئوا جميعًا عندما وصل متأخرًا. بَيْد أنه شرح لهم الظروف، ورتَّب مواعيده كي تبدأ من الغد في الساعة التاسعة والنصف.

ظلَّ في المكتب حتى وقت متأخر، ثم عاد إلى منزله. ولم يستطِع أن يأكل في وجبة العشاء — التي عادةً ما تكون الوجبة الرئيسية — سوى قطعة من البسكويت وبعض الفاكهة. وعزا فقدان الشهية هذا إلى أنه لم يقُم بجولته المعتادة على ظَهر حصانه. وطوال المساء، كان يشعر بقلق غريب، ثم ذكر أن ميعاد لعبة الويست قد فات، وعزم على البحث دون تأخير في المنطقة المحيطة عن نادٍ هادئ ومحترم. في الحادية عشرة مساءً أوى إلى سريره برفقه زوجته، لكنه عجز عن النوم. شرع يتقلَّب يمينًا ويسارًا، لكنه ازداد تيقُّظًا ونشاطًا. وبعد منتصف الليل بقليل، شعر برغبة عارمة في الذهاب إلى غرفة الأطفال كي يتمنى لهم ليلة طيبة. انسلَّ من السرير برداء النوم، وتسلَّل إلى الغرفة غير أنه أيقظهم عندما فتح الباب، وسرَّه ذلك. جلس على طرف السرير ولفَّ لحافًا حولهم وأخذ يحكي لهم قصصًا ذات مغزًى أخلاقي حتى الساعة الواحدة صباحًا.

بعد ذلك قبَّلهم وطلب منهم أن يكونوا أطفالًا مهذَّبين ويخلدوا للنوم؛ بعد ذلك قرصه الجوع، فنزل السلالم حتى بلغ المطبخ في الجزء الخلفي من المنزل، وهناك تناول وجبة ثقيلة مكوَّنة من فطيرة لحم باردة وبعض الخيار.

عاد إلى السرير شاعرًا بمزيد من الهدوء والاطمئنان، لكنه ظلَّ عاجزًا عن النوم، فأخذ يفكِّر في شئون العمل حتى الساعة الخامسة، وحينئذٍ غلبه النعاس.

استيقظ في تمام الواحدة ظهرًا. وأخبرته زوجته أنها حاولت إيقاظه بكل ما في وسعها دون جدوى. كان الرجل متكدرًا ومغتاظًا. ولو لم يكن رجلًا صالحًا، لتلفَّظَ بشتائم. هكذا تكرَّر ما حدث يوم الخميس، ووصل إلى المدينة في الساعة الثالثة.

استمرَّ الحال على هذا المنوال طوال شهر. خاض خلاله الرجل صراعًا مع نفسه، لكنه عجز عن تغيير وضعه. كان يستيقظ صباحًا، أو ظهرًا بالأحرى، في الساعة الواحدة. وكان يتسلَّل في كل ليلة إلى المطبخ باحثًا عن طعام. وكان ينام كل صباح في الساعة الخامسة.

لم يستطِع فَهْم ما يحدث له، ولم يستطِع أحد تفسير ما أصابه. أعطاه الأطباء أدوية لعلاج استسقاء الرأس، وانعدام المسئولية الناجم عن التنويم المغناطيسي، والخبل الوراثي. وفي غضون ذلك، تأثَّرَت أعماله سلبًا، وساءت حالته الصحية. كان يعيش حياته بالمقلوب. بدَت أيامه بلا بداية أو نهاية، بل اقتصرت على المنتصف فحسب. لم يجد وقتًا لممارسة

الرياضة أو الترويح عن نفسه. فعندما يكون في حالة معنوية جيدة ويشعر بالرغبة في الاختلاط بالناس يكون الجميع نائمين.

وفي أحد الأيام اكتشف بالصدفة البحتة تفسيرًا لحالته. كانت كبرى بناته تؤدي واجباتها الدراسية بعد العشاء، عندما رفعت بصرها عن كتاب الجغرافيا وتساءلت: «كم الساعة الآن في مدينة نيويورك؟»

قال أبوها ناظرًا إلى ساعته: «نيويورك ... فلنرَ، الساعة الآن العاشرة مساءً تقريبًا، وبحساب فرق التوقيت الذي يزيد قليلًا على أربع ساعات ونصف، تكون الساعة في نيويورك الخامسة والنصف عصرًا على وجه التقريب.»

حينئذٍ قالت الأم: «الوقت أبكَر من ذلك في جيفرسون، أليس كذلك؟»

نظرت الفتاة إلى الخريطة ثم أجابت: «بلى، تبعد جيفرسون عن نيويورك درجتين تقريبًا في اتجاه الغرب.»

قال الأب متأملًا: «درجتين ... كل درجة تعادل أربعين دقيقة. ما يعني أن الساعة الآن في جيفرسون ...»

عندئذٍ قفز واقفًا فجأةً وصاح: «وجدتها! الآن فهمت.»

تساءلت زوجته في فزع: «فهمتَ ماذا؟»

رد قائلًا: «الساعة الآن الرابعة عصرًا في جيفرسون، موعد نزهتي اليومية بالحصان. هذا ما أحتاج إلى فعله.»

كان هذا التفسير صحيحًا دون شك. فطوال خمسة وعشرين عامًا كانت حياته تسير بنظام زمني دقيق؛ نظام مضبوط على توقيت مدينة جيفرسون، لا توقيت لندن. لقد غيَّر موقعه، لكنه لم يغيِّر نفسه. والعادات التي الْتَزم بها على مدار ربع قرن يستحيل تبديلها بمجرد تبدُّل التوقيت.

درس بطلنا المشكلة من أوجهها كافةً، وقرَّر أن الحل الوحيد هو أن يعود إلى نظام حياته القديمة. كان يدرك الصعوبات التي ينطوي عليها هذا الحل، لكنها لم تكُن تضاهي المتاعب التي يعاني منها حاليًّا. كان أسير عاداته إلى حدٍّ منَعَه من التأقلُم مع الظروف. ومن ثَم لا بد أن تتأقلم الظروف معه.

عدَّل مواعيد العمل كي تصير من الساعة الثالثة عصرًا حتى العاشرة مساءً، وكان يغادر في التاسعة والنصف. وفي العاشرة مساءً كان يمتطي حصانه، ويعدو به في طريق روتن رو، وفي الليالي الشديدة الظلام كان يحمل معه مصباحًا. ذاعت أخبار نزهته تلك، وتجمَّعَت حشود من الناس لمشاهدته يمرُّ أمامهم ممتطيًا حصانه.

كان يتناول عشاءه في الواحدة صباحًا، ثم يتمشى حتى النادي. حاول في البداية إيجاد نادٍ هادئ حسَن السمعة، يرحِّب أعضاؤه بلعب الويست حتى الرابعة صباحًا، لكنه لم ينجح في مسعاه، ومن ثَم اضطر إلى التردُّد على نادي قمار صغير ووضيع في سوهو، حيث علَّمه الرواد لعب البوكر. كانت الشرطة تداهم النادي دوريًّا، لكن مظهره المحترم ساعده في أغلب الأحيان على الإفلات من الاعتقال.

في الرابعة والنصف صباحًا كان يعود إلى المنزل ويوقظ عائلته كي يؤدوا معًا صلاة المساء. وفي الخامسة صباحًا كان يأوي إلى فراشه وينام ملء جفنَيه. كان الموظفون في المدينة يمازحونه حول نظامه العجيب، ولم يرضَ سكان حي بايزواتر عن تصرُّفاته، لكن ذلك لم يهمه. الأمر الوحيد الذي كان يزعجه هو عجزه عن حضور قدَّاس المناولة في الكنيسة. ففي الساعة الخامسة عصرًا بأيام الآحاد كان يشعر برغبة في الذهاب إلى الكنيسة، لكنه اضطر إلى الاستغناء عن هذا النشاط. وفي الساعة السابعة مساءً، كان يأكل وجبة خفيفة، وفي الحادية عشرة كان يحتسي الشاي ويتناول الكعك، وفي منتصف الليل كان يشتاق مجددًا إلى الأناشيد والعظات الدينية. وفي الثالثة صباحًا كان يتناول عشاءً من الخبز والجبن، ثم يأوي مبكرًا إلى فراشه في الرابعة صباحًا، شاعرًا بالحزن وعدم الرضا.

كما ترون، لقد كان أسير العادة بكل ما تحمله الكلمة من معنًى.»

أنهى الغريب ذو السمت المتواضع حديثه، وجلسنا نحدِّق صامتين في السقف.

وأخيرًا، نهض صديقي، وأخرج عشر شلنات من جيبه، ووضعها على الطاولة، وبعدما وضع ذراعه في ذراعي خرجنا إلى شرفة النادي.

صاحِبُ الذهن الشارد

دعوته لتناوُل العشاء في بيتي يوم الخميس، كي يلتقي بعض الأصدقاء الذين يتوقون للتعرف عليه.

قلت له في البداية، متذكرًا مواقفه السابقة: «حذارِ أن يختلط عليك الموعد، فتأتي يوم الأربعاء.»

ضحك بمودة ظاهرة وهو يبحث في أرجاء الغرفة عن مفكرته، ثم رد قائلًا: «لن أستطيع المجيء يوم الأربعاء، سأكون في مانشن هاوس، أرسم مخططات أولية لفساتين الحضور. ثم سأسافر إلى اسكتلندا يوم الجمعة، كي أحضر افتتاح المعرض الفني هناك يوم السبت. سوف آتي قطعًا هذه المرَّة. أين ذهبت تلك المفكرة بحق الجحيم؟ لا يهم، سوف أدوِّن الموعد هنا؛ ها أنا ذا أكتبه أمامك.»

راقبته وهو يسجل الموعد، يوم الخميس، على ورقة كبيرة، ثم شاهدته يثبتها بدبوس على مكتبه. فغادرته شاعرًا بالرضا.

في مساء الخميس حدثت زوجتي بينما أرتدي ملابسي قائلًا: «ليته يأتي حقًّا».

سألتني في تشكُّك: «هل أنت متأكد من أنك ذكرت له الموعد بوضوح؟» فأنبأني حدسي أنه أيًّا كان ما سيحدث الليلة، فسوف تلومني عليه في النهاية.

حلَّت الساعة الثامنة، ومعها حلَّ الضيوف على المنزل. وفي الثامنة والنصف، استدعت الخادمة زوجتي من غرفة الاستقبال دون أن تذكر السبب، ثم أبلغتها بأن الطباخة قد عقدت العزم على أن تنفض يدَيها من مسألة الإشراف على العشاء، إذا تأخر تقديمه أكثر من ذلك.

عادت زوجتي وأخبرتنا أنه من المستحسن بدء العشاء الآن إذا كنا نرغب في تناول أي طعام الليلة. وبدا جليًّا أنها تفكر في أني كنت أخادعها متظاهرًا بأنه سيأتي، ولو كنت رجلًا حقيقيًّا كنت اعترفت صراحةً منذ البداية بأنني نسيت دعوته.

بينما نتناول أطباق الحساء والسمك، شرعتُ أروي قصصًا طريفة تشهد على عدم دقة مواعيده. وعندما شرع الخدم في تقديم الطبق الرئيسي، بدأ الكرسي الفارغ يشع جوًّا من الكآبة، وبوصول طبق اللحم المشوي كانت دفة الحديث قد تحوَّلَت إلى ذكر الأقارب المتوفين.

وفي يوم الجمعة، في الساعة الثامنة والربع، كان يحث الخطا نحو باب المنزل ثم أخذ يضرب الجرس بإلحاح. وعندما سمعت صوته في الردهة، نزلت للقائه.

صاح مبتهجًا: «آسف على التأخير. سائق الأجرة الأحمق أوصلني إلى شارع ألفريد بلايس بدلًا من …»

قاطعته قائلًا: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟»، لم أشعر برغبة في الترفُّق به، فهو صديق قديم ويمكنني معاملته بوقاحة.

ضحك وضربني بكفه على كتفي قائلًا: «ما هذا الكلام العجيب! جئت لتناول العشاء بالطبع، إني أتضوَّر جوعًا.»

رددتُ بخشونة: «إذَن فلتبحث عن مكان آخر لتأكل فيه، فلا يوجد عشاء لك هنا.»

قال: «ماذا تقصد بقولك هذا؟ أنت دعوتني لتناوُل العشاء.»

أخبرته بأنني لم أفعل شيئًا من هذا القبيل، مضيفًا: «لقد دعوتك على العشاء يوم الخميس، لا الجمعة.»

حدَّقَ فيَّ غير مصدِّق، ثم تساءل: «كيف ترسَّخ في ذاكرتي أن الموعد الجمعة؟»

أجبته قائلًا: «لأن ذاكرتك من النوع الذي يترسَّخ به أن الموعد يوم الجمعة عندما يكون الخميس.» ثم أضفت: «كنت أظن أنك ستسافر الليلة إلى إدنبرة.»

فصاح: «يا إلهي! لا بد أن أسافر اليوم بالفعل.»

ودون أن ينطق بكلمة أخرى، أسرع خارجًا، واندفع نحو الطريق مناديًا على سيارة الأجرة التي صرفها لتوِّه.

عدت إلى حجرة المكتب وفكرت في أنه سوف يقطع الطريق كله حتى اسكتلندا مرتديًا ثياب السهرة، وسيضطر إلى إرسال ساعي الفندق في الصباح كي يبتاع له بذلة جاهزة. وسرَّني هذا.

أما عندما يكون هو المضيف، تسير الأمور على نحو أغرب. أتذكَّر أنني زُرته يومًا في منزله العائم. كانت الساعة تجاوزت الثانية عشرة ظهرًا بقليل، وكنا نجلس على حافة القارب، الراسي في بقعة منعزلة بين بلدة والنجفورد وهويس دايز لوك، وأقدامنا متدلية في النهر. فجأةً ظهر عند منعطف في النهر مركبان شراعيان على متن كلٍّ منهما ستة أشخاص في كامل أناقتهم. وما إن لمحونا حتى شرعوا يلوحون لنا بالمناديل والشماسي.

لوَّحتُ لهم قائلًا: «أهلًا»، ثم قلت له: «انظر هناك أشخاص يلوِّحون لك.»

ردَّ دون أن ينظر: «جميع الناس يلوِّحون لبعض في هذه النواحي، هم على الأرجح أناس من بلدة أبنجدون يحتفلون على ظهر قارب.»

اقترب المركبان أكثر. وما إن صارا على بعد مائتي ياردة من قاربنا نهض رجل كبير السن من مقعده في مقدمه القارب وصاح مناديًا علينا.

سمع ماكواي صوته فجفل حتى كاد يسقط في الماء ثم صاح: «يا إلهي، لقد نسيت كل شيء عن هذا الأمر.»

سألته: «أي أمر؟»

أجابني قائلًا: «إنهم عائلات بالمرز وجراهام وهندرسون. كنت قد دعوتهم جميعًا على الغداء. لا يوجد على متن القارب سوى شريحتَي لحم ضأن ونصف كيلوجرام من البطاطس. وقد أعطيت الخادم إجازة اليوم.»

وفي يوم آخر، كنت أتناول طعام الغداء معه في نادي جونيور هوجارث، حين مرَّ بجوارنا رجل يُدعى هاليارد، وهو صديق مشترك.

جلس هاليارد أمامنا على الطاولة ثم سألنا: «ماذا ستفعلون عصر اليوم؟»

رددت: «سوف أبقى هنا لكتابة بعض الخطابات.»

أما ماكواي فرد قائلًا: «تعالَ معي إذا لم يكن لديك شيء تفعله. سوف أصطحب لينا بالسيارة إلى ريتشموند. لدينا متسع لك في المقعد الخلفي.» (و«لينا» كانت المرأة الشابة التي تذكر ماكواي أنها خطيبته. واتضح بعد ذلك أنه قد خطب ثلاث فتيات أخريات في الفترة نفسها. لكنه نسي كل شيء عن الفتاتَين الأخريَين.)

رد هاليارد: «حسنًا إذَن»، وانطلقا معًا في عربة يجرُّها حصان.

وبعد ساعة ونصف، دلف هاليارد إلى غرفة التدخين بالنادي ثم ألقى بنفسه على أحد الكراسي، وبدا متعبًا وكاسف البال.

سألته: «ألم تذهب إلى ريتشموند مع ماكواي؟»

رد: «ذهبت بالفعل.»

سألته: «هل تعرَّضتم لحادث سيارة؟»

أجابني: «نعم.»

كانت ردوده مقتضبة. فسألته مجددًا: «هل تضرَّرَت السيارة؟»

قال: «لا لم تتضرَّر، أنا فقط مَن تضرَّر.»

بدا أنه تعرَّض لصدمة كان لها تأثير بالِغ الشدة على أعصابه وملكته اللغوية. انتظرت أن يوضِّح لي الأمر، وبعد برهة، حكى لي ما حدث.

قال: «كنا قد بلغنا حي بوتني، بعدما كِدنا نصطدم بعربة ترام، وبدأنا نصعد الطريق المنحدر عندئذٍ لقي ماكواي منعطفًا في الطريق فاستدار فجأةً بالسيارة. وأنت تعلم أسلوبه في التعامل مع المنعطفات، فهو عادةً ما يصعد بالسيارة على حافة الرصيف في الجهة المقابلة من الطريق ثم يرتطم بعمود الإنارة. وبالطبع كنت مستعدًّا لمواجهة تلك المواقف، لكني لم أتوقَّع قطُّ أن ينعطف بالسيارة في هذه اللحظة، كل ما أتذكَّره بعد ذلك أنني وجدتُ نفسي جالسًا في منتصف الطريق محاطًا بمجموعة من الحمقى يحدِّقون فيَّ بابتسامات عريضة.

ومن الطبيعي أنني احتجت إلى بعض الوقت كي أدرك أين أنا وماذا حدث، وعندما نهضت كان ماكواي ولينا قد ابتعدا مسافة لا بأس بها بالسيارة. ركضت خلفهما نحو خمسمائة متر وأنا أصيح بأعلى صوتي، ورافقتني جماعة من الصبية، جميعهم يصيحون مثل المجانين، واليوم عطلة. لكن لا حياة لِمَن تُنادي. فركبت الحافلة راجعًا.»

ثم أضاف قائلًا: «لو كانا يتمتَّعان بأدنى قَدْر من التمييز كانا سيخمنا ما حدث بفعل تغير وزن المقعد الخلفي، فأنا لست خفيف الوزن.»[1]

أخذ يشتكي من آلام بجسده وأعلن أنه سيعود إلى البيت. اقترحت عليه أن يستقل سيارة أجرة، لكنه رد بأنه يفضِّل المشي.

وفي المساء، لقيت ماكواي في مسرح سانت جيمس. كانت ليلة افتتاح أحد العروض المسرحية وكان يرسم لوحات لصالح جريدة «ذا جرافيك» المصورة. ما إن رآني حتى شق

[1] السيارة المُشار إليها سيارة بدائية من أوائل السيارات المبتكرة وقتها، والتي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، وهي تشبه إلى حدٍّ كبير العربات التي تجرها الخيل، أي تشتمل على مقعد خلفي مكشوف يسع شخصين.

طريقه بين الجموع متجهًا نحوي، ثم قال: «صديقي، كنت أود رؤيتك، هل اصطحبت هاليارد معي في المقعد الخلفي إلى ريتشموند عصر هذا اليوم؟»

أجبته: «نعم، اصطحبته معك.»

رد في حيرة بالغة: «هذا ما تقوله لينا. لكني أقسم أنه لم يكن بالسيارة عندما بلغنا فندق كوينز.»

قلت له: «هذا صحيح؛ لأنك أنزلته في حي بوتني.»

كرر ورائي: «أنزلته في بوتني! لا أتذكر أنني فعلت ذلك مطلقًا.» رددت: «هو يتذكَّر. سَلْه. سوف يحكي لك كل شيء.»

ظنَّ الجميع أنه لن يتزوج أبدًا؛ فمن غير المعقول أن يتذكر تفاصيل مثل تاريخ الزفاف، ومكان الكنيسة، واسم العروس كلها في صباح يوم واحد. وإذا تمكَّن بالفعل من الوصول إلى مذبح الكنيسة فسوف ينسى لماذا جاء، وسوف يزوج العروس إلى إشبينه. كان هاليارد يظن أنه متزوج بالفعل، لكن هذا الحدث انمحى من ذاكرته. وأنا نفسي كنت متأكدًا من أنه لو تزوَّج بالفعل، فسوف ينسى كل شيء عن هذا الأمر في اليوم التالي.

لكننا كنا جميعًا مخطئين. وبمعجزةٍ ما تمَّت مراسم زواجه، ما قد يفضي إلى متاعب لاحقة إذا اتضح أن هاليارد كان محقًّا في ظنه (المبرر كليًّا). أما فيما يتعلَّق بمخاوفي، فقد طردتها جانبًا في اللحظة التي رأيت فيها العروس؛ إذ كانت امرأة شابة ساحرة ذات وجه باشٍّ، ولم تبدُ من النساء اللاتي قد يعطينه فرصة كي ينسى كل شيء عنها.

لم ألقَه منذ زواجه، الذي تم في الربيع. وبينما كنتُ عائدًا من رحلة إلى اسكتلندا، قرَّرتُ التوقف لبضعة أيام في بلدة سكاربو، بما أنني لم أكُن في عجلة من أمري. وبعدما تناولت وجبة متعدِّدة الأطباق في أحد المطاعم، ارتديت معطفي الواقي من المطر وخرجت في نزهة على الأقدام. كانت تمطر بغزارة، لكن المرء بعد أن يقضي شهرًا في اسكتلندا لا يهتم كثيرًا بتقلُّبات الطقس في إنجلترا، فضلًا عن أني كنت أرغب في تنشُّق بعض الهواء النقي. وبينما كنت أسير بصعوبة على الشاطئ المظلم والرياح تضرب رأسي، تعثرت في جسد شخص جاثم يحاول الاحتماء من العاصفة تحت جدار أحد المنتجعات.

توقعت أن يشتمني، لكنه بدا بائسًا إلى درجة جعلته لا يكترث لأي شيء.

قلت له: «معذرة، لم أرَك.»

هبَّ على قدمَيه ما إن سمع صوتي، وصاح قائلًا: «أهذا أنت؟ يا صديقي؟»

هتفتُ متعجِّبًا: «ماكواي!»

قال: «يا ألله! لم أسعد قطُّ لرؤية إنسان في حياتي مثلما سعدت لرؤيتك.» وكاد يخلع يدي وهو يصافحني.

قلت: «ماذا تفعل هنا بحق السماء! إنك مبلَّل حتى النخاع!»

كان يرتدي قميصًا وبنطالًا خفيفًا، وسترة رياضية.

ردَّ قائلًا: «أجل، لم أتوقَّع هطول الأمطار على الإطلاق، كان الطقس صحوًا في الصباح.»

بدأت أشك في أنه قد أجهد نفسه حتى أصيب بحُمَّى دماغية.

سألته: «لمَ لا تعود إلى بيتك؟»

ردَّ قائلًا: «لا أستطيع، لا أعرف أين أقيم، لقد نسيت العنوان.»

ثم استطرد: «أتوسَّل إليك، خذني معك إلى أي مكان وابتع لي أي طعام آكله، إني أتضوَّر جوعًا.»

سألته ونحن في طريقنا إلى الفندق: «أليس معك نقود؟»

أجابني: «ولا بنس واحد. وصلنا هنا، أنا وزوجتي، على متن القطار القادم من يورك في الساعة الحادية عشرة تقريبًا. تركنا أمتعتنا في المحطة ثم بدأنا نبحث عن شقة. وما إن استقررنا بواحدة، غيرت ملابسي وخرجت في نزهة على الأقدام بعدما أخبرت مود أنني سأرجع على موعد الغداء. لكني تصرفت بحماقة، ولم أدوِّن العنوان ولم ألحَظ الطريق الذي سرت فيه.»

ثم تابع قائلًا: «الوضع في غاية السوء، لا أدري كيف سأتمكَّن من العثور عليها. كنت آمل أن تقرِّر الذهاب إلى المنتجع في المساء؛ لذا مكثت عند البوابة منذ الساعة السادسة، لكني لم أملك ثلاثة بنسات لدفع رسم الدخول.»

سألته: «هل تذكر أي شيء عن الشارع أو عن شكل المنزل الذي استأجرته؟»

أجاب بقوله: «لا أذكر شيئًا البتَّة. لم أهتم بالتفاصيل وتركت جميع الترتيبات لمود.»

سألته مجددًا: «هل جرَّبتَ الذهاب إلى أيٍّ من النُّزُل في المدينة؟»

رد بمرارة: «جربت! لقد قضيت ما بعد الظهيرة بأكملها أطرق الأبواب سائلًا هل السيدة ماكواي تعيش هنا، والجميع أغلق الباب في وجهي وأغلبهم لم يردوا حتى على سؤالي. لجأت إلى شرطي، ظانًّا أنه قد يقترح عليَّ حلًّا، لكن الأحمق انفجر في الضحك فأثار غضبي إلى حدٍّ دفعني إلى لكمه في وجهه، واضطررت إلى الهرب سريعًا. أظن أنهم يبحثون عني الآن.»

ثم تابع بحزن: «ذهبت إلى مطعم، وحاولت إقناعهم بأن يثقوا بي ويعطوني شريحة من اللحم. لكن صاحبة المطعم قالت إنها سمعت تلك الحكاية من قبل، وطردتني على مرأى ومسمع من باقي روَّاد المطعم. أعتقد أني كنت سأُلقي بنفسي في البحر لو لم ألقَك صدفة.»

اصطحبته معي، وبعد أن بدَّل ملابسه وتناول طعام العشاء، أضحى قادرًا على مناقشة المسألة بهدوء أكبر، واتضح أن مشكلته عويصة فعلًا. فقد أغلق هو وزوجته شقتهما، وأقارب زوجته مسافرون خارج البلاد. لا يوجد شخص يمكن أن يرسل خطابًا إليه طالبًا منه أن يعيد إرسال الخطاب إلى زوجته؛ إذ لا يوجد شخص مُعيَّن يُرجَّح أن تتواصل معه. وهكذا بدا من المستبعد أن يلتقيا ثانيةً في هذا العالم.

لم يبدُ لي أيضًا أنه يتطلَّع إلى هذا اللقاء بترقُّب مسرور، على الرغم من غرامه بها، وتَوْقه المؤكد إلى استعادتها.

فبينما كان يجلس على حافة السرير ويخلع جوربه مستغرقًا في أفكاره، كان يهمهم: «سوف تستغرب هذا الموقف. سوف تستغرب الأمر كله دون شك.»

في اليوم التالي، الذي كان يوم أربعاء، ذهبنا إلى محامٍ، وشرحنا له المسألة، فشرع في إرسال خطابات استعلام إلى جميع مالكي النُّزُل في مدينة سكاربو، ما أفضى إلى إعادة ماكواي إلى بيته ولمِّ شمله بزوجته في عصر يوم الخميس (مثلما يحدث لأبطال المسرحيات، التي تعرض على مسرح ديلفي، في الفصل الأخير).

وعندما لقيته مجددًا، سألته عن رد فعل زوجته.

وكان رده: «ما توقعته منها إلى حدٍّ كبير.»

لكنه لم يخبرني قطُّ بما كان يتوقعه.

امرأة فاتنة

«حقًّا، أأنت السيد ...؟»

قالت عبارتها وفي عينَيها البُنِّيتَين العميقتَين تبدَّت دهشة يُخالطها سرور وينازعها تعجُّب، ثم حوَّلت بصرها إلى الصديق الذي قدَّمني إليها وعلى وجهها ابتسامة خلابة تنمُّ عن عدم تصديق يشوبه بعض الأمل.

أكَّد لها صديقي ضاحكًا: «هو السيد ... بشحمه ولحمه»، ثم تركنا وانصرف.

أطلقت ضحكة صغيرة لطيفة قائلةً: «لطالما ظننتُ أنك رجل وقور في منتصف العمر»، ثم أضافت بصوت ناعم خفيض: «سعيدة جدًّا بلقائك».

كانت كلماتها عادية لكن صوتها تسلَّل إلى قلبي مثل لمسة ناعمة.

قالت وهي تجلس على أريكة صغيرة وتفسح لي مكانًا جوارها: «اجلس وتحدث معي».

جلست بجانبها شاعرًا بإحراج، وببعض الدوار، كما لو كنت قد أفرطت في احتساء الشامبانيا. كنت في مستهل مساري الأدبي، فلم أكُن قد نشرت سوى كتاب صغير وبضعة مقالات وآراء نقدية في دوريات متفرِّقة مغمورة. لذا عندما اكتشفت فجأةً أنني السيد فلان، وأني قد خطرت ببال تلك المرأة الفاتنة التي سرَّها التعرُّف عليَّ، اضطرب فكري.

تابعت حديثها قائلةً: «أنت إذَن مَن ألَّفتَ ذاك الكتاب العميق، وتلك الكتابات البارعة في المجلات والدوريات. حقًّا، ما أروع أن يكون المرء ذكيًّا!»

ثم أطلقت تنهيدة صغيرة آسفة مسَّت شغاف قلبي. وكي أواسيها، استجمعت طاقتي وشرعت أثني عليها لكنها أوقفتني بمروحتها. وسرَّني أنها فعلت ذلك؛ إذ أدركت، بعد تفكير، أنه كان من الأفضل التعبير عن إعجابي بعبارات مختلفة.

ضحكت قائلة: «أعرف ما ستقوله، لا داعي. فضلًا عن أني لا أعرف كيف أتقبَّل المجاملات من كاتب ساخر مثلك.» حاولت أن أبدو كما لو أني عادةً ما ألجأ إلى السخرية، لكن في حالتها لا يمكن أن أفعل ذلك.

تركت يدًا لا يغطيها القفاز تستقر على يدي للحظة. ولو كانت تركتها للحظتَين كنت سأركع على ركبتي أمامها، أو كنت سأقف على رأسي عند قدمَيها؛ أي كنت سأجعل من نفسي أضحوكة بطريقة أو بأخرى وسط غرفة تعج بالناس. لكنها ضبطت التوقيت بحيث تعبر لمستها عن مجاملة لطيفة لا أكثر.

ثم تابعت: «لا أريد منك أن تثني عليَّ. أريد أن نصبح أصدقاء. بالطبع أنا أكبرك سنًّا، ربما أكون في عمر والدتك.» (خمَّنتُ من طريقة حديثها أنها في الثانية والثلاثين من العمر، لكنها بدَت في السادسة والعشرين. وكنت أنا في الثالثة والعشرين، ويؤسفني أنني كنت أكثر حماقة مما يفترض في هذه السن.) وأردفت: «لكنك واسع الاطلاع، وتختلف عمَّن ألقى من الناس. إن المجتمع الراقي أجوف ومصطنع، ألا ترى ذلك؟ لا تتصوَّر كم أتوق إلى الهرب منه، كم أتوق إلى التعرُّف على شخص يمكنني التصرف معه على طبيعتي، شخص يفهمني. تعالَ لزيارتي، دائمًا ما أكون في البيت أيام الأربعاء. أعطِني فرصة للتحدُّث معك، ما رأيك؟ حينئذٍ يمكنك أن تخبرني بجميع الأفكار الذكية التي تدور في عقلك.»

خطر لي أنها ربما تودُّ الاستماع إلى بضع أفكار ذكية في التو واللحظة، لكن قبل أن أشرع في التعبير عن تلك الأفكار أتى أحد رجال المجتمع الراقي الأجوف وأعلن أن العشاء جاهز، فاضطرت إلى مغادرتي. وبينما كانت تختفي عن ناظري وسط الجموع، أدارت رأسها ناظرة إليَّ، نظرة تمزج بين السخرية والرثاء للذات فهمت القصد منها. كانت نظرتها تقول: «فلتشفق عليَّ، يجب أن أدع هذا الكائن السطحي التافه يملني بحديثه»، وقد أثارت شفقتي بالفعل.

بحثت عنها في جميع غرف المنزل قبل أن أغادر الحفل. كنت أرغب في التأكيد على تعاطُفي معها ودعمي لها. لكني علمت من رئيس الخدم أنها غادرت مبكرًا، بصحبة ذاك الرجل الأرستقراطي الأجوف.

بعد أسبوعَين، لقيت في شارع ريجينت أديبًا شابًّا من أصدقائي، وتناولنا طعام الغداء معًا في مقهى مونيكو.

قال لي: «لقيت امرأة فاتنة ليلة أمس، السيدة كليفتون كورتيناي، امرأة لطيفة حقًّا.»

هتفت: «حقًّا، هل تعرفها؟ أنا وهي أصدقاء قدامى. دائمًا ما تلح عليَّ كي أزورها. ينبغي لي زيارتها قريبًا.»

رد قائلًا: «لم أكُن أعلم أنك تعرفها.» بدا، بطريقة ما، أن معرفتي بها قلَّلت من أهميتها في عينَيه. لكنه سرعان ما استعاد حماسه لها.

فتابع حديثه: «امرأة ذكية جدًّا.» ثم أضاف: «أخشى أنني قد خيَّبتُ أملها بعض الشيء» بَيْد أنه نطق عبارته تلك بضحكة لا توحي بخيبة الأمل، ثم تابع: «فهي لم تصدِّق أنني الأستاذ سميث. بل تخيَّلت من كتابي أنني رجل متقدم في العمر.»

عن نفسي لم ألحظ شيئًا في هذا الكتاب يوحي بأن عمر مؤلفه يتعدى الثامنة عشرة. وبدا لي أن خطأها هذا ينم عن افتقار إلى الفطنة، لكن من الواضح أن هذا الخطأ سَرَّ صديقي أيَّما سرور.

واصل حديثه قائلًا: «أشفقت عليها كثيرًا. إنها سجينة في هذا المجتمع الزائف عديم الروح الذي تحيا فيه. حدثتني قائلة: «لا تتصوَّر كم أتوق إلى لقاء شخص أكون معه على طبيعتي؛ شخص يفهمني». سوف أذهب لزيارتها يوم الأربعاء.»

ذهبت معه. وتحدثت معها، ولم تكُن محادثتنا على انفراد كما توقَّعت؛ إذ كان حاضرًا بالغرفة، المؤهلة لاستيعاب ثمانية أشخاص، نحو ثمانين فردًا. لكنني شرعت أشق طريقي بين الجموع بلا هدف طوال ساعة، شاعرًا بالحر والتعاسة، كما يحدث عادةً للشبان في تلك التجمعات التي لا يعرفون فيها سوى الشخص الذي جاءوا بصحبته ويعجزون عن إيجاده، حتى تمكنت من تبادل بضع كلمات معها.

حيَّتني بابتسامة أنستني على الفور ما تكبَّدتُه قبلًا من مشقة، ثم أراحت أصابعها للحظة على يدي، ضاغطة عليها برقَّة فاتنة.

قالت لي: «ما أطيب قلبك! لقد وفيت بوعدك. لا تتخيَّل كم مللت من هؤلاء الناس. اجلس هنا واحكِ لي آخر أخبارك.»

استمعت إليَّ نحو عشر ثوانٍ، ثم قاطعتني قائلةً: «وماذا عن صديقك المثقف الذي جئت بصحبته. لقد لقيته في منزلٍ ليدي لينون الأسبوع الماضي. هل يكتب هو الآخر؟»

أجبت بأن له مؤلفات بالفعل.

قالت: «هلا حدثتني عنها؟ لا يُتاح لي سوى وقت قليل جدًّا للقراءة، وحينها لا أرغب إلا في قراءة الكتب التي ستفيدني.» ثم وجهت إليَّ نظرة امتنان معبِّرة أكثر من الكلمات.

حدثتها عن مؤلفاته، ولكي أوفي صديقي حقه، قرأت عليها بضع فقرات من كتابه؛ فقرات كنت أعلم أنه فخور بها.

بدا أن جملة بعينها استحوذت على انتباهها، جملة تقول: «إن ذراعي امرأة صالحة حول عنق الرجل هما طوق نجاة مرسل إليه من السماء.»

تمتمت: «ما أجملها من عبارة!» ثم أضافت: «هلا أعدتها؟» كررت الجملة مرة أخرى ورددتها ورائي.

عندئذٍ انقضَّت عليها سيدة عجوز مزعجة من حيث لا تحتسب، فاضطررت إلى الانزواء في أحد أركان الغرفة حيث حاولت التظاهر بأنني أقضي وقتًا ممتعًا دون نجاح حقيقي.

بعد قليل، بدأت أبحث عن صديقي؛ إذ شعرت أن وقت الرحيل قد حان، ووجدته يتحدَّث إليها في ركن الغرفة. اقتربت منهما ثم طفقت أنتظر. كانا يناقشان آخر جريمة قَتْل وقعَت في شرق لندن، والتي راحت ضحيتها امرأة سكيرة على يد زوجها، وهو حرفي كادح جُن بفعل الخراب الذي حلَّ ببيته.

كانت تقول: «حقًّا، إن المرأة قادرة على جَرِّ الرجل إلى أعماق الحضيض أو رفعه إلى قمة المجد. كلما قرأت عن قضية تورطت بها امرأة تذكرت تلك العبارة البديعة التي ذكرتها في كتابك: «إن ذراعَي امرأة صالحة حول عنق الرجل هما طوق نجاة مرسل إليه من السماء».»

تباينت الآراء حول دينها وتوجُّهاتها السياسية. قال عنها قس الكنيسة الإنجيلية: «إنها امرأة مسيحية مخلصة، من النساء اللاتي يكرهن التفاخر وطالما كُنَّ من دعائم كنيستنا. إنني فخور بمعرفتها ويشرفني أن كلماتي البسيطة كان لها بعض الأثر في إبعاد قلب هذه المرأة الصادقة عن تفاهات الموضة، وتوجيه فكرها نحو قيم أكثر نبلًا. هي بالتأكيد امرأة صالحة من رعايا الكنيسة، بكل ما يحمله هذا الوصف من معنًى.»

أما القس الكاثوليكي الشاب، ذو الوجه الشاحب والملامح الأرستقراطية، فقد قال عنها للكونتيسة الفرنسية، وعيناه الغائرتان تتلألآن بحماس كبير: «أعقد آمالًا كبيرة على صديقتنا العزيزة. من الصعب عليها بتر الصِّلات التي تكوَّنَت عَبْر الزمن ورسختها مشاعر الحب. نحن البشر جميعًا ضعفاء، بَيْد أن قلبها يتحوَّل نحو الكنيسة الأصلية مثل طفل يتوق إلى حضن أمه، بعد سنوات قضاها بين أحضان الغرباء. لقد تحدثنا معًا، ويبدو لي أن شخصي المتواضع قد يكون الصوت الذي يهدي هذا الحمل الضائع ويعيده إلى القطيع.»

وكتب عنها السيد هاري بينيت، المحاضر الشهير ومعتنق الثيوصوفية، في خطاب لأحد أصدقائه: «إنها امرأة موهوبة حقًّا، ولديها توق واضح لبلوغ الحقيقة. امرأة محبة للحكمة. امرأة لا تخشى الفكر والمنطق، وقادرة على تولِّي زمام حياتها. لقد تحدثت معها كثيرًا في عدة مناسبات، ولاحظت أنها تستوعب مقصدي بسرعة بديهة لم أشهد مثيلًا لها في

حياتي؛ وأعتقد أن الحجج التي ذكرتها أثناء حديثنا كان لها أعظم الأثر في نفسها. وعليه، أتطلَّع إلى انضمامها، عما قريب، إلى طائفتنا الصغيرة. أكاد أجزم، دون أن أفشي أسرارًا تخصُّها، أنَّ تحوُّلها مسألة مفروغ منها.»

وطالما وصفها الكولونيل ماكسيم بأنها «ركيزة لا تتزعزع من ركائز الدولة.»

فتحدث هذا العسكري المحنك عنها قائلًا: «لقد بات العدو حاضرًا بين صفوفنا، ومن ثَم أضحى واجبًا على كل رجل شريف، وكل امرأة شريفة، الاصطفاف دفاعًا عن البلاد؛ وها أنا ذا أعبِّر عن خالص احترامي وتقديري للسيدات النبيلات مثل السيدة كلفتون كورتيناي، اللاتي نحَّين جانبًا خجلهن الطبيعي من الشهرة، وتقدَّمن في ظِل هذه الأزمة الحالية كي يتصدين للعناصر الفوضوية والخائنة التي تفشَّت في أرجاء البلاد.»

ولما علَّق أحد المستمعين قائلًا: «بَيْد أني فهمت من جوسلين الشاب أن السيدة كلفتون كورتيناي تعتنق بعض الآراء التقدُّمية حول عدد من القضايا السياسية والاجتماعية.»

رد الكولونيل بنبرة ازدراء قائلًا: «كلام فارغ! ربما أفلح هذا الشاب في لَفْت نظرها بشَعره الطويل وخطابه الأجوف لفترة وجيزة. لكني نجحت، وبكل فخر، في إحباط خططه. ودليلي على ذلك أنها قبلت أن تشغل منصب الرئيسة الشرفية لفرع برمنزي التابع لرابطة بريمروز في العام القادم. ما رد جوسلين، ذلك الوغد، على هذا؟»

وكان رد جوسلين: «أعرف أنها امرأة ضعيفة. لكني لا ألومها، بل أشفق عليها. عندما يأتي زمن لا تعود فيه المرأة دمية تحرِّكها خيوط يمسك بها رجل أحمق، ولا تعود مهدَّدة بالنبذ الاجتماعي إذا تجرأت واتبعت صوت ضميرها بدلًا من صوت أحد أقاربها الذكور المحيطين بها، عندما يأتي هذا الزمن، وسوف يأتي قريبًا، يمكن حينها أن نحكم عليها. إني أنأى بنفسي عن إفشاء أسرار ائتمنتني عليها امرأة تعاني، لكن يمكنك أن تقول لهذا العجوز القادم من العصر الحجري، الكولونيل ماكسيم، إن بوسعه، هو وعجائز فرع برمنزي من رابطة بريمروز، انتخاب السيدة كلفتون كورتيناي رئيسة للفرع والاستفادة من ذلك إلى أبعَد الحدود؛ فهم لم يستحوذوا إلا على القشرة الخارجية لهذه المرأة. أما قلبها فهو ينبض على إيقاع الخُطا الواثقة لأصحاب الآراء التقدمية، وروحها وعيناها تتطلعان نحو شعاع الفجر القادم البَهيِّ.»

بَيْد أن جميعهم اتفقوا على أنها امرأة فاتنة.

الروح التي تصحب ويبلي

لم ألقَ هذه الروح شخصيًّا، لكني على معرفة وثيقة بويبلي؛ لذا سمعت قدرًا لا بأس به من الكلام عنها.

يبدو أن هذه الروح كرَّسَت نفسها لويبلي، وكان ويبلي مُولَعًا بها. عن نفسي، لست مهتمًّا بالأرواح، ولم تُبدِ أي روح اهتمامًا بي. لكن لديَّ أصدقاء ترعاهم أرواح، ولهذا أتعامل مع هذه المسألة بذهن متفتِّح. أما فيما يخص الروح التي تصحب ويبلي، فلا يسعني سوى التحدث عنها بكل احترام وتقدير. وأقر أنها روح مجتهدة وحيَّة الضمير، من النوع الذي يتمنَّاه ساكن أي منزل. لكن عيبها الوحيد في رأيي هو أنها لا تملك عقلًا.

سكنت الروح خزانة مزينة بنقوش خشبية ابتاعها ويبلي من شارع واردور، ظانًّا أنها مصنوعة من خشب البلوط القديم، لكن اتضح بعد ذلك أنها مصنوعة في ألمانيا من خشب الكستناء، وفي البداية كانت الروح مسالمة إلى حدٍّ كبير، فلم تنطق إلا إذا تحدث إليها أحد ولم تقُل سوى «نعم» أو «لا».

كان ويبلي يسلِّي نفسه في المساء بطرح أسئلة عليها، وحرص أن تكون الأسئلة بسيطة، إلى حدٍّ معقول، في موضوعها، على غرار «هل أنتِ هنا؟» (في بعض الأحيان كانت الروح ترد على هذا السؤال بنعم، وفي أحيانٍ أخرى كانت ترد بلا) أو «هل تسمعينني؟» أو «هل أنتِ سعيدة؟» ... إلخ، وكانت الروح تجعل الخزانة تُصدر صريرًا ثلاث مرات للإجابة بنعم ومرَّتَين للإجابة بلا. وبين الحين والآخر كانت ترد بنعم ولا على السؤال ذاته، وكان ويبلي يعزو ذلك إلى دقتها المفرطة.

وإذا لم يوجه أحد أسئلة إلى الروح، كانت تحدث نفسها مردِّدة «نعم!» «لا!» «لا!» «نعم!» مرارًا وتكرارًا في حوار ذاتي عبثي ينمُّ عن الوحدة، ويثير الشفقة.

وبعد فترة، ابتاع ويبلي منضدة، وشجع الروح على تبادل الحديث معه. ولإرضاء ويبلي، ساعدته في إحدى أولى جلسات الاستحضار التي عقدها، لكن في أثناء وجودي تحفظت الروح في الحديث إلى حدٍّ يبعث على السأم. فهمت من ويبلي أنها لا تحبني، فهي تظن أني غير متعاطف معها. وهو اتهام ظالم؛ لأني تعاطفت معها إلى حدٍّ ما، على الأقل في بداية المحادثة. فبعد أن سمعتها تتكلَّم، رغبت في سماع حديثها، وكنت سأنصت إليها بالساعات. لكن ما أثار مللي هو التلكُّؤ في بدء المحادثة، ثم التحدُّث بحماقة بعد ذلك، باستخدام كلمات طويلة لا تعرف كيف تتهجَّاها. أتذكر أنه في إحدى الأمسيات جلست أنا وويبلي وجوبستوك (شريك ويبلي في العمل) ساعتَين نحاول فهم ما تعنيه بعبارة «H-e-s-t-u-r-n-e-m-y-s-f-e-a-r». لم تستعِن بأي وقفات بين الحروف. ولم تُراعِ مطلقًا تنبيهنا عندما تنهي جملة وتبدأ جملة جديدة. بل لم تخبرنا قطُّ أنها تستخدم اسم علم. وكانت فكرتها عن تبادل الحديث في المساء تقتصر على التفوُّه بمائة حرف ساكن ومتحرِّك مرة واحدة وتَرْكنا نحاول إيجاد أي معنًى نستطيع إيجاده لها.

في البداية تصوَّرْنا أنها تتحدَّث عن شخص يُدعى Hester (هيستر) (مع إنها كانت تتهجى الاسم بحرف u بدلًا من e، لكننا تجاوزنا عن بعض الأخطاء المتعلِّقة بالهجاء)، وحاولنا فهم الجملة بناءً على ذلك، فتوصلنا إلى أنها ربما تقصد Hester enemies fear (يخشى أعداء هيستر). كانت لويبلي ابنة أخت تُدعى هيستر، فاستنتجنا أن التحذير يُشير إليها. لكننا عجزنا عن تحديد ما إذا كانت عدوتنا وعلينا أن نخافها، أم علينا أن نخاف من أعدائها (وإذا كان ذلك صحيحًا فمَن هم أعداؤها؟)، أم إن أعداءنا هم مَن يجب عليهم أن يخافوا هيستر أو يخافوا من أعدائها أو يخافوا من الأعداء عمومًا، لم نستطع الجزم بصحة أيٍّ من تلك الخيارات. سألنا المنضدة إذا كانت تقصد أن هيستر عدوتنا وعلينا أن نخشاها، فقالت «لا.» فسألناها ماذا تقصد بما قالته، قالت: «نعم.»

أغاظتني تلك الإجابة، لكن ويبلي أخبرني أن الروح غاضبة منا بسبب غبائنا (يا للعجب!). وشرح لنا أن الروح دائمًا ما تقول «لا» أولًا، ثم «نعم» عندما تكون غاضبة، ونظرًا إلى أن الروح تخصُّ ويبلي، ولأننا كنا في منزله، فقد كتمنا مشاعرنا في صدورنا وبدأنا من جديد.

هذه المرة قررنا التخلِّي عن نظرية «هيستر». اقترح جوبستوك أن الكلمة الأولى ربما تكون Haste (أسرع)، ورأى أن الروح ربما أكملت الجملة عَبْر نطق أصوات مقاطع الكلمات بدلًا من تهجِّيها.

ومن ثَم توصل إلى الجملة التالية: Haste! you are here, Miss Sfear! (أسرعي! قد وصلتي، يا آنسة سفير!)

عندئذٍ سأله ويبلي ساخرًا هل يتكرَّم ويشرح لنا معنى تلك الجملة.

أظن أن جوبستوك بدأ يتضايق. كنا محتشدين في مساحة ضيِّقة حول منضدة بائسة برجل واحدة طوال المساء، وكانت تلك العبارة هي النميمة الوحيدة التي استطعنا استنطاقها منها. فضلًا عن أن ويبلي أغلق محبس الغاز فخمدت نيران المدفأة. لذا كان جوبستوك معذورًا عندما رد بأنه يبذل جهدًا شاقًّا كي يحدد ما تقوله ولم يعُد لديه طاقة لفهم معناه.

ثم أضاف: «هذه الروح لا تعرف قواعد التهجئة. فضلًا عن أن طبعها بغيض ومتهجِّم. لو كانت تسكن منزلي لكنت استأجرت روحًا أخرى كي تضربها.»

ومع أن ويبلي كان رجلًا صغير الجحم ومن ألطَف مَن عرفت من الرجال، فإن إهانة الروح التي تصحبه أو المزاح بخصوصها كان يحوِّله إلى وحش كاسر، وخشيت أن يتفاقم الأمر إلى مشاجرة. ولحُسن الحظ، تمكَّنتُ من إقناع ويبلي بالرجوع إلى نظرية «يخشى أعداء هيستر» قبل أن يرتكب ما هو أسوأ من التفوُّه ببضعة تعليقات عن الحماقة التي أعيت مَن يداويها وعن تفاهة العقول التي تستخف بالمقدسات.

جربنا كلمات مثل He’s stern (هو صارم) وHis turn (دوره) وfear of Hesturnemy (خوف من عدو هيستر)، وحاولنا معرفة مَن يكون «عدو هيستر». ولثلاث مرات متتالية كنا نعيد التفكير في العبارة من أولها، ما يعني أننا هززنا المنضدة ستمائة وست مرات، وفجأة جاءني الحل: Eastern Hemisphere (نصف الكرة الشرقي).

كان ويبلي قد سأل الروح عما إذا كان لديها أي معلومات حول عم زوجته، الذي لم يعرف عنه شيئًا منذ شهور، ويبدو أن هذه العبارة كانت محاولة منها لذكر عنوان.

بعد ذلك، ذاعت شهرة الروح، فصار ويبلي قادرًا على الاستعانة بمساعدين أنسَب يرحِّبون بالمشاركة، واستغنى عن خدماتنا أنا وجوبسوك. بَيْد أن ذلك لم يحزَّ في نفسَينا.

ومع هذا التحسُّن في الأوضاع، استجمعت الروح شجاعتها وانطلقت تُثرثر بلا انقطاع أمام الجميع. لكن صحبتها لم تبعث على البهجة، فحديثها كان يقتصر في الأغلب على التنبؤات والتحذيرات التي تُنذر بالشر. فكان ويبلي يمر بمنزلي مرَّة كل أسبوعَين تقريبًا دون موعد، كي يخبرني أن أحترس من الرجل الذي يعيش في شارع يبدأ اسمه بالحرف سي، أو كي يبلغني أنني إذا ذهبت إلى المدينة الساحلية حيث توجد ثلاث كنائس فسألقى

شخصًا سوف يوقع بي ضررًا لا سبيل إلى إصلاحه، وشدَّد على أني إذا لم أهرع فورًا بحثًا عن تلك المدينة فسيكون ذلك تحديًا لمشيئة القدر.

ذكرتني هذه الروح المولعة بحشر أنفها الشبحية في شئون الآخرين بصديقي بوبليتون. فلا شيء كان يسعدها أكثر من أن يلجأ إليها أحدٌ بحثًا عن مساعدة أو طلبًا لنصيحة، وكان ويبلي، الذي كان يأتمر بأمر الروح، يمشط نصف الأبرشية كي يعثر على أشخاص يجلبهم إليها.

كان يجلب إليها نساء متلهفات على إيجاد أدلة تساعدهن في محكمة الطلاق، وكانت الروح تأمرهن بالتوجُّه إلى المنزل الثالث من ناصية الشارع الخامس، بعد كنيسة أو حانة معيَّنة (لم تعطِ قطُّ عنوانًا واضحًا سهلًا)، ثم بقرْع جرس الطابق السفلي مرَّتين لا مرة واحدة. فكُنَّ يشكرنها بحرارة، وفي صباح اليوم التالي ينطلقن نحو الشارع الخامس بعد الكنيسة حتى يصلن إلى المنزل الثالث من ناصية الشارع ويقرعن جرس الطابق السفلي مرَّتين، وعندئذٍ كان يفتح الباب رجل يرتدي قميصًا دون سترة ويسألهن عما يُردن.

وعندما كُنَّ يعجزن عن إخباره بما يردنه، فهنَّ أنفسهن لا يعرفن ما يُرِدن، كان الرجل يسبُّهن ثم يصفق الباب في وجوههن.

عندها كُنَّ يفكرن: ربما كانت الروح تقصد الشارع الخامس من الناحية الأخرى، أو المنزل الثالث من الزاوية المقابلة من الشارع، وكُنَّ يحاولن مجددًا، لكن لم تفضِ محاولاتهن إلى نتائج مستحبة.

في أحد أيام شهر يوليو، لقيت ويبلي يتسكع في شارع برنسيس بإدنبرة، ويبدو عليه البؤس.

هتفت به: «مرحبًا! ماذا تفعل هنا؟ كنت أظن أنك مشغول بقضية مجلس إدارة تلك المدرسة.»

أجابني: «أجل، من الضروري أن أكون في لندن حاليًّا، لكني، في واقع الأمر، أنتظر حدوث شيء ما هنا.»

قلت: «حقًّا! ما هو؟»

رد مترددًا، كما لو كان يفضل عدم التحدُّث بالأمر: «حسنًا، ما زلت لا أعرف على وجه التحديد.»

صحت: «هل يعقل أن تأتي إلى إدنبرة من لندن، ولا تعرف لماذا؟!»

قال بمزيد من التردُّد: «حسنًا، في الحقيقة، ماريا هي صاحبة تلك الفكرة؛ إذ رغبت في …»

قاطعته قائلًا: «ماريا! مَن ماريا؟»، ونظرت إليه متجهمًا بعض الشيء (فزوجته تدعى إيميلي جورجينا آن.)

قال مفسرًا: «اعذرني، لقد نسيت، فهي لم تكُن لتقول اسمها أمامك أبدًا، أليس كذلك؟ ماريا هي الروح.»

قلت: «حقًّا؟! هي إذَن مَن أرسلتك إلى هنا. ألم تخبرك بالسبب؟»

رد: «لا، هذا ما يقلقني. لم تقُل سوى «اذهب إلى إدنبرة سوف يحدث شيء».»

سألته: «إلى متى ستبقى هنا؟»

أجابني: «لا أعرف. لقد أمضيت أسبوعًا بالفعل، وجوبستوك يبعث إليَّ بخطابات غاضبة. لم أكُن لآتي إلى هنا لولا أن ماريا قالت إن الأمر عاجل جدًّا. وكررت هذا الكلام لثلاث ليالٍ متتالية.»

لم أدرِ ماذا أفعل معه. كان يأخذ الأمر بجدية شديدة لا تحتمل الجدال.

فكرت لبرهة ثم قلت له: «هل أنت واثق من أن ماريا هذه روح طيبة؟ على حدٍّ علمي، توجد أنواع شتى من الأرواح في أيامنا هذه. هل أنت واثق من أنها ليست روح امرأة مجنونة تتلاعب بك؟»

قال: «لقد فكرت في هذا الاحتمال. بالطبع هو احتمال قائم. إذا لم يحدث شيء قريبًا فسيكون عليَّ النظر في هذا الاحتمال بالفعل.»

قلت له: «لو كنت مكانك، كنت سأسعى إلى تقصِّي بعض المعلومات عن شخصية هذه الروح قبل أن أصدق أيًّا مما ستقوله بعد ذلك»، ثم تركته.

لقيته بعد شهر تقريبًا أمام مجمع المحاكم.

قال لي: «اتضح أن ماريا كانت على حق، حدث شيء بالفعل في إدنبرة عندما كنت هناك. في ذاك الصباح الذي لقيتك فيه، توفي أحد أقدَم عملائي فجأةً في منزله بمدينة كوينزفيري، التي لا تبعد سوى بضعة أميال عن إدنبرة.»

قلت: «يسعدني سماع ذلك، أقصد فيما يخص ماريا. إذَن كان وجودك هناك في مصلحتك.»

قال: «في الحقيقة، ليس بالضبط، على الأقل من المنظور الدنيوي. فقد مات الرجل تاركًا ممتلكاته في وضع بالغ التعقيد، ما دفع ابنه البكر إلى السفر على الفور إلى لندن كي يستشيرني فيما يخص التركة، وعندما لم يجدني هناك، ذهب إلى محامٍ آخر. أُحبِطتُ كثيرًا عندما عدت إلى لندن وعلمت بالأمر.»

قلت متأففًا: «على أي حال هي ليست روحًا ذكية.»

وافقني قائلًا: «أجل، ربما تكون محقًّا في ذلك. لكن أترى؟ لقد حدث شيء بالفعل.»

بعد ذلك الحادث، تضاعف حبه لماريا أضعافًا مضاعفة، وفي الوقت نفسه أصبح ارتباطها به عبئًا على أصدقائه. صارت أكبر من أن تسعها المنضدة التي سكنتها قبلًا، وبعدما تخلصت من جميع الوسائط الجامدة التي كانت تعتمد عليها في التواصل، بدأت تحدِّثه مباشرةً. كانت تتبعه في كل مكان، مثل حمل ماري الصغير في أغنية الأطفال الشهيرة، بَيْد أنها كانت أكثر إزعاجًا من ذاك الحمل. وتفاقم الأمر حتى صارت تصحبه إلى غرفة النوم، وتنخرط معه في محادثات طويلة في منتصف الليل. وقد اعترضت زوجته على ذلك، بحُجة أن هذا لا يصح، ورغم ذلك لم يستطع أحد إبعادها عن الغرفة.

صارت ماريا تصحبه إلى النزهات الخلوية وحفلات الكريسماس. لم يسمعها أحد تتحدَّث إليه، لكنه الْتَزم دومًا بالرد عليها بصوت مسموع، وعندما كان ينهض فجأةً من كرسيه وينسلُّ بعيدًا كي يتحدث بجدية إلى ركن فارغ في الغرفة، كان يفسد الأجواء الاحتفالية.

في إحدى المرات قال لي معترفًا: «أتمنى حقًّا لو يُتاح لي بعض الوقت لنفسي. أعلم أنها حسنة النية، لكن الأمر صار يضغط على أعصابي. فضلًا عن أن الآخرين لا يحبونها. فهي تُصيبهم بالتوتر، يمكنني ملاحظة هذا.»

في إحدى الأمسيات، تسببت الروح في موقف محرج حقًّا في النادي. كان ويبلي يلعب الويست وكان شريكه في اللعب رائد جيش. وفي نهاية الدور، مال الرائد عبر الطاولة نحو ويبلي وسأله، في هدوء قاتل: «هل تسمح لي أن أسألك أيها السيد، هل يوجد سبب أرضي (وشدد على كلمة أرضي) جعلك ترمي بالورقة الرابحة الوحيدة لديك بعدما ألقيت أنا ما لديَّ من أوراق البستوني؟»

رد ويبلي بنبرة اعتذارية: «أنا ... أنا آسف جدًّا أيها الرائد، لقد شعرت بإحساس غامض دفعني إلى إلقاء ورقة الملكة تلك.»

أضاف الرائد في إصرار: «أكانت تلك فكرتك وحدك، أم أُوحي إليك بها؟»، وكان قد سمع بالطبع عن ماريا.

اعترف ويبلي بأن هناك مَن أوحى إليه بلعب هذه الورقة. عندئذٍ نهض الرائد، وقال في سخط بالغ: «إذن، أرفض أن أكمل هذه اللعبة. يمكنني تحمل اللعب مع شريك أحمق، لكني لا أطيق أن تعترض طريقي روح لعينة ...»

حينئذٍ صاح ويبلي منفعلًا: «لا يحق لك وصفها بذلك.»

رد الرائد ببرود: «أعتذر عن وصفها بالروح اللعينة، فلنقُل إنها روح مباركة، لكني أرفض أن ألعب الويست مع أي روح من أي نوع، ونصيحتي لك، إذا كنت تنوي الظهور كثيرًا بصحبة هذه السيدة، أن تعلِّمها أساسيات اللعبة أولًا.»

وما إن أنهى الرائد كلامه حتى ارتدى قبعته وغادر النادي، أما أنا فحضَّرت لويبلي كأسًا من البراندي القوي الممزوج بالماء، ثم أحضرت سيارة أجرة كي تصطحبه هو وماريا إلى منزله.

تخلَّص ويبلي من ماريا أخيرًا. وقد كلفه هذا نحو ثمانية آلاف جنيهًا، لكن عائلته قالت إنهم الفائزون في هذه الصفقة.

وإليكم ما حدث: استأجر كونت إسباني منزلًا مفروشًا على بُعد بضعة منازل من بيت ويبلي، وفي إحدى الأمسيات، تعرَّف على ويبلي وزاره في منزله وتبادل الحديث معه.

أخبره ويبلي عن ماريا، وبدا أن الكونت وقع في غرامها. قال إنه لو كان لديه روح مثلها تساعده وتنصحه، لكانت حياته قد تغيرت كليًّا.

كان الكونت هو أول رجل يُطري على الروح، وأحبه ويبلي لذلك. وبعد تلك الأمسية، صار الكونت ملازمًا لويبلي، وكان ثلاثتهم — ويبلي والكونت وماريا — يسهرون معًا ويتحدثون حتى وقت متأخر من الليل.

لم أعرف بالضبط تفاصيل ما جرى بينهم. فطالما كان ويبلي متكتمًا حيال تلك المسألة. ومن ثَم لا يمكنني الجزم هل كانت ماريا موجودة حقًّا، والكونت هو مَن تعمَّد تضليلها (فطالما كانت روحًا حمقاء تصدق أي شيء)، أم كانت مجرد هلوسة وليدة عقل ويبلي، والكونت هو مَن خدعه عَبْر ما يطلق الأطباء عليه «الإيحاءات التنويمية». لكني متيقِّن من شيء واحد، وهو أن ماريا أقنعت ويبلي أن الكونت قد اكتشف منجم ذهب سِرِّيًّا في بيرو. وقالت إن لديها جميع المعلومات حول هذا الاكتشاف، ونصحت ويبلي بأن يرجو الكونت أن يسمح له باستثمار بضعة آلاف لبدء هذا المشروع. فعلى ما يبدو، كانت ماريا تعرف الكونت منذ صباه، وشهدت بأنه أشرف رجل في أمريكا الجنوبية. وربما كان أشرف رجل هناك فعلًا.

اندهش الكونت عندما علم أن ويبلي يعرف كل شيء عن منجمه. وأخبره أنه يحتاج إلى ثمانية آلاف جنيه كي يبدأ أعمال الحفر، وأنه لم يذكر هذا الأمر لأحد لأنه رغب في الاحتفاظ بجميع أرباح المنجم لنفسه، وكان يخطِّط لجمع المبلغ عَبْر توفير بعض من المال

الذي يُنفقه على أملاكه في البرتغال. رغم ذلك، قرَّر أن يسمح لويبلي بدفع المبلغ المطلوب، تلبيةً لرغبة ماريا. ودفع ويبلي، نقدًا، ومنذ ذلك الحين لم يرَ أحدٌ الكونت مرة أخرى.

فقد ويبلي إيمانه بماريا بسبب هذا الحادث، وأخيرًا تحدث معه طبيب حصيف، وهدده أن يودعه مستشفى الأمراض العقلية إذا اكتشف أنه يتواصل مع أي أرواح مجددًا. وقد نجح ذلك في إتمام شفائه.

الرجلُ الذي ضلَّ السبيل

لقيت جاك بوردج لأول مرة قبل عشر سنوات تقريبًا في مضمار لسباق الخيل في شمال البلاد.

كان جرس تجهيز الخيول قد قرع لتوِّه معلنًا عن قرب بداية السباق. وكنت أسير متمهلًا ويدي في جيبي، فلم أكُن مهتمًّا بالسباق قَدْر اهتمامي بملاحظة الحضور، عندما أمسك بذراعي صديق من المقامرين المحنكين وهمس في أذني بصوت أجش: «ضع قميصك على السيدة والر.»

قلت: «أضع ماذا؟»

كرَّر عبارته بنبرة أكثر جزمًا: «ضع قميصك على السيدة والر»، ثم واصلَ طريقه نحو حلبة الخيل واختفى بين الحشود.

ظللت أحدِّق مبهوتًا في الاتجاه الذي سار فيه، متسائلًا لمَ يجب عليَّ أن أضع قميصي على السيدة والر؟ حتى إن كان قميصي مقاسها، فماذا سأرتدي أنا؟

تصادف أنني مررت حينها أمام مدرج المشاهدين وعندما نظرت إلى أعلى رأيت عبارة «السيدة والر، ١٢ إلى واحد» مكتوبة بالطبشور على لوحة المراهنات. عندئذٍ أدركت أن السيدة والر هي فرس، وبعدما أمعنت التفكير أكثر، بدأت أفهم أن صديقي كان ينصحني أن أراهن على السيدة والر بكل ما لديَّ من مال.

قلت في سري: «شكرًا على النصيحة، سبق وأن راهنت على خيول قيل لي إن فوزها يقين لا يرقى إليه شك. وبفضل ما مُنيت به من خسائر، قررت أن المرة القادمة التي سأراهن فيها على حصان سوف أغمض عينيَّ واختاره عشوائيًّا عَبْر وضع دبوس في بطاقة الخيل المشاركة.»

بَيْد أن الرجل قد زرع الفكرة في ذهني، وظلَّت كلماته تتردَّد في أذني. بل صرت أسمع الطيور المارة في السماء تغرد «ضع قميصك على السيدة والر.»

حاججت نفسي كي أثنيها عن الفعل وذكَّرتُها بالمغامرات القليلة التي سبق أن خضتها في هذا الميدان. لكن الرغبة في وضع عشر شلنات على الأقل — بدلًا من قميصي — على السيدة والر ظلَّت تشتد كلما ازدادت مقاومتي لها. وشعرت أنْ لو فازت السيدة والر ولم أكُن قد راهنت عليها بأي مبلغ، فسوف أؤنِّب نفسي حتى آخر يوم في عمري.

كنت واقفًا عند الجانب الآخر من حلبة السباق. ولم يتبقَّ أمامي وقت للرجوع إلى مقاعد الجمهور. كانت الخيول تصطف بالفعل استعدادًا للبدء. وعلى بُعد بضع ياردات، وقف وكيل مراهنات يعمل لحسابه الخاص أسفل خيمة بيضاء، وكان يصيح بآخر أسعار الرهان بصوت جهير. كان رجلًا ضخمًا ذا ملامح ودودة ووجه أحمر صادق.

سألته: «بكم الرهان على السيدة والر؟»

أجابني: «أربعة عشر لواحد، وحظًّا سعيدًا لك.»

أعطيته عشرة شلنات، وكتب لي إيصالًا. فحشرته في جيب صديريتي وغادرت مسرعًا كي أشاهد السباق. ودهشتُ إيَّما دهشة عندما فازت «السيدة والر». اشتعل حماسي إثر هذا الإحساس الجديد الناتج عن الرهان على الحصان الفائز حتى نسيت كل شيء عما كسبته من مال، فلم أتذكَّر رهاني إلا بعد انقضاء ساعة.

عندئذٍ شرعت أفتِّش عن الرجل الواقف أسفل المظلة البيضاء. ذهبت إلى حيث ظننت أني تركته آخر مرة، لكني لم أجِد أي مظلة بيضاء.

واسيت نفسي بأني أستحق هذه الخسارة لأن سذاجتي دفعتني إلى الوثوق بوكيل مراهنات غير معروف، فاستدرت وطفقت عائدًا إلى مقعدي. عندئذٍ فوجئت بصوت يناديني: «هنا أيها السيد، أنا مَن تبحث عنه، جاك بوردج، ها أنا ذا»، فنظرت حولي فوجدته واقفًا عند مرفقي.

قال: «رأيتك تبحث في الأرجاء، ناديت عليك ولم تسمعني، كنت تبحث في الناحية الخطأ من الخيمة.»

سُررت عندما رأيت أن وجهه الصادق لم يكذِّب كلامه.

قلت: «يسعدني أنك وجدتني، كنت قد فقدت كل أمل في أن أراك مجددًا.» ثم أضفت بابتسامة: «أو أن أرى الجنيهات السبعة، مكسبي.»

صحَّح عبارتي قائلًا: «سبعة جنيهات وعشر شلنات. لقد نسيت إضافة قيمة الرهان.» ثم أعطاني المال وعاد إلى مكانه المعتاد.

في طريقي إلى المدينة صادفته مجددًا. كان حشد من الناس قد تجمع للفرجة على رجل متشرِّد يعنِّف امرأة يعلو البؤس ملامحها. اخترق جاك الحشود، واستوعب المشهد وفي اللحظة نفسها خلع معطفه وصاح بأعلى صوته: «تعالَ إليَّ أيها السيد المحترم، فلتتعارك مع ندٍّ لك على سبيل التغيير.»

كان المتشرد رجلًا متوحشًا ضخم الجثة، ولم يكن جاك أفضل مَن رأيت من الملاكمين. وهكذا أُصيب بكدمة في عينَيه وبجُرح بالغ أعلى شفتَيه فور بداية العراك. وعلى الرغم من ذلك، ومن كل ما تلقَّاه من ضربات لاحقة، ظلَّ صامدًا حتى تغلَّب على خصمه.

وفي النهاية، ساعد غريمه على النهوض وسمعته يهمس له برفق قائلًا: «ما فعلته لا يليق برجل مثلك، لا يصح أن تضرب امرأة هكذا. لقد أوسعتني ضربًا حتى كدتَ أن تقضي عليَّ. لا بد أنك نسيت نفسك يا صديقي.»

أثار الرجل اهتمامي. فانتظرته ثم سرت معه. حكى لي عن بيته في لندن، في حي مايل إيند، وعن أبيه وأمه المسنَّين، وأشقائه وشقيقاته الصغار، وتحدث عما ينوي فعله لهم عندما يدَّخر ما يكفي من المال. كانت ملامحه تشع لطفًا وحنانًا أثناء حديثه.

كثير ممَّن لقينا أثناء سيرنا كانوا يعرفونه، وجميعهم ابتسموا دون أن يدروا ما إن رأوا وجهه الأحمر المستدير. عند منعطف الشارع الرئيسي، مرَّت بنا فتاة كادحة ذات وجه شاحب وقالت وهي تواصل طريقها: «مساء الخير يا سيد بوردج.»

استدار جاك سريعًا وأوقفها ثم أمسك بكتفَيها، وسألها: «كيف حال أبيك؟»

أجابت الطفلة: «أخشى أنه صار عاطلًا عن العمل مجددًا يا سيد بوردج. جميع المصانع مغلقة.»

«وأمك؟»

«لم تتحسَّن صحتها.»

«ومَن يعتني بكم جميعًا؟»

أجابت الفتاة الصغيرة: «أخشى أن جيمي يعمل الآن كي يساعد على إعالتنا.»

أخرجَ جاك جنيهَين من جيب صديريته ودسَّهما في يد الفتاة.

وقال مقاطعًا ما تفوَّهَت به من عبارات شكر متلعثمة: «لا بأس يا صغيرتي، لا بأس. اكتبي إليَّ إذا تحسَّنَت الأوضاع. أنتِ تعرفين عنوان جاك بوردج.»

في إحدى الأمسيات، كنت أتمشى في شوارع المدينة، عندما مررت صدفةً بجوار النزل الذي يقيم به جاك. كانت نافذة غرفة الاستقبال مفتوحة، وتدفق عَبْرها صوته العميق

المبهج إذ يصدح بأغنية شعبية قديمة تردَّد صداها عَبْر ضباب الليل مثل أنسام منعشة تبعث الطمأنينة في قلب المرء لما تتسم به من طابع إنساني. كان يجلس على رأس طاولة ويحيط به حشد من رفاقه المقربين. بقيت لبعض الوقت أراقب هذا المشهد، الذي جعل العالم يبدو مكانًا أقل كآبةً مما يُخيَّل إليَّ في بعض الأحيان.

عزمت، بعدما عدت إلى لندن، أن أزوره في مسكنه، ومن ثَم خرجت في إحدى الأمسيات باحثًا عن ذلك الشارع المتفرِّع من طريق مايل إند رود، حيث يقطن. وما إن انعطفت داخلًا الشارع حتى رأيته يقود عربة يجرُّها حصان، بدت في حالة جيدة، وبجواره جلست عجوز ضئيلة متغضنة حسنة الهندام، قال لي إنها أمه.

قالت العجوز وهي تستعد للنزول من العربة: «دائمًا ما أقول له إن عليه أن يجد فتاة جميلة كي تركب بجواره، فعجوز مثلي تفسد المنظر.»

رد جاك ضاحكًا وهو يقفز من العربة ويسلم لجام الحصان إلى شاب كان واقفًا ينتظر: «دعكِ من هذا الكلام يا أمي، الفتيات الصغار لا يقدرن على منافستك.» ثم الْتَفتَ إليَّ متابعًا حديثه: «لقد وعدت هذه السيدة العجوز بأن تركب عربة خاصة بها في يوم من الأيام، أليس كذلك يا أمي؟»

ردَّت المرأة المسنة وهي تصعد السلالم في خفة رغم وجود عرج بسيط في ساقها: «بلى، بلى. أنت ابن بارٌّ يا جاك.»

قاد الطريق نحو غرفة الاستقبال في المنزل، وما إن دلفها حتى تبدَّى السرور على وجوه كلِّ مَن فيها، واستقبلوه بجوقة من الترحاب المفعم بالبهجة. تبدَّد العالم القاسي بالخارج ما إن أغلق الباب الأمامي. بدا لي أنني دلفت إلى عالم الأديب تشارلز ديكينز. راقبت الرجل ذا الوجه الأحمر والعينَين الصغيرتَين المتألِّقتَين والصوت العميق القوي إذ يجوب الغرفة مثل جنِّية توزع الهدايا، جنية بدينة وضخمة الجثة. فمن جيوبه الواسعة أخرج تبغًا لأبيه العجوز؛ وعنقود عنب كبيرًا لطفل سقيم من أبناء الجيران كان يقطن معهم؛ وكتابًا من أعمال الروائي جورج ألفريد هينتي، الذي يعشق الصبيان كتاباته، لفتى صغير مزعج كان يدعوه بـ «عمي»؛ وزجاجة نبيذ برتغالي لامرأة شاحبة متقدمة في العمر ذات وجه منتفخ، عرفت بعد ذلك أنها زوجة أخيه المتوفى؛ والكثير من الحلوى لطفل صغير (لا أعرف ابن مَن) تكفي لإصابته بالتوعك لمدة أسبوع؛ ومجموعة من النوتات الموسيقية لصغرى شقيقاته.

وبينما يضم الفتاة ذات الوجه الخجول إلى صدره ويربت بيده الخشنة على شَعرها المموج الجميل قال: «سوف نجعل منها سيدة راقية، وسوف تتزوَّج فارسًا من فرسان السباق حين تكبر.»

بعد العشاء، أعدَّ لنا شرابًا لذيذًا من الويسكي الممزوج بالعصائر، وأصرَّ على أن تحتسي أمه العجوز الشراب معنا، وقد وافقت في النهاية بعد الكثير من الاعتراض والسعال، رغم ذلك لاحظت أنها احتست كوبها عن آخره. أما الأطفال، فقد أعدَّ لهم شرابًا عجيبًا من ابتكاره، كان يطلق عليه اسم «عصير الألوان»، مكوَّنًا بالأساس من عصير الليمون الساخن ونبيذ الزنجبيل والسكر والبرتقال وخل توت العليق. وقد حقَّق التأثير المطلوب.

ظللت معهم حتى وقت متأخر، مستمعًا إلى ما رواه من مخزونه الذي لا ينضب من الحكايات. وكان يضحك هو نفسه على أغلبها، ضحكات صاخبة مدوية كانت تتسبب في هز التحف الزجاجية الرخيصة على رف المدفأة؛ لكن بين الحين والآخر، بدا أن ذكرى ما تُعاوده وتكسو وجهه المرح بتعبير جدي مفاجئ، وتبث رجفة غريبة في صوته العميق.

أطلق الشراب ألسنة أهل البيت بعض الشيء، فشرعوا يثنون على جاك ويشيدون به إلى حدٍّ كاد يبعث على السأم لولا أنه قاطعهم بصرامة.

صاح أخيرًا بخشونة: «اصمتي يا أمي، إني أفعل ما أفعله كي أُرضي نفسي. وأحب أن أرى الناس من حولي مرتاحين. وإذا كانوا يعانون، فسوف يُصيبني ذلك بضيق يفوق ما يشعرون به.»

لم أرَه مجددًا إلا بعد عامَين. ففي إحدى أمسيات شهر أكتوبر، كنت أتجوَّل في حي إيست أند عندما رأيته خارجًا من كنيسة صغيرة في طريق بورديت. كان قد تبدل حقًّا حتى كدت لا أعرفه لولا أني سمعت مصادفةً امرأة تحيِّيه في طريقها قائلةً: «مساء الخير يا سيد بوردج».

كان شارب كث يتدلى على جانبَي فمه، ما أضفى على وجهه الأحمر مظهرًا مفرطًا من الوقار. وكان يرتدي بذلة سوداء لا تُناسبه، ويحمل في إحدى يدَيه مظلة، وفي الأخرى كتابًا.

لا أدري لمَ بدا لي أنحف وأقصر ممَّا أتذكَّر. أوحى إليَّ مظهره إجمالًا بأن ذاته الحقيقية، قد انتُزعت منه بطريقة أو بأخرى ولم يتبقَّ منه سوى قشرة خارجية منكمشة. بدا أن جوهره الإنساني الودود قد استُلب منه.

صِحتُ به مندهشًا: «جاك بوردج! أهذا أنت؟»

زاغت عيناه الصغيرتان ناظرتين في أرجاء الشارع، ثم رد: «لا يا سيدي. لست جاك بوردج الذي عرفته قبلًا، أحمد الله على ذلك.» (لم يعد يتحدث بنبراته الصاخبة المجلجلة، بل أضحى صوته آليًّا قاسيًا.)

سألته: «هل هجرت مهنتك السابقة؟»

أجابني: «أجل يا سيدي، لقد طويت تلك الصفحة من حياتي، كنت شابًّا آثِمًا وضيعًا، فليسامحني الله على ما فعلته. الحمد لله أنني تُبت في الوقت المناسب.»

وضعتُ ذراعي في ذراعه وقلت له: «تعالَ، لنشرب كأسًا وتحكي لي القصة كلها.»

سحب ذراعه بحزم لا يخلو من الذوق وقال: «أعلم أن نيتك حسنة، بَيْد أنني أقلعت عن احتساء الخمر.»

من الجلي أنه أراد التخلُّص مني، لكن أديبًا مثلي استشعر وجود قصة قد تنفعه في كتاباته ليس من السهل التخلُّص منه. سألته عن أهله وعما إذا كانوا يُقيمون معه حتى الآن.

رد قائلًا: «أجل، لا يزالون يقيمون معي في الوقت الحالي. بالطبع لن يبقوا معي إلى الأبد؛ من الصعب إطعام هذا العدد من الأفواه في زمننا هذا، فضلًا عن أن المرء قد يقع ضحية لاستغلال الآخرين لا لسبب سوى أنه دمث الخُلق.»

سألته: «وكيف تسير أمورك حاليًّا؟»

رد بابتسامة سمجة: «أحوالي جيدة، أشكرك على السؤال. الله يرزق عباده المتقين. لديَّ الآن متجر صغير في الشارع التجاري.»

تابعت حديثي مُلحًّا: «أين بالضبط؟ أود أن آتي لزيارتك.»

أعطاني العنوان على مضض، وقال إنه سيسعد كثيرًا إذا شرفته بزيارتي. وكان واضحًا أنه يكذب.

في عصر اليوم التالي، ذهبت لزيارته. وجدت أن المتجر عبارة عن محل رهونات، وكانت جميع الدلائل تشير إلى أن تجارته منتعشة حقًّا. لم أجده بالمتجر إذ كان يحضر اجتماعًا تابعًا لحركة الاعتدال،[١] لكنَّ أباه العجوز كان جالسًا خلف طاولة البيع ودعاني

[١] حركة اجتماعية ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر، ودعت إلى الحد من استهلاك المشروبات الكحولية أو الامتناع عنها تمامًا. وقد انتشرت في الدول المتحدثة بالإنجليزية والدول الإسكندنافية، ودفعت إلى إصدار قوانين تحظر الخمور في بعض الفترات.

لدخول البيت. كان اليوم باردًا، ورغم ذلك لم تكُن المدفأة مشتعلة، وكان الأب والأم المسنان يجلسان على جانبَي المدفأة الفارغة، في صمت وحزن. بدا أنهما مسروران لرؤيتي أكثر مما بدا ابنهما، وبعد بُرهة من الوقت شرعنا نتحدَّث إذ نجح ميل السيدة بوردج إلى الثرثرة في فرض وجوده.

سألتها عن حال زوجة ابنهما، السيدة ذات الوجه المنتفخ.

ردَّت السيدة العجوز: «لا علم لي بحالها، فهي لم تعُد تعيش معنا.» ثم تابعت قائلة: «الحقيقة أن جون[٢] صار الآن يعتنق أفكارًا مختلفة عما سبق. فلم يعُد يهتم بالأشخاص الذين لم يجدوا سبيل الهداية، وجين المسكينة لم تكُن قطُّ من الورِعين.»

سألتها مجددًا: «ماذا عن الفتاة الصغيرة، ذات الشعر المموَّج؟»

قالت العجوز: «أتقصد بيسي؟ لقد امتهنت الخدمة في البيوت، فجون لا يعتقد أن من مصلحة الشباب البقاء دون عمل.»

علَّقتُ قائلًا: «يبدو أن ابنك قد تغير كثيرًا، يا سيدة بوردج.»

وافقتني قائلة: «أجل يا سيدي. كلامك مضبوط. لقد كاد قلبي ينفطر أول الأمر؛ إذ اختلف كل شيء عما كان. لكنني لا أرغب في رد الفتى عن الطريق القويم. إذا كان شقاؤنا في الحياة الدنيا سوف يجلب له النعيم في الآخرة، فلن نبدي أنا وأبوه أي امتعاض، أليس كذلك أيها العجوز؟»

وافقها «العجوز» في تأفُّف.

سألتها: «هل تحوَّل هكذا فجأة؟ كيف حدث الأمر؟»

سردت السيدة العجوز ما حدث قائلة: «امرأة شابة هي مَن دفعته إلى هذا الطريق. جاءت إلى منزلنا في أحد الأيام لجمع تبرعات لأمر لا أدري كُنهه، وأعطاها جاك، بكرمه المعهود، ورقة من فئة خمسة جنيهات. في الأسبوع التالي، عادت لتطلب المزيد من التبرعات، وشرعت تتحدَّث مع جاك عن روحه في ردهة البيت. أخبرته أن جزاءه سيكون جهنم وبئس المصير إذا لم يترك عمله بالرهونات ويشتغل بعمل محترم مخافة الله. ضحك على كلامها في أول الأمر، لكنها واصلت إعطاءه كُتيِّبات دينية دعائية مكتوبة بلغة عدائية ومُهينة، وأخيرًا

[٢] جون هو الاسم الأصلي لبطل القصة، وجاك هو اسم مشتق من جون، يُستخدم لغرض التدليل.

أقنعته في أحد الأيام بحضور تجمُّع لأتباع الحركة الإحيائية،[٣] وحينئذٍ نجحت في تبديل آرائه كليًّا.»

وأضافت: «ومنذ ذلك الحين، لم يعُد كما كان. أقلع عن مراهنات الخيول وابتاع متجر الرهونات، رغم أنني لا أرى فرقًا بين هذا وذاك. قلبي يوجعني حقًّا عندما أسمعه يهين الفقراء ويستغلهم، ذلك ليس من طبعه. في البداية، لاحظت أنه كان يعارض هذا الأسلوب، لكنهم أقنعوه أن أولئك الناس هم مَن جلبوا الفقر لأنفسهم، وأن إرادة الله تعاقبهم على استهتارهم وإسرافهم في احتساء الخمر.

بعد ذلك جعلوه يوقِّع على تعهُّد بالامتناع عن احتساء الخمور. كان جاك معتادًا على الشرب، وأظن أن الإقلاع عن الخمر جعله عدائيًّا بعض الشيء، وبدا أنه قد فقد طبعه المرح المُفعَم بالحياة. وبالطبع أقلعتُ أنا وأبوه عن الجرعات القليلة التي اعتدنا احتساءها. ثم أخبروه بأن عليه أن يُقلع عن التدخين، فتلك عادة ستُودي به إلى جهنم أيضًا، وقد زاده ذلك تجهُّمًا. فضلًا عن أن أباه يفتقد تدخين التبغ، أليس كذلك؟»

رد العجوز في سخط بالِغ: «بلى، لا أكنُّ احترامًا كبيرًا لهؤلاء الأشخاص الذاهبين إلى الجنة، وأظن أنهم سيستمتعون أكثر إنْ آلَ مصيرهم إلى الجانب الآخر.»

قاطع حديثنا صوت جدل محتدم قادِمًا من المتجر. لقد عاد جاك وكان يهدِّد امرأة منفعلة باستدعاء الشرطة؛ إذ اتضح أنها أخطأت في حساب تاريخ دفع الفائدة، فجاءت متأخرة يومًا.

بعدما تخلَّص منها، دلف إلى غرفة الاستقبال حاملًا ساعة في يده.

ثم قال متطلعًا إلى الساعة: «من حسن حظي أنها تأخرت. تلك الساعة تساوي عشرة أضعاف المال الذي أقرضتُها إياه.»

أعاد أباه إلى المتجر، وأرسل أمه إلى المطبخ كي تعدَّ له الشاي، وجلسنا نتحدَّث معًا لبعض الوقت.

[٣] الحركة الإحيائية هي حركة مسيحية دينية واجتماعية سادت في القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر. وتميَّزَت بالطابع الروحاني المفرط والخُطب المشحونة عاطفيًّا. كان هدفها الرئيس هو إحياء الإيمان الديني والالتزام بين الأفراد والمجتمعات. غالبًا ما كانت تنظم اجتماعات دعوية حماسية على نطاق واسع، حيث يُلقي الدعاة خُطبًا دينية مؤثرة.

كان حديثه مزيجًا غريبًا من الثناء على الذات المكسو بقناع واهٍ من الحطِّ من قَدْر النفس، وتجلى شعوره بالرضا النابع من اقتناعه بأنه نال الخلاص وأن معظم الآخرين لم ينالوه؛ شق عليَّ مواصلة الاستماع إليه؛ فنهضت كي أغادر متذكرًا موعدًا لديَّ.

لم يحاول استبقائي، بَيْد أنني لاحظت أنه كان يتوق لإخباري بأمر ما. أخيرًا، أخرج صحيفة دينية من جيبه، وبينما يشير إلى أحد الأعمدة اندفع قائلًا: «ألا تود المشاركة في إقامة مملكة الرب يا سيدي؟»

ألقيت نظرة على الجزء الذي يُشير إليه. كان يعلن عن بعثة تبشيرية جديدة إلى الصين، وعلى رأس قائمة المتبرعين كان اسم «السيد جون بوردج، مائة جنيه.»

قلت مناولًا إياه الصحيفة: «يا له من تبرُّع سخي يا سيد بوردج.»

فرك يدَيه معًا وقال: «سوف يردُّه إليَّ الرب أضعافًا مضاعفةً.»

حينئذٍ استطردت: «في هذه الحالة، ألا يستحسن أن تحتفظ بإيصال بالمبلغ الذي دفعتَه مقدمًا؟»

وجَّهَت عيناه الصغيرتان نظرةً حادة إليَّ، لكنه لم يرد، فصافحتُه مودِّعًا ثم غادرت.

الرجل المُولَع بالهوايات

بام. بام. بام-بام. بام.

استيقظتُ مِن نَومي، ثم اعتدلتُ جالسًا على السرير أُنصت بإمعان. بدَت لي الضجة وكأنها صادرة عن مطرقة مكتومة الصوت يستخدمها أحدهم محاولًا هدم الحائط طوبة تلو الأخرى.

«لصوص البيوت!» هكذا حدثتني نفسي (فالمرء يفترض، بحكم العادة، أنَّ أي شيء يحدث في العالم بعد الساعة الواحدة صباحًا يكون بفعل لصوص البيوت)، وطفقت أفكِّر يا لها من طريقةٍ غريبة لاقتحام البيت، فهي بطيئة ومرهقة.

استمرَّت أصوات الطَّرق بوتيرة غير منتظمة لكن دون انقطاع.

كان سريري يحاذي النافذة؛ لذا مَددتُ يدي وأَزحتُ طرف الستائر، فتسرَّب ضوء الشمس داخل الغرفة. نظرت إلى ساعتي، إنها الخامسة وعشر دقائق صباحًا.

غريب أن يعمل اللصوص في هذه الساعة، سيحين وقت الإفطار قبل أن ينجحوا في اقتحام البيت.

فجأة سمعت صوت تهشُّم زجاج، ثم سقط شيءٌ ما على الأرض بعدما ارتطم بالستارة. انتفضت قائمًا من السرير وفتحتُ النافذة على مصراعيها.

أسفل النافذة، وقع بصري على شاب حديث السن، أحمر الشعر، لا يرتدي سوى كنزة وبنطال رياضي خفيف، واقفًا على العشب.

«صباح الخير» قالها في ابتهاج ثم أضاف: «هلا أرجعت إليَّ كرتي؟»

رددتُ متسائلًا: «أي كرة؟»

فأجابني: «كرة التنس الخاصة بي، لا بد أنها في مكان ما بحجرتك، لقد اخترقت النافذة مباشرة.»

عثرت على الكرة ورميتها له.

ثم سألته: «ماذا تفعل بالضبط؟ هل تلعب التنس؟»

أجاب: «لا، أنا أتمرَّن فحسب برمي الكرة على حائط البيت. فلهذا التدريب تأثيرٌ رائع على تحسين أدائي في اللعب.»

رددت، بقدر من الفظاظة، قائلًا: «أخشى أنه لا يُحسِّن من جودة نومي، لقد قدمت إلى هنا لأجل الهدوء والسكينة، ألا تستطيع التدرُّب نهارًا؟»

ضحك قائلًا: «نهارًا! لقد أصبحنا نهارًا بالفعل، منذ ساعتَين! لا عليك، سأتمرن عند الجانب الخلفي من البيت.»

ثم اختفى وراء المنزل، وواصل عمله بالخلف، حيث أيقظ الكلب. وبعدها سمعت صوت تحطُّم نافذة أخرى، يليه صوت أحد النزلاء يستيقظ من النوم مُحدِثًا جلبة في جزء قَصيٍّ من البيت، ولا بد أن النعاس غلبني مجددًا بعد ذلك بوقتٍ قصير.

كنت قد قدمتُ لقضاء بضعة أسابيع في نُزُل بمدينة ديل. وكان هو الشاب الآخر الوحيد بالمنزل؛ لذا بدا من الطبيعي أن أقضي وقتًا كبيرًا في صحبته. كان شابًّا لطيفًا وودودًا، لكني كنت سأستمتع بصحبته أكثر لو كان أقل ولعًا بلعبة التنس.

كان يلعب التنس عشر ساعات يوميًّا في المتوسط. وكان يُنظِّم مجموعات من أفراد ذَوِي مزاج رومانسي كي يلعبوا التنس في ضوء القمر (وحينها كان نصف وقته يضِيع في محاولة تمييز خصومه في الظلام)، ومجموعات من غير المؤمنين كي يلعبوا التنس أيام الأحد. وقد شهدته في الأيام الممطرة يتمرَّن على ضربات الإرسال وحده مرتديًا معطفًا من المشمع وحذاءً مطاطيًّا.

وعندما سافر ليقضي الشتاء مع أهله في مدينة طنجة، سألته بعد عودته عن رأيه في المدينة.

رد قائلًا: «أوه، يا لها من مدينة صغيرة بشعة! تصوَّر لا يوجد ملعب تنس واحد في أي مكان. وعندما حاولنا اللعب فوق سطح المنزل، اعترضت أمي بداعي خطورة ذلك.»

بَيْد أنه سُرَّ أيما سرور بزيارة سويسرا. ونصحني بالإقامة في مدينة زيرمات في زيارتي القادمة للبلاد.

ثم استطرد قائلًا: «ثمة ملعب تنس ممتاز في زيرمات، وكأنك تلعب في ويمبلدون.»

أخبرني صديقٌ مشترك لاحقًا أنهما كانا واقفين على قمة جبل يونجفراو في سويسرا عندما قال له وعيناه مثبتتان على هضبة ثلجية صغيرة تحدُّها المنحدرات من كل جانب

وتبعد بضع مئات من الأقدام أسفلهما: «يا إلهي! لا أصدق ما أراه! هذه الهضبة تصلح ملعب تنس صغيرًا لا بأس به على الإطلاق؛ انظر إلى هذا الجزء المسطَّح هناك. لكن على المرء أن يأخذ حذره فيها ولا يتراجع بظهره كثيرًا أثناء اللعب.»

وعندما كان لا يلعب التنس أو يتدرب على التنس أو يقرأ عن التنس، كان يتحدث عن التنس. وكان رينشو، لاعب التنس البريطاني والمصنف الأول عالميًّا، شخصية بارزة في عالم التنس وقتها، فكان يواظب على ذكره حتى تولدت في نفسي رغبة شريرة في قتل رينشو بطريقة لا تسبِّب ضجة ولا تلفت الأنظار ثم دفنه.

في ظهيرة يوم شهد أمطارًا غزيرة، أخذ يتحدث معي عن التنس طوال ثلاث ساعات متواصلة، ذاكرًا رينشو حوالي أربعة آلاف وتسعمائة وثلاث عشرة مرة، حَسْبما أحصيت. وبعدما تناول وجبة الظهيرة الخفيفة واحتسى الشاي، سحب كرسيه نحو النافذة كي يجلس بجواري واستأنف حديثه قائلًا: «هل لاحظت من قبلُ الطريقة التي يتبعها رينشو في …»

قاطعته قائلًا: «تخيَّل أن شخصًا ما ابتاع مسدسًا — شخص بارع في التصويب — وأطلق الرصاص على رينشو حتى أزهق روحه، هل سيتوقف عندئذٍ لاعبو التنس من أمثالك عن الحديث عنه ويتحدثون عن أحد غيره؟»

رد باستياء: «لكن، مَن ذا الذي سيُطلق الرصاص على رينشو؟»

قلت: «دعك من هذه التفاصيل، افترض أن أحدهم فعل ذلك، ما قولك؟»

قال: «حسنًا، في هذه الحالة، سيظل أخوه موجودًا.»

كنت قد نسيت ذلك.

فتابعت: «طيب، لن أخوض معك في حديث حول عدد إخوة رينشو. افترض فحسب أنَّ أحدهم قتل آل رينشو جميعًا، هل سيقل حينئذٍ عدد المرات التي ستأتي فيها على سيرته؟»

رد مشددًا على كل حرف: «أبدًا. سيُذكر اسم رينشو دومًا أينما ذُكر التنس.»

ولا أجرؤ على التفكير فيما كان سيتمخَّض عنه الحديث لو كان قد أجاب بخلاف ذلك.

في العام التالي هجر التنس كليًّا، وأصبح مصوِّرًا هاويًا متحمسًا، وحينها ترجَّاه جميع أصدقائه أن يعود إلى التنس، وسعوا إلى جره إلى الحديث عن ضربات الإرسال والرد والضربات الطائرة، وعن نوادر رينشو. لكنه لم يحفل بهم.

وهكذا، أخذ يلتقط صورًا لكل ما يراه، أينما ذهب؛ صور لأصدقائه جعلتهم أعداءه، صور لأطفال رُضَّع فطرت قلوب أمهاتهم، صور لزوجات شابات أشاعت الكآبة في عش

الزوجية. ويُحكى أنَّ شابًّا أحبَّ فتاة رأى أصدقاؤه أنها غير مناسبة له، لكنهم كلما عدَّدوا مثالبها زاد تعلُّقه بها. حتى خطرت بذهن الأب فكرة نيرة؛ فقد طلب من بيجليلي، وهو اسمه بالمناسبة، أن يصورها في سبعة أوضاع مختلفة.

وعندما رأى الابن العاشق الصورة الأولى قال: «يا له من كائن بشع! مَن التقط هذه الصورة؟»

وبعدما عرض بيجليلي عليه الصورة الثانية، كان رده: «لكن، اسمح لي، هذه الصورة لا تشبهها البتة، لقد جعلتها تبدو امرأة عجوزًا قبيحة.»

وبعد الصورة الثالثة، قال: «ما هذا الذي فعلته بقدمَيها؟ لا يمكن أن تكونا بهذا الحجم. هذا غير طبيعي بالمرة!»

ثم صاح مندهشًا بعد الصورة الرابعة: «يا للهول! انظر إلى هذا الوضع الذي جعلتها تتخذه. كيف تفتق ذهنك عن تلك الفكرة؟»

ولمحةٌ خاطفة للصورة الخامسة جعلته يترنَّح، ثم صرخ مرتجفًا: «أعوذ بالله! ما هذا التعبير الشنيع الذي يعلو وجهها؟! إنه لا يمت لعالم البشر بصلة!»

بدأت تظهر على بيجليلي علامات الاستياء، بَيْد أن الأب، الذي كان حاضرًا، هبَّ لنجدته.

فقال السيد العجوز في لباقة: «ليس لبيجليلي يد في ذلك. لا يمكن أن يكون الخطأ خطأه. ما المُصوِّر؟ إنه ليس سوى أداة في يد العلم. إنه يعدُّ جهازه، وأيًّا ما كان أمام عدسة الكاميرا ينعكس بداخلها.»

ثم استطرد، واضعًا يدًا حاسمة على يد بيجليلي، الذي كان على وشك مواصلة عرض الصور: «لا ... لا تُره الصورتين الباقيتين.»

وقد أسفت لمصير الفتاة المسكينة؛ إذ اعتقدت أنها كانت تحبُّ الفتى حقًّا؛ أما فيما يخص جمالها، فقد كانت متوسطة الجمال دون شك. لكن روحًا شريرة على ما يبدو قد حلَّت بكاميرا بيجليلي، فجعلتها تنقضُّ على العيوب بغريزة الناقد الموهوب التي لا تُخطئ، وتضخمها حتى تحجب غيرها من الفضائل. فإذا كان لرجل ما بثرة على وجهه فإنه يتحول في الصورة إلى بثرة يتدلى منها رجل. أما الأفراد الذين يتسمون بملامح بارزة وواضحة فكانوا يظهرون في الخلفية وراء أنوفهم. أحد سكان الحي كان يرتدي شعرًا مستعارًا، دون أن يلاحظ أحد، طوال أربعة عشر عامًا، حتى كشفت كاميرا بيجليلي الخدعة في ثوانٍ، وتَجلَّت الحقيقة بكل بوضوح حتى تعجَّب أصدقاء الرجل لاحقًا كيف أغفلوا أمرًا كهذا. وبدا أن الآلة تستمد متعة خفية من إظهار البشر في أسوأ أحوالهم. فإذا التقطت صورًا

لأطفال رُضَّع، كانت تكسي وجوههم عادةً بتعبير ماكر خبيث. ومعظم الفتيات الصغيرات كنَّ يبدون حمقاوات تعلو وجوههن ابتسامة سخيفة، أو نساء مشاكسات لا يزلن في طور التكوُّن. أما العجائز المسالمات فكانت تمنحهن نظرة عدائية مستخفة. وحتى القس، وهو رجل متقدم في العمر لا يوجد مَن يماثله تهذيبًا، تحوَّل على يد بيجليلي إلى رجل همجي كث الحاجبَين تبدو عليه سمات الغباء؛ أما محامي البلدة المحترم فقد كسَت وجهه بتعبير من النفاق المكشوف حتى إن معظم مَن رأوا الصورة قرَّروا ألا يعهدوا إليه بشئونهم مجددًا أبدًا.

أما فيما يخص صورتي، فربما كان حَريًّا بي ألا أعلِّق، فأنا طرفٌ متضرِّر على كل حال. لذا سأكتفي بالقول إنه إذا كنت أُشبه بأي شكل من الأشكال الصورة التي التقطها لي بيجليلي، فإن للنقاد كامل الحق في كل ما قالوه عني في أي وقت وأي مكان. ولا أزعم أن لي قوامًا في رشاقة الإله أبوللو، لكنني أؤكد لكم أن إحدى ساقَيَّ لا يبلغ طولها ضعف طول الساق الأخرى ولا تنحني لأعلى، وإني قادر على إثبات ذلك. وبالرغم من أن بيجليلي اعترف أنَّ حادثًا قد وقع للصورة السلبية أثناء تحميضها ما أدَّى إلى ظهوري بهذا الشكل، فإن هذا التفسير لا يظهر في الصورة ولا يمنع إحساسي بأن ظلمًا قد وقع عليَّ.

لقد بدا أن منظوره لا يخضع لأي قانون بشري أو إلهي. ففي إحدى المرات عرض عليَّ صورة لعمه واقفًا بجوار طاحونة هواء، وأتحدى أيًّا من ذَوِي العدل والإنصاف أن ينظروا إلى الصورة ويحددوا مَن الأكبر حجمًا: العم أم طاحونة الهواء.

وفي واقعة أخرى، أثار فضيحة بين أبناء الأبرشية عندما عرض صورة لشابة أرستقراطية معروفة وتحظى بوافر الاحترام بينما يجلس رجلٌ شاب على ركبتَيها! لم يكن وجه الرجل واضحًا في الصورة، لكنه كان يرتدي زيًّا صبيانيًّا سخيفًا بالنسبة إلى حجمه وطوله الذي يقترب، حَسْب الصورة، من مترين تقريبًا. وكان يلف ذراعًا حول عنقها ويده الأخرى تعانق يدها بينما يبتسم ابتسامة ماكرة.

ولأني على دراية ببعض ألاعيب كاميرا بيجليلي، فقد صدقت تفسير الفتاة الشابة لما ظهر بالصورة دون ذرة تردُّد؛ ومفاده أنَّ الرجل المزعوم هو ابن أختها الذي يبلغ من العمر أحد عشر عامًا. بَيْد أن بعضًا من أعضاء الأبرشية المتشددين سخَّفوا ما قالته، وقطعًا لم يكن الظاهر في الصورة في صالحها.

كانت تلك الأيام هي بداية موضة التصوير الفوتوغرافي، وبدا أنَّ الناس، حديثي العهد بهذه التقنية، مأخوذون بفكرة التقاط صورهم بمقابل زهيد، ما نتج عنه أنَّ جميع أهل

الأبرشية تقريبًا ممَّن يسكنون على نطاق ثلاثة أميال من بيت بيجليلي جلسوا في مناسبة ما أو وقفوا أو اضطجعوا أمام كاميرته. ولو كانت أبرشيتنا أقل غرورًا مما هي عليه لكان من الصعب أن تكابد ما تمخض عن ذلك من عواقب. فكل مَن وقعت عيناه على الصورة التي التقطها له بيجليلي لم يشعر مجددًا أبدًا بأي اعتزاز بمظهره الشخصي، وظلَّت الصورة دومًا انكشافًا لا يُمحى من ذهنه.

لاحقًا، اخترع وغدٌ ما كاميرات كوداك المحمولة، فرأينا بيجليلي يتجوَّل في كل مكان معلِّقًا على صدره جهازًا يشبه صندوق تبرعات الكنيسة لكن يفوقه حجمًا، وشاع أنَّ كل ما عليه فعله الآن هو الضغط على زر في الجهاز وستتكفل الشركة، بلا وازع من ضمير أو أخلاق، بباقي الخطوات. وهكذا أضحت الحياة جحيمًا مقيمًا لأصدقاء بيجليلي. لم يعُد أحد يجرؤ على القيام بأي نشاط خوفًا من أن تصوره الكاميرا متلبسًا بفعلته. فقد الْتقطَ بيجليلي صورة عفوية لأبيه بينما يسب البستاني، وصورة سريعة لصغرى شقيقاته مع حبيبها في لحظة الوداع الحميمية عند بوابة الحديقة. لم يكن يُراعي حرمة الأحياء ولا الأموات. لما صَوَّر جنازة خالته، الْتقطَ صورة من الخلف لأحد أقرب أقارب الفقيدة بينما يهمس بقصة مضحكة في أذن أحد أبناء عمومته وهما واقفان بجانب القبر وكلٌّ منهما يرفع قبعته أمام وجهه.

كان الاستياء العام قد بلغ ذروته عندما اقترح ساكنٌ جديد في الحي، وهو شاب يُدعى هاينوث، تنظيم رحلة جماعية إلى تركيا في فصل الصيف. تحمَّس الجميع للفكرة بَيْد أنهم رشَّحوا بيجليلي وحده لها. كنا جميعًا نعلِّق آمالًا عريضة على هذه الرحلة. فقد توقعنا أنه سوف يضغط على زر كاميرته في جناح الحريم مثلًا أو يلتقط صورة للسلطانة من الخلف وسيتكفل حرس القصر أو أحد جنود الإنكشارية بتخليصنا منه.

لكننا مُنينا بخيبة أمل جزئية، وأقول «جزئية» لأن بيجليلي عاد حيًّا، بَيْد أنه شُفي كليًّا من جنون التصوير الذي تلبَّسه قبلًا. حكى لنا أنَّ كل مَن لقيه من متحدثي الإنجليزية، سواء كان رجلًا أو امرأة أو طفلًا، كان يحمل كاميرته الخاصة معه، وبعد فترة من الزمن أصبح مرأى الكاميرات وسماع صوت الضغط على الزر يثير جنونه.

حكى لنا أيضًا أنَّه فوق قمة جبل تاترا في سلسلة جبال كاربات، كان على هواة التصوير من الإنجليز والأمريكيين الراغبين في الْتِقاط «صورة بانورامية للمشهد» الوقوف اثنين اثنين، وكلٌّ منهم يحمل كاميرته تحت ذراعه أو ذراعها، في طابور طويل نظَّمَته الشرطة المَجَرية، وأنَّه في بعض الأحيان كان على المرء الانتظار ثلاث ساعات ونصفًا حتى يحين دوره. وأخبرنا أيضًا أنَّ شحاذي إسطنبول يتجوَّلون في المدينة بينما تتدلى من

أعناقهم لافتة تُحدِّد ما يتقاضونه من أسعار لقاء تصويرهم. وقد أحضر معه واحدة من قوائم الأسعار تلك كي يُرينا إياها.

وكانت تنص على الآتي:

- صورة سريعة من الخلف أو الأمام: ٢ فرنك
- صورة بتعبير محدَّد على الوجه: ٣ فرنك
- صورة بتعبير من الدهشة المحبَّبة: ٤ فرنك
- صورة أثناء أداء الصلاة: ٥ فرنك
- صورة أثناء الشجار: ١٠ فرنك

وأضاف أنَّ بعض الرجال، ممَّن حباهم الله بسحنة تقطر شرًّا أو المشوهين على نحو فائق للمعتاد، كانوا يطلبون نحو ٢٠ فرنك في صورة ويحوزون مرادهم بسهولة.

هكذا هجرَ بيجليلي التصوير، لكنه تحوَّل إلى لعب الجولف. ومن ثَم بدأ يعلِّم أصدقاءه كيف يحوِّلون ملعب التنس إلى ملعب جولف مصغر عَبْر حَفْر حفرة هنا ووضع طوبة أو اثنتين هناك، وتولى القيام بذلك نيابةً عنهم. وأقنع سيدات مُسنَّات ورجالًا عجائز بأن ممارسة الجولف من أسهل الأنشطة الرياضية، وكان يجرجرهم وراءه عدة أميال فوق مروج يغطِّيها العشب البرِّي والشجيرات الشائكة ثم يُعيدهم إلى منازلهم، مُنهكي القوى، آخِذين في السعال، لاعنين إياه في سرهم.

لقيته آخر مرَّة في سويسرا منذ بضعة أشهر. وبدا حينها زاهدًا في الحديث عن الجولف، لكنه أسهب في الحديث عن لعبة الويست. كنا قد التقينا بالصدفة في قرية جريندلفالد، واتفقنا على تسلُّق جبل فالهورن معًا في صباح اليوم التالي. وبعدما قطعنا نصف المسافة، جلسنا لنستريح، ثم ذهبتُ لأتمشى قليلًا وحدي مُستطلِعًا المنظر، ولما عدتُ وجدته جالسًا وبيده علبة من أقراص التبغ المضغوط وأمامه مجموعة من كروت أوراق اللعب مبسوطة فوق العشب، وقد شرع في اللعب!

الرجل الذي لم يُؤمِن بالحظ

صعد إلى القطار من محطة إبسوتش حاملًا سبع صحف أسبوعية مختلفة تحت ذراعه. لاحظت أن جميعها تبيع لقرائها تأمينًا ضد الموت أو الإصابات الناجمة عن حوادث القطارات. رتَّب أمتعته على الرف الذي يعلو مقعده، وخلع قبعته ووضعها على الكرسي بجانبه، ثم مسح رأسه الأصلع بمنديل حريري أحمر، وشرع في كتابة اسمه وعنوانه على كل صحيفة من الصحف السبع. كنت أجلس في المقعد المقابل له وأقرأ مجلة «بانش» الساخرة، التي اعتدت أن آخذها معي أثناء السفر لتأثيرها المهدئ للأعصاب.

تمايل القطار أثناء مروره عَبْر نقاط التحويل في مدينةماننجتري، وعندئذٍ انزلقت حدوة حصان، كانت موضوعة بعناية على الرف الذي يعلوه، عَبْر الشبكة التي تحمي الأمتعة وسقطت فوق رأسه مُحدِثة وقعًا موسيقيًّا.

لم يبدُ متفاجئًا أو غاضبًا، وبعدما أوقف نزيف الجرح بمنديله، انحنى كي يلتقط حدوة الحصان الساقطة، ونظر إليها نظرة لوم، ثم ألقاها برفق من نافذة القطار.

سألته: «هل آلمتك؟»

كان سؤالًا غبيًّا. وقد أدركت ذلك ما إنْ تفوَّهتُ به. لا بد أن وزن تلك الحدوة يفوق كيلوجرامًا؛ إذ كانت أكبر وأثقل من المعتاد. فضلًا عن أن النتوء الناتج عن ارتطامها برأسه كان يزداد تورُّمًا أمام ناظري. بدا جليًّا أنه يتألم، ومَن لا يلاحظ ذلك ليس سوى أحمق. توقَّعتُ أن يردَّ عليَّ بحِدة. لو كنت مكانه لفعلت ذلك. لكن يبدو أنه رأى سؤالي تعبيرًا طبيعيًّا وودودًا عن التعاطف.

أجابني: «نعم، آلمتني قليلًا.»

سألته: «ماذا كنت تفعل بها؟» فمن الغريب أن يسافر المرء مصطحبًا معه حدوة حصان.

رد قائلًا: «كانت مُلقاة على الطريق أمام المحطة. أخذتها كي تجلب لي الحظ الحسن.»

أعاد طيَّ منديله كي يضع جانبه الأبرد على الورم برأسه، في حين غمغمت أنا بشيء ما عن غموض العناية الإلهية، معبرًا عن تعاطفي.

وأردف: «أجل. طالما لعب الحظ دورًا في حياتي، لكنه لم يكن أبدًا حظًّا حسنًا.»

ثم استطرد قائلًا: «وُلدت يوم أربعاء، وهو كما تعرف اليوم الأسعد حظًّا بين أيام الأسبوع. تُوفي أبي وصارت أمي أرملة، لكن جميع أقاربي عزفوا عن مساعدتي، زاعمين أن حظي الوفير يغنيني عن الحاجة إلى العون بما أنني ولدت يوم أربعاء؛ ومن ثَم عندما تُوفي عمي ترك ثروته كلها لأخي سام، تعويضًا بسيطًا له على كونه وُلد يوم جمعة. لم يقدِّم لي أحد سوى نصائح حول الواجبات والمسئوليات التي ستقع على عاتقي ما إن أحوز الثراء، وناشدوني ألا أقصِّر في حق مَن يجب عليَّ رعايتهم حين أصير رجلًا ثريًّا.»

توقَّف لبُرهة عن الحديث كي يطوي الصحف التأمينية العديدة التي يحملها ويضعها في الجيب الداخلي لمعطفه.

ثم تابع قائلًا: «يُقال أيضًا إن القطط السوداء تجلب الحظ الحسن. وقد تبعني قط لم أرَ أشد سوادًا منه إلى مسكني بشارع بولسوفر في أول ليلة قضيتها به.»

توقف عن الحديث، فسألته: «هل جلب لك الحظ؟»

شردت عيناه ثم أجابني: «لا أعرف تحديدًا، تلك الأمور نسبية. انفصلتُ عن خطيبتي وقتها، ربما لم تتوافق طباعنا منذ البداية، يظل هذا الاحتمال قائمًا. لكني وددت لو أُتيحت لي الفرصة لإنجاح علاقتي معها.»

شخصَ بصره عَبْر النافذة، ولوهلة لم أرغب في التطفُّل على ذكريات بدا واضحًا أنها أليمة.

بَيْد أنني سألته أخيرًا: «ماذا حدث آنذاك؟»

أفاق من تأمُّلاته ثم قال: «حادِثٌ تافِه. كانت مضطرة إلى قضاء بعض الوقت خارج لندن، فأعطتني طائر الكناري الذي تُربيه كي أعتني به أثناء غيابها.»

اندفعت قائلًا: «لكن ما فعله القط ليس خطأك.»

وافقني قائلًا: «لا، على الأرجح. لكنه أشاع برودًا في علاقتنا، سرعان ما استغله الآخرون لمصلحتهم.»

ثم أضاف، محدِّثًا نفسه على الأرجح: «وقد عرضت عليها أن تأخذ القط كذلك.»

جلس يدخِّن في صمت، وشعرت أن أي عبارات مواساة يتفوَّه بها غريب مثلي سيكون أثرها واهيًا.

نفض رماد غليونه فوق إطار النافذة وأضاف: «الأحصنة المُرقَّطة تجلب الحظ أيضًا. وقد امتلكتُ حصانًا مُرقَّطًا من قبل.»

سألته: «ماذا فعل بك؟»

رد ببساطة: «فقدت بسببه أفضل وظيفة حصلت عليها. تحمَّلَني صاحب العمل لفترة أطول مما توقَّعتُ، لكن من الصعب الإبقاء على موظف في حالة سُكر دائمة. فسوف يُسيء ذلك إلى سُمعة الشركة.»

وافقته قائلًا: «بالتأكيد».

تابع حديثه: «صدِّقني، لم أكُن قطُّ من مُحبِّي الخمور. بعض الرجال لا تفرق معهم هذه الأمور، لكن في حالتي كنت أشعر بالاضطراب ما إن أرتشف الكأس الأول. لم أعتد قطُّ تأثير الخمر.»

سألته مجددًا: «لكن لمَ اكتسبتَ تلك العادة؟ فالحصان لم يدفعك إلى شرب الخمر، أليس كذلك؟»

شرح لي الأمر، بينما كان يدلك برفقٍ النتوء في رأسه، الذي صار الآن في حجم بيضة. قال: «حسنًا، إليك ما حدث: قبل أن أمتلك هذا الحصان، كان يخصُّ تاجر نبيذ ومشروبات روحية، وكان هذا التاجر معتادًا على زيارة كل حانة تقريبًا في الطريق حسب مقتضيات عمله، والنتيجة أن ذلك الحصان الصغير لم يستطع تجاوز أي حانة يمرُّ عليها وأضحى إجباره على ذلك مهمة صعبة، بالنسبة لي على الأقل. كان يلمح الحانة على بُعد أربعمائة متر ويتجه مباشرةً نحو الباب. في أول الأمر، كنت أحاول جاهدًا دفعه إلى التحرُّك بعيدًا عن الحانة، لكن تلك العملية كانت تستغرق من خمس إلى عشر دقائق في المرة، وكان حشد من الناس يتجمَّع حولنا كي يراهنوا مَن منا سينتصر على الآخر. أظن أنني كنت سأواصل كفاحي معه لولا أنه في أحد الأيام وقف شاب من أنصار حركة الاعتدال يُلقي خطبة أمام الحشد في الجهة المقابلة من الشارع. وصفني فيها بـ «الحاج» وأسمى الحصان الصغير «بوليون» أو اسمًا من هذا القبيل، وظلَّ يصيح بأن عليَّ أن أصارعه كي أحوز قصرًا في الجنة. بعد ذلك، صار الناس يشيرون إلينا بعبارة «بولي والحاج يتعاركان في سبيل القصر السماوي.» أغضبني ذلك حقًّا، وعندما توقف الحصان في الحانة التالية ترجَّلتُ ودخلت الحانة حيث طلبت كأسَين من الويسكي.

وهكذا بدأتُ في معاقرة الخمر. قضيت سنوات حتى استطعت التخلُّص من هذه العادة. لكن حياتي ظلَّت تسير على المنوال نفسه. فبعدما حصلتُ على وظيفة جديدة، لم أكَد أقضي أسبوعَين بها حتى أعطاني صاحب العمل إوزة تزن ثمانية كيلوجرامات هدية في عيد الميلاد.»

علَّقتُ قائلًا: «لا تقُل لي إن الإوزة آذَتْك. لا شيء يجلب الحظ الحسن مثل إوزة.»

رد قائلًا: «هذا ما قاله لي باقي الموظفين. قالوا إن المدير العجوز لم يُعطِ أحدًا شيئًا قطُّ طوال حياته، وقالوا إنه «مُعجَب بي» وأنني «وغد محظوظ!»»

ثم أطلق تنهيدة عميقة، فاستشعرت أن ثمَّة قصة وراء هذا الحدث. فسألته: «ماذا فعلت بها؟»

أجابني: «تلك كانت المشكلة، لم أدرِ ماذا أفعل بها. لقد أعطاني إياها في الساعة العاشرة مساءً ليلة عيد الميلاد وأنا على وشك مغادرة المكتب. قال لي وأنا أساعده على ارتداء معطفه الضخم: «الإخوة تيدلنج أرسلوا إليَّ إوزة يا بيجليز، ذلك كرم بالِغ منهم، لكني لا أريدها، يمكنك أن تأخذها!» شكرتُه بالطبع وأبديتُ امتناني. فتمنَّى لي عيد ميلاد سعيدًا ثم خرج. لففتُ الطائر بورق بُنِّي وحملته تحت ذراعي. كانت حالته جيدة لكنه كان ثقيلًا. فكرت أن أكافئ نفسي بكوبٍ من البيرة، احتفالًا بعيد الميلاد. ومن ثَم دلفت إلى حانة صغيرة عند ناصية الشارع ووضعت الإوزة على الطاولة.

علَّق صاحب الحانة: «يا له من طائر كبير. سوف تحظى بوجبة دسمة غدًا.»

دفعتني كلماته إلى التفكير وأدركتُ للمرة الأولى أني لا أريد تلك الإوزة. إنها لن تنفعني بشيء على الإطلاق. كنت سأقضي العطلة مع أهل خطيبتي الشابة في مقاطعة كنت.»

قاطعته سائلًا: «أكانت تلك هي الفتاة صاحبة الكناري؟»

رد: «لا، ارتبطت بهذه الفتاة قبل الأخرى. وكانت تلك الإوزة هي سبب فشل علاقتي بها. خلاصة القول، كان أهلها من كبار المزارعين في المقاطعة وبدا سخيفًا أن أجلب معي إوزة عند زيارتهم، ولم أعرف أحدًا في لندن يمكنني إعطاؤه إياها؛ لذا عندما اقترب صاحب الحانة من الطاولة مجددًا سألته إذا كان يودُّ شراء الإوزة. قلت له إنني سأبيعها له بثمن زهيد.

لكن رده كان: «لا أرغب بها، لديَّ ثلاث في البيت بالفعل. ربما يرغب أحد هؤلاء السادة في شرائها.»

ثم حوَّل بصره إلى رجلَين جالسَين يحتسيان الجن. لم يبدُوَا لي قادرَين على دفع ثمن الدجاجة التي كانا يأكلان منها. قال أشدهما وضاعة إنه يودُّ إلقاء نظرة عليها؛ لذا فككت اللفافة التي أحطتُها بها. شرع يفحص الطائر بخشونة بالغة، واستجوبني حول كيفية حصولي عليه، وفي خضم ذلك سكب نصف زجاجة من مشروب الجن المخلوط بالماء فوق الإوزة. وبعد ذلك عرض عليَّ ٣٠ بنسًا ثمنًا لها. شعرت بسخط بالِغ حتى إنني حملت الورق البُنِّي والخيط في يدٍ والإوزة في اليد الأخرى وغادرتُ الحانة على الفور دون أن أنطق بكلمة.

ظللتُ أحملها بهذه الطريقة لمسافة لا بأس بها؛ إذ كنت منفعلًا ولم أهتم بكيفية حملها؛ لكن ما إن هدأتُ حتى بدأت أفكِّر في مدى سخافة منظري. كان من الجلي أن صبيًّا أو اثنَين لاحظا الأمر نفسه. لذا توقفتُ أسفل أحد أعمدة الإنارة كي أحاول ربطها مجددًا. كنت أحمل حقيبة ومظلة في الوقت نفسه، وهكذا ما إن بدأتُ حتى سقطت الإوزة مني في قناة الصرف، وهو أمر كان عليَّ توقُّعه لأني كنت أحاول الإمساك بأربعة أغراض منفصلة وثلاث ياردات من الخيط بيديَّ الاثنتَين فقط. الْتَقطتُها حاملًا معها قدرًا لا بأس به من الطين استقرَّ معظمه على يديَّ وملابسي وتلطَّخ الورق البُنِّي بما تبقى منه؛ بعد ذلك، بدأت السماء تمطر.

حملت كل شيء بين ذراعَيَّ وتوجَّهتُ نحو أقرب حانة، حيث فكرت أن بوسعي طلب قطعة إضافية من الخيط كي أتمكَّن من ربط الإوزة كما ينبغي.

كانت الحانة مزدحمة، وشققت طريقي حتى بلغت طاولة تقديم المشروبات وألقيت الإوزة أمامي. قطع الرجال بجواري حديثهم ونظروا إلى الطائر.

علَّق شاب كان واقفًا بجانبي بقوله: «حسنًا، لقد قتلتها برميتك تلك». أقرُّ بأنني بدوتُ منفعلًا بعض الشيء.

كنت قد نويت أن أحاول بيعها مجددًا هنا، لكن بدا واضحًا أن روَّاد تلك الحانة ليسوا من النوع الذي قد يبتاع إوزًا. تجرَّعت كوبًا من البيرة؛ لأني كنت أشعر بالحَر والإرهاق، ونظَّفتُ الطائر من الطين قدر استطاعتي، ولففته من جديد في الورق البُنِّي، ثم خرجت من الحانة.

وبينما كنتُ أعبُر الطريق، خطرَت لي فكرة رائعة. فكَّرتُ أن أطرح الإوزة جائزة في يانصيب. وعلى الفور شرعت في البحث عن حانة حيث يمكنني العثور على أناس يرغبون في المشاركة في مسابقة من هذا النوع. كلفني البحث احتساء ثلاثة أو أربعة كئوس من

الويسكي، فلم أكُن أرغب في احتساء المزيد من البيرة لأنها تصيبني بالتوعك، وأخيرًا عثرت على الجمهور الذي أبحث عنه؛ مجموعة من الرجال العاديين في حانة صغيرة متواضعة بالقرب من شارع جوزويل رود.

شرحت غرضي لصاحب الحانة. لم يعترض لكنه اقترح أن أبتاع مشروبات لكل مَن في الحانة بعد أن أحقق غرضي. قلت له إن ذلك سيكون من دواعي سروري ثم عرضت عليه الإوزة.

قال الرجل، وكان من مقاطعة ديفونشاير: «تبدو مريضة بعض الشيء.»

قلت مفسِّرًا: «لا ليست مريضة. لقد وقعت مني ليس إلا. تلك القذارة يمكن إزالتها بالماء.»

أضاف: «رائحتها غريبة بعض الشيء أيضًا.»

قلت: «تلك رائحة الطين. وما أدراك ما طين لندن. فضلًا عن أن أحد الرجال بالحانة سكب بعض الجن فوقها. لكنَّ أحدًا لن يلاحظ ذلك بعدما تُطهى.»

علق الرجل: «حسنًا، لا أظن أنني سأشارك في هذا اليانصيب، لكن في وسع أيٍّ من السادة الحاضرين المشاركة به إذا رغبوا في ذلك.»

لم يُبدِ أحد حماسًا للمشاركة. بدأت اليانصيب بعرض تذاكر بقيمة ستة بنسات، وأخذت تذكرة لنفسي. أخذ النادل تذكرة مجانية مقابل الإشراف على المسابقة، ونجح في حث خمسة رجال آخرين على المشاركة معنا، رغمًا عن إرادتهم إلى حدٍّ كبير. وفي آخر الأمر فُزتُ أنا بالإوزة ودفعت خمسة بنسات ثمنًا للمشروبات. وبينما كنت أغادر الحانة، استيقظ فجأةً رجل وَقور كان يشخِّر في أحد الأركان، وعرض عليَّ شراء الإوزة مقابل سبعة بنسات ونصف؛ ولم أفهم قطُّ لمَ عرض سبعة بنسات ونصف تحديدًا. لو أخذها كان سيخلِّصني منها ولن تقع عيناي عليها مجددًا، وربما كانت حياتي كلها ستتخذ مسارًا مختلفًا. لكن القدر طالما عاندني. رددتُ عليه بعجرفة لا داعي إليها قائلًا إنني لست مؤسسة خيرية تقدِّم عشاءً للمحتاجين في عيد الميلاد، وخرجت من الحانة.

تأخَّر الوقت، ولا يزال عليَّ مشي مسافة كبيرة حتى أصل إلى مسكني. بدأت أتمنَّى لو أنني لم أرَ ذلك الطائر أبدًا. قدَّرتُ وقتها أن وزنه يبلغ ١٦ كيلوجرامًا تقريبًا.

خطر بذهني أن أبيعها لفرارجي. أخذتُ أبحث عن متجر حتى وجدت واحدًا في شارع ميدلتون. لم أرَ زبونًا واحدًا بالقُرب منه، بَيْد أن صاحب المتجر كان يصيح كما لو كان يدير جميع المحلات التجارية في شارع كليركنويل. أخرجت الإوزة من اللفافة ووضعتها على الرف أمامه.

سألني: «ما هذا؟»

قلت: «إوزة. سوف أبيعها لك بثمن زهيد.»

كان ردُّه أن أمسك بها من عنقها وألقاها في وجهي. حاولت تفاديها لكنها ارتطمت بجانب رأسي. إذا لم يضربك أحد قبلًا بإوزة على رأسك، فلن تستطيع تخيُّل مدى الألم الناجم عن ذلك. الْتقطتُها ورميتُها عليه لأردَّ له الضربة، وحينئذٍ دلف شرطي إلى المتجر صائحًا بالعبارة المعتادة: «ماذا يحدث هنا؟»

وضَّحتُ له حقيقة ما حدث. أما الفرارجي فقد خطا نحو حافة الرصيف والْتفتَ، موجِّهًا شكواه إلى الكون كله على ما يبدو: «انظر إلى متجري. لقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة بعشرين دقيقة، ولديَّ سبع دستات من الإوز معلَّقة هناك، وأنا على استعداد لتوزيعها دون مقابل، لكن هذا الأحمق يعرض عليَّ شراء إوزة أخرى.»

أدركت حماقة فكرتي، فامتثلت إلى نصيحة الشرطي وغادرت المتجر بهدوء حاملًا الإوزة معي.

عندئذٍ قلت لنفسي: «سوف أهديها لأحدهم. سوف أنتقي شخصًا فقيرًا محتاجًا وأعطيه هذا الطائر اللعين هدية.» ومررتُ على عدد كبير من الناس، لكن لم يبدُ لي أن أحدًا منهم يستحق هذه الهدية. بل بدا كلُّ مَن لقيتهم غير جديرين بالإوزة ربما بسبب الوقت الذي كنت أسير فيه أو الحي الذي كنت به. عرضتها على رجل في شارع جد، ظننته جائعًا. لكن اتضح أنه بلطجي ثمِل، حاولت إفهامه مقصدي دون جدوى، وظلَّ يتبعني لآخر الشارع وهو يشتمني بأعلى صوته، حتى انعطف دون أن يدري نحو شارع تافيستوك بلايس، حيث واصل الصياح على رجل آخر ظانًّا أنه أنا. وفي شارع إيستون رود، أوقفت طفلة تُعاني من سوء تغذية واضح ورجوتها أن تأخذها. لكنها ردَّت قائلة: «لا لست أنا!» ثم ركضت هاربة. ثم سمعتها تصيح خلفي بصوت حادٍّ: «مَن سرق الإوزة؟»

ألقيتُها في جزء مظلم من شارع سيمور. فالتقطها رجل وأرجعها إليَّ. كنت عاجزًا عن الجدال أو طرح المزيد من التفسيرات. أعطيتُه بنسَين، وجررت قدمي حاملًا إياها. كانت الحانات تتهيَّأ للإغلاق، فدلفت إلى واحدة لاحتساء مشروب أخير. في واقع الأمر، كنت قد احتسيت ما يكفي من الخمر، لا سيما أنني لا أشرب سوى كوب من البيرة بين الحين والآخر. لكنني كنت مغتمًّا، وظننت أنه ربما يخفِّف عني تناوُل كأس. تناولت كوبًا من الجن على ما أعتقد، وهو شراب أمقته.

عزمت على رميها في حديقة ميدان أوكلي، بَيْد أن شرطيًّا كان يراقبني وتبعني مرَّتين حول سور الحديقة. وفي شارع جولدينج رود، حاولت أن ألقيها في أي مكان، لكني عجزت

عن ذلك للسبب نفسه. بدا أن شرطة لندن بأسرها لم يكن لديها شاغل الليلة سوى منعي من التخلُّص من تلك الإوزة.

ولأنهم بدوا مشغولين إلى هذا الحد بها، تصوَّرتُ أنهم قد يرغبون في أخذها. وعليه ذهبت إلى أحدهم في شارع كامدين، دعوته «بوبي» وسألته إذا كان يرغب في إوزة.

رد بحدة: «ما أرغب به هو ألا تتحدَّث إليَّ بهذه الوقاحة.»

أخذ يكيل لي الإهانات، وبطبيعة الحال رددتُ عليه. لا أتذكر ما جرى بيننا على وجه التحديد، لكنه أفضى إلى إعلان عزمه إلقاء القبض عليَّ.

أفلتُّ منه وفررت ناحية شارع كينج. فأطلق صفارته وانطلق يركض ورائي. اعترض طريقي رجل خرج من مدخل أحد البيوت في شارع كوليدج وحاول إيقافي. عالجته بنطحة في معدته، وانعطفت نحو شارع كريسنت ثم عدتُ إلى شارع «كامدين رود» عَبر شارع بات.

وعندما بلغت الجسر فوق قناة ريجينت نظرت ورائي، ولم أرَ أحدًا. ألقيت الإوزة من فوق الحاجز، فسقطَتْ وتناثر الماء من حولها.

تنهَّدتُ في ارتياح ثم استدرت وعبَرتُ إلى شارع راندولف، وهناك أمسك بي شرطي. وبينما أتجادل معه جاء الشرطي الأحمق الذي تشاجرت معه أولًا وهو يلهث. أخبراني أن عليَّ تفسير ما حدث إلى المفتش العام، وكان هذا رأيي أيضًا.

سألني المفتش لمَ هربت عندما أراد الشرطي الأول اعتقالي. رددت بأني لم أُرِد أن أقضي عطلة عيد الميلاد في الزنزانة، وبدا واضحًا أنه لم يقتنع بهذا السبب الواهي. سألني عما ألقيته في القناة. قلت له إوزة. سألني لمَ ألقيتَ إوزة في القناة. أخبرته بأنني كنت قد ضِقتُ ذرعًا بذاك الطائر.

عندئذٍ جاء شاويش وأبلغنا أنهم نجحوا في استعادة اللفافة الملقاة في القناة. وعندما فتحوها فوق طاولة المفتش وجدوا بها رضيعًا ميتًا.

وضَّحتُ لهم أن تلك اللفافة لا تخصني وأن ذلك الرضيع ليس ابني، لكنهم لم يحاولوا حتى مداراة حقيقة أنهم لا يصدقونني.

قال المفتش إنه نظرًا إلى خطورة القضية فلن يسمح لي بالخروج مقابل كفالة، ولم يهمني ذلك بما أنني لا أعرف أحدًا في لندن كي يدفعها لي. أقنعتهم بإرسال برقية إلى خطيبتي كي أخبرها أن ظروفًا قاهرة اضطرتني إلى البقاء في المدينة، وقضيت يوم عيد ميلاد ويوم الصناديق في هدوء لم أكُن أتمنَّاه قطُّ.

في آخر المطاف، تبيَّن أن الأدلة ضدي لا تكفي لإدانتي، ومن ثَم وُجِّهَت لي تهمة مخفَّفة هي السُّكر وإثارة الشغب، وأُطلق سراحي لاحقًا. لكني فقدت وظيفتي وتركتني خطيبتي، وكرهت كل الإوز في العالم.»

اقترب القطار من شارع «ليفربول»، فجمع الرجل أمتعته، وتناول قبعته وحاول وضعها على رأسه. لكنه عجز عن ارتدائها بسبب التورُّم الناتج عن حدوة الحصان، فأعادها إلى جانبه بحزن.

ثم قال في هدوء: «حقًّا، لا أعتقد أنني ممَّن يؤمنون بالحظ.»

قط ديك دنكرمان

كنت أنا وريتشارد دنكرمان صديقَين منذ المدرسة، إنْ جاز وجود صداقة تجمع بين طالب في الصف الثالث الثانوي، من الطبقة الراقية، يأتي إلى المدرسة كل صباح مرتديًا قبعة سوداء عالية وقفازَين، وطالب يأتي صباحًا مرتديًا قبعة اسكتلندية وله سُمعة سيئة بين طلاب الصف الثاني الثانوي. في تلك الأيام، ساد علاقتنا قدر من الجفاء، ترجع أصوله إلى قصيدة ألَّفتُها بنفسي وأنشدتُها في بعض المناسبات، تخليدًا لذكرى حادثة، قيل إنها مؤلمة، وقعت في اليوم الأخير من السنة الدراسية، وحسبما أتذكَّر، كانت كلماتها تقول:

ديكي ديكي دنك،
دائمًا في كرب،
لعب الخمر بعقله،
فزعق في صخب.

واستمرَّ هذا الجفاء بفعل نقده القاسي للقصيدة، والذي عبَّر عنه بضربي بركبته، بَيْد أن السنوات اللاحقة شهدت توطدًا وتحسنًا في علاقتنا. جذبني العمل الصحفي، في حين ظلَّ ديك لسنوات عدة محاميًا في القضاء العالي وكاتبًا مسرحيًّا، غير أنه لم يلقَ نصيبًا من النجاح في أيٍّ من المهنتَين. لكنه فاجأنا جميعًا، في ربيع إحدى السنوات، بكتابة مسرحية حقَّقَت نجاحًا ساحقًا؛ مسرحية كوميدية قصيرة تروي أحداثًا مستحيلة الحدوث، بَيْد أنها كانت تجسِّد مشاعر طيبة أصيلة وتعكس إيمانًا بالطبيعة البشرية. بعد بضعة أشهر من عرض المسرحية، عرفني ديك لأول مرة على «الأستاذ هرم».

كنت آنذاك واقعًا في حب فتاة، أظن أن اسمها كان نايومي، ورغبت في التحدُّث عنها مع أحدهم. كان ديك معروفًا باهتمامه الذكي بعلاقات الحب التي يخوضها الرجال الآخرون.

كان يدَع العشاق يثنون على حبيباتهم أمامه طوال ساعات، ويدوِّن في أثناء ذلك ملاحظات مختصرة في دفتر سميك أحمر اللون يحمل عنوان «ملاحظات عامة». بالطبع علموا جميعًا أنه كان يستلهم تجاربهم في كتابة مسرحياته، لكننا لم نهتم طالما كان ينصت لما نقول. وهكذا اعتمرت قبعتي وذهبت لزيارته.

تحدَّثنا عن أمور تافهة لمدة ربع ساعة تقريبًا، ثم بدأت الحديث عن الموضوع الذي يشغلني. بدأت بالتغزُّل في جمالها وطيبة قلبها، وما إن فرغت حتى اندمجت في وصف مشاعري، فقلت إن قلبي لم يعرف الحب الحقيقي قبل لقائها وإنه من المستحيل أن أنظر إلى امرأة أخرى غيرها، وإني أتمنى أن يكون اسمها هو آخر ما أنطق به قبل أن أسلِم الروح؛ وعندئذٍ تحرَّك ديك. ظننت أنه قد وقف كي يجلب كتاب «الملاحظات العامة» كالمعتاد، لكنه اتجه عوضًا عن ذلك إلى الباب وفتحه فانساب منه قط أسود من أجمل وأضخم القطط التي رأيتها في حياتي. قفز القط على ركبتَي ديك مُصدرًا خرخرة ناعمة وجلس هناك رافعًا رأسه وأخذ يتفرَّج عليَّ وأنا أواصل سرد حكايتي.

وبعد بضع دقائق، قاطعني ديك قائلًا: «ألم تقُل إن اسمها نايومي؟»

رددت: «أجل، هذا هو اسمها، لمَ تسأل؟»

أجابني: «خطأ بسيط، لقد أشرت إليها توًّا باسم إنيد.»

استغربت بشدة، فأنا لم أرَ إنيد منذ سنوات، وكنت قد نسيتها تمامًا. عاودت الحديث، بَيْد أن المحادثة فقدت جزءًا من رونقها بعد ذلك الموقف. وبعد دستة إضافية من الجمل قاطعني ديك مجددًا بسؤاله: «مَن جوليا؟»

بدأ الضيق يتسرَّب إليَّ. كانت جوليا فتاة تعمل صرافة في أحد مطاعم المدينة، وكادت تغرِّر بي وأنا شابٌّ يافع وتقنعني بخطبتها. صعد الدم إلى رأسي عندما تذكرت قصائد الغزل الحمقاء التي صببتها صبًّا في أذنَيها التي يتناثر فوقها مساحيق التجميل وأنا أمسك بيديها الناعمتين فوق طاولة المطعم.

أجبت بنبرة حادة بعض الشيء: «هل قلت جوليا حقًّا؟ أم أنك تمزح؟»

رد برفق: «لقد أشرتَ إليها باسم جوليا فعلًا. لكن لا تقلق، واصِل حديثك كما تحب وأنا سأعرف مَن التي تقصدها.»

لكن جذوة الحماس بداخلي انطفأت. حاولت إشعالها مجددًا، لكن كلما رفعت عينيَّ ولاقيت عينَي القط الأسود الخضراوين، شعرت بها تخمد من جديد. تذكرت الرجفة التي اجتاحت كياني كله عندما لمست يد نايومي يدي عفوًا في بيت النباتات، وتساءلت تُرى هل

تعمَّدت ذلك. فكرت في مدى لُطفها وحُسن تعاملها مع أمها، وهي عجوز بلهاء رثة الملابس، وتساءلت تُرى أهي أمها حقًّا، أم امرأة استأجرتها كي تمثل دورًا. استعدت صورة شَعرها البُنِّي الغزير في آخر مرَّة رأيته فيها إذ كانت أشعة الشمس تقبِّل خصلاته المموَّجة، وخطر لي أنني أودُّ التأكد من أنه لم تلصق به بعض خُصل الشعر المستعار.

وما إن صرتُ قادرًا على كبح عنان حماستي وبدأت أفكر في أنني طالما آمنت أن المرأة الصالحة أكثر ندرة من الياقوت الأحمر، وأفلتت من لساني دون أدري عبارة: «من المؤسف أننا نحن معشر الرجال نعجز عن إخبار النساء بتلك الحقيقة»، حتى استسلمت تمامًا، وجلست أحاول تذكُّر ما قلته لها ليلة أمس، آمِلًا ألا أكون قد ورَّطتُ نفسي بأي شكل من الأشكال.

قطع صوت ديك تأمُّلاتي البغيضة قائلًا: «أجل، عرفت أنك ستعجز عن إكمال حديثك. لم يستطع أحدٌ منهم إكمال حديثه أيضًا.»

سألته: «عمَّ تتحدَّث بالضبط؟». كنت قد بدأت أشعر بالغضب من ديك ومن قط ديك، ومن نفسي ومن العالم كله.

رد عليَّ وهو يمسِّد رأس القط الناعم؛ إذ نهض الأخير وقوَّس ظهره: «لمَ تتحدَّث عن الحب أو عن العواطف عمومًا أمام السيد هرم العجوز؟»

قلت محتدًّا: «ما شأن هذا القط اللعين بالأمر؟»

رد قائلًا: «لا أعرف تحديدًا، لكنه يمتلك قدرة عجيبة. في إحدى الليالي زارني صديقي ليمان، وشرع في حديثه المعتاد عن إبسن ومصير العرق البشري والأفكار الاشتراكية، إلى آخر تلك الموضوعات التي يهواها، أنت تعرف أسلوبه. وكان هرم يجلس على حافة الطاولة هناك ويتطلَّع إليه، مثلما كان ينظر إليك قبل دقائق، وفي أقل من ربع ساعة توصل ليمان إلى استنتاج مفاده أن المجتمع سيصير حاله أفضل لو تخلى عن المُثُل العليا، وأن مصير البشرية هو التحوُّل إلى حفنة من التراب. ثم دفع شَعره الطويل للخلف وبدا لأول مرَّة في حياته شخصًا عاقلًا. وقال: «نحن نتحدث عن أنفسنا كما لو كنا مركز الكون. في بعض الأحيان أملُّ من سماع صوتي، تبًّا! على حدٍّ علمي قد يفنى الجنس البشري عن آخره ويحل محله نوع آخر من الحشرات، مثلما طردنا نحن البشر عرقًا آخر سبق أن عاش قبلنا وأخذنا مكانه. تُرى، هل سترث جحافل النمل الأرض في المستقبل بعد فنائنا؟ إنها تستوعب مبدأ التآلُف، ولديها بالفعل حاسة إضافية لا نملكها. وإذا تطوَّرَت أدمغتها وأجسادها لتصبح أكبر حجمًا، مَن يدري ربما تصير منافسًا قويًّا لنا؟» أليس من الغريب أن تسمع صديقنا ليمان يتحدث هكذا؟»

سألت ديك: «لمَ سمَّيتَ القط «هرم»؟»

أجابني: «لا أعرف، أظن لأنه بدا عجوزًا جدًّا، خطر الاسم ببالي فجأة.»

انحنيت إلى الأمام ونظرت في عينَي القط الخضراوين الواسعتين، وبادلني الكائن النظر بعينيه اللتين لا تغمزان ولا تطرفان أبدًا، حتى شعرت أنني أغوص في غياهب الزمن. بدا كأن هاتين المقلتين الخاليتين من التعبير قد شهدتا عصورًا شتى، واطَّلعَتا على جميع رغبات البشر وآمالهم وشغفهم، ورأت حقائق أزلية يتكشَّف زيفها، وأديانًا بدا أنها ستنقذ البشر لكنها آلَت بهم إلى بئس المصير. أخذ الكائن الأسود الغريب يزداد حجمًا حتى صِرتُ أنا وديك مجرَّد ظِلَّين ينزويان في رُكن الغرفة.

أطلقت ضحكة مفتعلة، أبطلت مفعول السحر، وسألت ديك كيف حصل على هذا القط.

كان رده: «هو الذي قدِم إليَّ في إحدى الليالي منذ ستة أشهر. كنت أمر بفترة عصيبة في حياتي وقتها. بعد أن أخفقت مسرحيتان من تأليفي الواحدة تلو الأخرى، وكنت أعقد آمالًا كبيرة على نجاحهما، أتذكرهما؟ لقد بدا لي أنه من المستبعد أن يُلقي أي مدير مسرح نظرة على ما أكتبه من مسرحيات بعدها. وأخبرني السيد والكوت أنه لا يصح في ظل هذه الظروف أن أُبقي ليزي مخطوبة لي، ويجب عليَّ أن أبتعد عنها وأعطيها فرصة لنسياني، وقد وافقته على كلامه. كنت وحيدًا وغارقًا في الديون. بدا الوضع ميئوسًا منه، فعقدت العزم على إنهاء حياتي برصاصة في الرأس في ذلك المساء ذاته. عبَّأت مسدسي، ووضعته أمامي على المكتب. كانت يدي تعبث به عندما سمعت صوت خدش عند الباب. لم أُعِر الأمر اهتمامًا في البداية، لكن الصوت استمر وازداد، وأخيرًا نهضت وفتحت الباب كي أضع حدًّا لذلك الصوت الخافت المزعج الذي أثار أعصابي بما يفوق احتمالي، وحينئذٍ دخل هو إلى الغرفة.

قفز فوق المكتب وجلس في الركن بجوار المسدس المحشو، منتصبًا ناظرًا إليَّ؛ أرجعتُ كرسيِّي إلى الوراء وجلست أنظر إليه. عندئذٍ وصلني خطاب جاء فيه أن رجلًا لم أسمع باسمه من قبل قتلَتْه بقرة في مدينة ميلبورن، وقد أوصى بإرث مقداره ثلاثة آلاف جنيه لقريب لي بعيد، بيد أن هذا القريب تُوفي بهدوء، ودون أن يترك ديونًا وراءه، قبل ثمانية عشر شهرًا، وكنت أنا وريثه الوحيد، وهكذا أرجعت المسدس إلى درج المكتب.»

سألته وأنا أمدُّ يدي كي أمسِّد القط الذي جلس يقرقر بصوت خفيض فوق ركبتَي ديك: «هل تظن أن الأستاذ هرم قد يأتي ليقيم معي لمدة أسبوع؟»

رد ديك بصوت خافت: «ربما يأتي إليك يومًا ما»، لكن قبل أن يرد كنت قد ندمت على نطق تلك الكلمات المازحة، لا أدري لماذا.

تابع ديك حديثه قائلًا: «صرت أحدِّثه كأنه بشر، وأناقش أمورًا معه. ومسرحيتي الأخيرة هي ثمرة التعاون بيننا، بل إنني أعدُّ مشاركته فيها تفوق مشاركتي.»

كنت سأظن ديك مجنونًا لولا أن القط كان جالسًا هناك أمامي ينظر في عيني. ومن ثَم زاد اهتمامي بقصته.

واصل حديثه قائلًا: «كانت مسرحية تهكمية متشائمة في البداية، تعكس صورة صادقة لقطاع معيَّن من المجتمع مثلما رأيته وعرفته. من المنظور الفني، شعرت أنها عمل جيد؛ لكن من ناحية الإيرادات لم أكُن واثقًا من نجاحها. أخرجتها من درج مكتبي في اليوم الثالث لمجيء هرم، وقرأتها من أولها لآخرها. وجلس هو على ذراع الكرسي ينظر إلى الصفحات إذ أقلِّبها.

كانت أفضل عمل كتبتُه في حياتي. كل سطر فيها عكسَ رؤًى عميقة عن الحياة، ومن ثَم أحسستُ بالسرور وأنا أقرؤها مجددًا. وفجأةً سمعت صوتًا بجانبي يقول: «يا لها من مسرحية رائعة يا صديقي، بديعة حقًّا. كل ما عليك فعله هو قلب أحداثها رأسًا على عقب، بدلًا من تلك الخطب الصادقة المفعمة بالمرارة التي يُلقيها الأبطال، اجعلهم يتحدثون عن مشاعرهم النبيلة؛ دع نائب وزير الخارجية (الذي لم يكن شخصية محبوبة في المسرحية) يموت في الفصل الأخير بدلًا من ذلك الرجل من مقاطعة يوركشاير، وغيِّر مصير المرأة الفاسقة، دع حالها ينصلح بفعل حبها للبطل، ثم اجعلها ترتحل إلى مكان بعيد كي تساعد الفقراء مرتدية فستانًا أسود. إذا عدلتها على هذا النحو فربما تصلح للعرض على خشبة المسرح.»

استدرت في استياء لأرى مَن المتحدث. كانت تلك الآراء تشبه ما يقوله مديرو المسارح. لم يكن أحد بالغرفة غيري أنا والقط. من المؤكد أنني كنت أحدِّث نفسي، غير أن الصوت الذي سمعته كان غريبًا عليَّ.

أجبت محتدًّا وبنبرة ازدراء، فلم أصدِّق أنني أتجادل مع نفسي: «ينصلح حالها بفعل حبها للبطل! كيف يعقل هذا؟! إن شغفه المجنون بها هو ما أفسد حياته.»

رد الصوت: «وسوف يفسد المسرحية، من حيث الإقبال الجماهيري. إن البطل المسرحي الإنجليزي لا يملك عاطفة مشبوبة، ولا يشعر سوى بإعجاب مهذَّب وبريء ناحية الفتاة الإنجليزية الشريفة المرِحة. يبدو أنك تجهل مبادئ النوع الفني الذي تمتهنه.»

واصلت حديثي غير مكترث بالمقاطعة قائلًا: «فضلًا عن أن امرأة ولدت في بيئة تشجِّع على الرذيلة وعاشت فيها طوال ثلاثين عامًا لن ينصلح حالها.»

رد الصوت ساخرًا: «هذه المرأة بالذات لا بد أن ينصلح حالها. اكتب أنها سمعت عزفًا على الأرغن في إحدى الكنائس فتابت.»

اعترضت بقولي: «لكن بصفتي فنانًا ...»

قاطعني الصوت سريعًا: «فنان فاشل، وستظل كذلك يا صديقي العزيز، أنت ومسرحياتك سوف يطويكما النسيان في غضون بضع سنوات، سواء كانت مسرحيات فنية أو غير فنية. فلتعطِ العالَم ما يرغب به، وسوف يُعطيك ما ترغب به. افعل ذلك رجاءً، إذا أردتَ أن تحيا.»

وهكذا جلست أعيد كتابة المسرحية وهرم بجواري على مدار أيام، وكلما شعرت أن حدثًا ما يبدو مستحيلًا تمامًا ومفتعلًا كتبتُه مبتسمًا. جعلت كل شخصية تنطق بهراء عاطفي فارغ وهرم جالس جانبي يقرقر، وحرصت أن تتصرَّف جميع الشخصيات تصرُّفات صائبة من منظور السيدة التي تمسك بالمنظار المقرب وتجلس في الصف الثاني في شرفة المسرح؛ وكانت النتيجة أن هيوسن، مدير المسرح، أخبرني أن المسرحية سوف تعرض لخمسمائة ليلة متتالية.

والأسوأ من هذا كله هو أنني لم أشعر بالخجل من نفسي، بل شعرت بالرضا.»

سألته ضاحكًا: «ما طبيعة هذا الحيوان في رأيك؟ أهو روح شريرة؟» وكان القط قد خرج من النافذة المفتوحة ودلف إلى غرفة أخرى، وبما أن عينيه الخضراوين الساكنتين والغريبتين لم تعُودا تجذبان عينيَّ نحوهما، شعرت بأنني أستعيد قدرتي على التمييز.

رد ديك بهدوء: «أنت لم تحيا معه طوال ستة أشهر، ولم تشعر بعينيه عليك مثلما شعرت. فضلًا عن أنني لست وحدي من مَرَّ بهذه التجربة. أتعرف كانون ويتشيرلي، الواعظ الشهير؟»

أجبته قائلًا: «إن معرفتي بتاريخ الكنيسة الحديث ليست مستفيضة. لكني سمعت اسمه بالطبع. ما خَطبه؟»

قال ديك: «كان راعي أبرشية فقيرًا ومغمورًا في حي إيست إند، وظلَّ لعشر سنوات يعمل بكدٍّ ويحيا حياة نبيلة بطولية، مثلما يحيا بعض الرجال هنا وهناك، حتى في عصرنا هذا. لكنه صار الآن نجم الدعوة المسيحية الجديدة والعصرية في حي ساوث كينسنجتون، وأصبح يذهب إلى منبر الوعظ في عربة يجرها زوج من الخيول العربية الأصيلة، وزاد وزنه

حتى لم تعُد صديريته تتسع له. لقد زارني مؤخرًا نيابةً عن الأميرة ... إذ يخططون لعرض إحدى مسرحياتي وتخصيص العائد لصالح صندوق يدعم القساوسة المعوزين.»

سألته بنبرة ساخرة بعض الشيء: «وهل أثناه هرم عن مسعاه؟»

رد ديك: «لا، على حدِّ علمي، وافق هرم على الخطة. لكن الأهم من ذلك هو ما حدث في اللحظة التي دلف فيها ويتشيرلي إلى الغرفة، فقد سار القط نحوه على الفور وتمسَّح بحب في قدمَيه. فوقف القس وشرع يمسِّد فراءه.»

ثم قال ويتشيرلي بابتسامة فضولية: «لقد جاء القط إليك إذَن، أليس كذلك؟»

ولم تكُن ثمَّة حاجة لمزيد من الإيضاح، فقد فهمت ما قصده بتلك الكلمات القليلة.

لم أرَ ديك لوقت طويل بعد لقائنا هذا، بَيْد أنني سمعت أخبارًا جيدة عنه، فقد كان نجمه يصعد سريعًا وبات على بُعد خطوة من أن يُصبح الكاتب المسرحي الأكثر نجاحًا في عصره، أما القط هرم فقد نسيت كل شيء عنه، إلى أن زرت في عصر أحد الأيام، رسَّامًا من أصدقائي، حاز الشهرة مؤخرًا بعد سنوات من الفقر والكفاح، وهناك رأيت زوجًا من العيون الخضراء تلمعان في ركن مظلم من أركان مرسمه.

سِرتُ عَبْر المرسم كي أُلقي نظرة مقربة على هذا الكائن، ثم صِحت مندهشًا: «عجبًا! لقد جاء قط ديك دنكرمان إليك.»

رفع وجهه عن حامل لوح الرسم ونظر إليَّ.

ثم قال لي: «أجل؛ فالمرء لا يستطيع أن يحيا على القيم المثالية فحسب.» فسارعت حينئذٍ إلى تغيير الموضوع إذ تذكرت ما جرى مع ديك.

منذ ذاك الحين، لقيت هرم في غرف الكثير من أصدقائي. كانوا يُطلقون عليه أسماءً مختلفة، لكني كنت واثقًا من أنه القط نفسه، فأنا أعرف هاتين العينين الخضراوين حق المعرفة. كان دائمًا ما يجلب لهم الحظ الحسن، لكنهم لم يعودوا أبدًا مثلما كانوا قبل أن يلقوه.

وأحيانًا أتساءل هل سأسمع يومًا صوت أظافره تخدش باب غرفتي.

حكاية شاعر مغمور

أجبتها قائلًا: «هذا الزي لا يناسبك مطلقًا».

قالت: «يا لك من شخص بغيض، لن أطلب رأيك ثانية أبدًا.»

سارعت أضيف: «ولن يبدو لائقًا على أي أحد. بالطبع أنتِ تبدين أقل قبحًا فيه مقارنة بأي امرأة أخرى، لكنه لا يلائم ذوقك.»

صاح الشاعر المغمور: «هو يقصد أنه نظرًا إلى أن الزي ذاته أبعد ما يكون عن الجمال، فهو لا يناسبك، ولا يليق عليك. إذ إن التناقض بينك وبين أي شيء يقارب هذا المستوى من القبح أو الابتذال تناقض صارخ إلى حدٍّ يبعث على الاستياء.»

ردَّت المرأة الواسعة الخبرة: «هو لم يقُل ذلك، فضلًا عن أن الزي ليس قبيحًا. بل هو آخر صيحة من صيحات الموضة.»

تساءل الفيلسوف: «لماذا تُبدي النساء كل هذا الهوس بالموضة؟ هن لا يفكرن إلا في الملابس، ولا يتحدثن إلا عن الملابس، ولا يقرأن إلا عنها، ورغم ذلك لم يفهمن قطُّ وظيفة الملابس. إن الغرض من الملابس هو تحقيق الدفء في المقام الأول، ثم تجميل صورة مَن يرتديها وتحسين شكله بعد ذلك. ورغم ذلك، نادرًا ما تجد امرأة تراعي الألوان الأنسب للون بشرتها، أو التصميم الذي يُخفي عيوب جسدها أو يبرز محاسنه. بل إذا صار زيٌّ ما على الموضة، يصبح لزامًا عليها ارتداؤه. ولهذا السبب نرى فتيات شاحبات الوجوه يبدون مثل الأشباح لأنهن ارتدين درجات من الألوان تناسب الفتيات الحمراوات الخدَّين اللاتي يحلبن الأبقار في المزارع، أو نجد فتيات قصيرات القامة يتهادين في أزياء صُمِّمت لنساء يُناهز طولهن المترين. الأمر أشبه بأن ترى غرابًا يصرُّ على ارتداء ريش ببغاء الكوكوتو فوق رأسه أو أرنبًا يجري هنا وهناك وهو يجر خلفه ذيل طاووس.»

ردَّت الفتاة خريجة كلية جريتون محتدة: «هل تنكر أن الرجال لا يقلون حماقة عن النساء من هذه الناحية؟ فعندما شاعت موضة المعاطف القصيرة الفضفاضة، كان الرجال البدينون القصيرو القامة يرتدونها في كل مكان رغم أنها تجعلهم يبدون مثل قوالب زبدة تسير على قدمين. وفي شهر يوليو تتصببون عرقًا تحت السترات السوداء المشقوقة الذيل والقبعات الحريرية العالية التي ترتدونها لأن الموضة تقتضي ذلك، وتلعبون التنس مرتدين قمصان منشية بياقات عالية، وذلك أمر في غاية السخافة. وإذا حكمت الموضة أن تلعبوا الكريكت مرتدين أحذية طويلة الساق وخوذات مثل التي يلبسها الغواصون، فسوف تلعبون الكريكت مرتدين أحذية طويلة الساق وخوذات مثل التي يلبسها الغواصون، وتصِمون أي رجل عاقل لا يتبع تلك الموضة بأنه وغد سيئ الخُلق. إن المشكلة أسوأ لديكم مما لدى النساء؛ فمن المفترض أن الرجال ذوو فكر مستقل، وقادرون على التفكير دون التأثر بالآخرين، في حين أن المرأة الأنثوية التقليدية لا يفترض بها ذلك.»

قالت المرأة الواسعة الخبرة: «النساء الطويلات والرجال القصار لا تناسبهم أغلب الملابس. أتتذكرون إيميلي المسكينة، كان طولها نحو ١٨٠ سنتيمترًا، لكنها كانت تبدو دائمًا أطول من المترين بعشرة سنتميترات، أيًّا كان ما ترتديه. فعندما صارت الموضة هي الفساتين ذات الخصر العالي، كانت تبدو فيها مثل طفل عملاق في عرض مسرحي إيمائي. وحينها ظننا أن الملابس المستوحاة من الأزياء اليونانية القديمة قد تحسِّن من مظهرها بعض الشيء، لكنها بدت مثل تمثال ملفوف بملاءة على نحو رديء، ومعروض في قصر الكريستال؛ وعندما أضحت الفساتين ذات الأكمام المنفوخة والأكتاف العالية هي الموضة، وقف تيدي الصغير خلفها في حفل على متن قارب وغنَّى «تحت شجرة الكستناء الكبيرة»، وهو ما عدَّته إيميلي إهانة شخصية لها وضربته على أذنه. قليل من الرجال رغبوا في الخروج معها، وأنا على يقين من أن أحد الأسباب التي دفعت جورج إلى التقدُّم للزواج منها هو توفير نفقات شراء سلم نقَّال؛ إذ إن باستطاعتها مناولته حذاءه الطويل الساق من الرف العلوي.»

قال الشاعر المغمور: «عن نفسي أرفض أن أرهق عقلي في التفكير بموضوع كهذا. فليقُل لي المجتمع ماذا أرتدي، وسوف أرتديه، دون جدال. إذا قال المجتمع: «عليك ارتداء قميص أزرق بياقة بيضاء»، فسوف أرتدي قميصًا أزرق بياقة بيضاء. وإذا قال «حان الوقت كي يرتدي الجميع قبعات عريضة الحواف»، فسوف أجلب لنفسي قبعة عريضة الحواف. فتلك المسألة لا تهمني كثيرًا كي أجادل فيها. إن مَن يرفض اتباع الموضة هو الرجل

الغندور المتأنق، الذي يرغب في جذب الانتباه إليه عَبْر الظهور بمظهر مميز. فالروائي الذي لا يلاحظ أحدٌ روايته، يميِّز نفسه عَبْر ارتداء رابطة عنق صُمِّمت له خصوصًا، والكثير من الرسامين يُطيلون شعورهم بدلًا من تعلُّم كيفية الرسم؛ لأن ذلك هو الطريق الأسهل.»

علَّق الفيلسوف قائلًا: «الحقيقة هي أننا جميعًا خاضعون للصيحات الرائجة. وهي التي تحدِّد الدين الذي نعتنقه، والمبادئ الأخلاقية التي نتبعها، والمشاعر التي تراودنا، والأفكار التي تنتابنا. ففي أحد الأزمنة كانت سرقة الماشية فعلًا حسنًا ومقبولًا، وبعدما مرَّ بضع مئات من السنين، أضحت إقامة الشركات التجارية وإنماؤها نشاطًا مشروعًا وشريفًا. في إنجلترا وأمريكا، المسيحية هي الدين الرائج، أما في تركيا فتشيع الديانة المحمدية، وكما قال الشاعر: «ما يُعد جريمة في حي كلابم هو فضيلة في مدينة مارتابان». ففي اليابان، ترتدي النساء أردية تصل إلى ركبتهنَّ، لكن إظهار الذراعَين يتنافى مع قيم الاحتشام هناك. أما في أوروبا، فلا يصحُّ لامرأة طاهرة الفكر أن تُظهر ساقَيها. وفي الصين، تُبجَّل الحماة وتُحتقَر الزوجة، لكن في إنجلترا تعامل الزوجات باحترام وتُعَد الحَمَوات منبعًا تستقي منه الصحافة الهزلية الساخرة أفكارها. العصر الحجري، والعصر الحديدي، وعصر الإيمان، وعصر الكفر، والعصر الفلسفي، ألم تكُن صيحات عابرة من الموضة شاعت في وقت ما بالعالم؟ أينما كنا وحيثما ذهبنا، سوف نجد الصيحات الرائجة في كل مكان حولنا، وهي تقود مسارنا منذ أن نفتح أعيننا الصغيرة على الحياة. فاليوم يشيع الأدب العاطفي، وغدًا يصير الأدب الساخر المفعم بالأمل هو أحدث الصيحات الأدبية، ثم يليه الأدب النفسي، ثم الأدب الذي يركِّز على المرأة الجديدة، وهكذا. اللوحات القديمة صارت أضحوكة الفنانين العصريين في هذا الزمن، واللوحات التي رُسمت اليوم سوف يُنظر إليها غدًا بعين السخرية. في الوقت الحالي، من الرائج أن يكون المرء ديمقراطيًّا، وأن يدَّعي أن الطبقة العاملة هي منبع الحكمة والفضيلة ويوجِّه نقدًا مهينًا إلى الطبقات الوسطى. في أحد الأعوام، نزور الأحياء الفقيرة كي نتفرَّج على بؤس قاطنيها، وفي العام التالي نصبح جميعًا اشتراكيين. نحن نظن أننا نفكِّر، لكن في حقيقة الأمر نحن نردِّد كلمات لا نفهمها كي تضحك علينا الأقدار.»

رد الشاعر المغمور محتدًّا: «لا تكُن متشائمًا، لقد أضحى التشاؤم موضة قديمة. أنت تُطلِق على تلك التغيرات صيحات رائجة، لكنني أطلق عليها خطوات على مسار التقدم. فكل مرحلة من مراحل الفكر تجسِّد تطورًا مقارنة بالمرحلة التي تسبقها، وتقود خُطا الكثير من البشر نحو المنجزات التي تركها عظماء الماضي إذ يسيرون على دروب الحقيقة.

فالحشود التي كان يرضيها قبلًا حضور سباق ديربي للخيل، أضحت الآن تتذوق لوحات ميليه. والجماهير التي كانت تهز رءوسها في رضًا أثناء مشاهدة أوبرا «الفتاة البوهيمية» هم مَن صنعوا شهرة الملحِّن الموسيقي فاجنر.»

قاطعه الفيلسوف قائلًا: «ومحبو المسرح الذين كانوا يقفون لساعات كي ينصتوا لمسرحيات شكسبير يتزاحمون الآن في قاعات الموسيقى الراقصة.»

رد الشاعر: «في بعض الأحيان، ينحدر المسار قليلًا، لكنه سيعاود الصعود مجددًا. وقاعات الموسيقى الراقصة نفسها في تحسُّن؛ وأرى أن من الواجب على كل رجل مثقَّف زيارة تلك الأماكن. فالتأثير الذي يفرضه وجودهم فحسب يساعد على الارتقاء بالطابع العام للعرض الفني. وكثيرًا ما أذهب أنا نفسي إلى هناك!»

أضافت المرأة الواسعة الخبرة: «كنت أتفرَّج على بعض الصحف المصوَّرة التي ترجع لثلاثين عامًا مضت، وتُظهر رجالًا يرتدون تلك البناطيل العجيبة، الواسعة جدًّا عند الوسط والضيقة جدًّا عند الكاحلين. أتذكر أنني كنت أشاهد أبي المسكين يرتديها، وطالما رغبت في ملء الجزء العلوي منها بنشارة الخشب.»

قلت: «أتقصدين حقبة البناطيل الفضفاضة من الأعلى. أتذكرها جيدًا، لكنها كانت شائعة منذ ثلاثة وعشرين عامًا لا أكثر.»

ردَّت المرأة الواسعة الخبرة: «ما ألطف كلامك، لم أحسب أنك على هذا القدر من اللباقة. ربما كانت شائعة منذ ثلاثة وعشرين عامًا كما تقول. أنا واثقة من أني كنت طفلة صغيرة جدًّا وقتها. أظن أن ثمة رابطًا خفيًّا بين الملابس والأفكار. لا أستطيع تخيُّل الرجال ذوي الشوارب الكثة، الذين يرتدون تلك البناطيل يتحدثون مثلما تتحدثون أنتم الآن، مثلما لا أستطيع تخيُّل امرأة ترتدي فستانًا منفوشًا وقلنسوة مطرزة تدخِّن السجائر. فمثلًا أتذكر أن أمي العزيزة كانت تُبدي أكبر قدر من البساطة والمرونة عندما ترتدي ملابسها العادية، وكانت تسمح لأبي بالتدخين في أرجاء المنزل كافة. لكنها كانت ترتدي مرة كل ثلاثة أسابيع تقريبًا فستانًا حريريًّا أسود بشع المنظر، من طراز قديم حتى إن المرء يكاد يجزم بأن الملكة إليزابيث الأولى ارتدته حتمًا ونامت به في أحد المواسم عندما كانت ترتحل وتبيت في أي مكان. وحينئذٍ كنا جميعًا نضطر إلى الجلوس باعتدال ومراعاة الانتباه. وكانت تشيع في البيت عبارة «احذر، أمي ارتدت فستانها الأسود». ودائمًا ما كنا نقنع أبي بأخذنا في نزهة على الأقدام أو بالسيارة ما إن نهمس له بتلك العبارة.»

قالت المرأة العانس: «لا أتحمَّل النظر إلى تلك الصور التي تُظهر صيحات الملابس العتيقة. أرى فيها وجوه أناس مضوا بلا رجعة، فأشعر أن وجوه مَن نحبُّهم ليست سوى

صيحات زائلة هي الأخرى. نحن نفكِّر بها كثيرًا ونحتفظ بها في قلوبنا، حتى يأتي وقتٌ نضعها جانبًا، وننساها، وتحل محلها وجوه جديدة، ويشعرنا هذا بالرضا. إنه أمر محزن حقًّا.»

علَّق الشاعر المغمور: «كتبت قصة منذ بضع سنوات عن مرشد سويسري شاب خطب فتاة فرنسية قروية ذات طابع مرح.»

قاطعته الفتاة خريجة كلية جريتون قائلة: «اسمها سوزيت، أعرفها، أكمل كلامك.»

صحَّح الشاعر كلامها قائلًا: «بل اسمها جاين، الغالبية العظمى من الفتيات الفرنسيات ذوات الطبع المرح في الروايات اسمهن سوزيت، وأنا أعي ذلك جيدًا. لكن أم الفتاة في قصتنا كانت تنتمي إلى عائلة إنجليزية. وقد سميت الفتاة على اسم خالتها جاين التي تعيش في برمنجهام، على أمل أن توصي الخالة للفتاة بجزء من تركتها.»

قالت الفتاة خريجة كلية جريتون: «معذرة. لم أعرف هذه المعلومة. ماذا حدث لها؟»

قال الشاعر المغمور: «في صباح أحد الأيام، قُبَيل تاريخ الزفاف ببضعة أيام، ذهبت الفتاة لزيارة قريب لها يعيش في القرية التي تقع على الجانب الآخر من الجبل. كان الطريق محفوفًا بالمخاطر؛ إذ يرتفع حتى منتصف الجبال قبل أن ينحدر مجددًا، ويمتد بمحاذاة عدد من المنحدرات الخطيرة، لكن الفتاة وُلدت في تلك المنطقة وعاشت بها؛ لذا كانت تسير بخُطًى واثقة مثل الماعز الجبلي، ولم يتصوَّر أحد أن تُصاب بأذًى.»

قال الفيلسوف: «بالطبع سقطت من فوق أحد المنحدرات، أولئك الفتيات الواثقات الخُطا دائمًا ما يقعن في النهاية.»

رد الشاعر المغمور: «لم يدرِ أحد ماذا جرى لها. فالفتاة لم تظهر مجددًا أبدًا.»

سألت الفتاة خريجة كلية جريتون: «وماذا حدث لحبيبها؟ هل عثر شباب القرية على جثته مستلقية إلى جوارها في قاع صدع جليدي، عندما خرجوا في ربيع العام التالي كي يجمعوا زهور البرسية الألبية ليزينوا بها رءوس حبيباتهم؟»

قال الشاعر: «لا، أنتِ لا تعرفين هذه القصة، من الأفضل أن تسمحي لي بسردها. عاد حبيبها إلى البلدة في اليوم السابق لتاريخ الزفاف، وحينئذٍ أبلغوه بالخبر. لم تبدُ عليه أي مظاهر الحزن، ورفض أن يواسيه أحد. بل تناول الفأس والحبال وصعد الجبل بنفسه. قضى الشتاء كله يتتبع أثرها على امتداد الطريق الذي لا بد أنها سارت فيه، لم تهمه الأخطار التي أحاطت به، ولم يؤثر به البرد أو الجوع أو التعب، ولم تثنه العواصف أو الضباب أو الانهيارات الثلجية. ومع بداية الربيع، عاد إلى القرية، وابتاع أدوات بناء، وكان يصعد الجبل يوميًّا حاملًا تلك الأدوات معه. لم يستأجر عمالًا، ورفض أي عروض

بالمساعدة من إخوانه المرشدين. واختار بقعة يكاد يكون من المستحيل بلوغها، على حافة أكبر كتلة جليدية، بعيدًا عن جميع المسارات الجبلية، وبنى لنفسه وبنفسه كوخًا هناك؛ وعاش به وحده طوال ثمانية عشر عامًا.

في موسم السياحة، كان يتلقى أتعابًا جيدة؛ إذ اشتهر في أنحاء المنطقة بأنه الأشجع والأجرأ بين جميع المرشدين، لكن قلة من عملائه كانوا يحبونه؛ لأنه كان رجلًا صموتًا ومتجهمًا، فلم يكن ينطق سوى بالقليل من الكلمات، ولم يضحك أو يمزح قط في أيٍّ من الرحلات التي كان يخرج بها. ومع مقدم كل خريف، كان يتزود بالمؤن اللازمة ويأوي إلى كوخه المنعزل، ويوصد الباب، ولا يراه أحد مجددًا حتى يذوب الجليد.

لكن في إحدى السنوات، توالت أيام الربيع ولم يظهر بين المرشدين كما اعتاد، فتنامى القلق لدى الرجال الأكبر سنًّا الذين كانوا يذكرون قصته ويُشفقون عليه، وبعد مداولات طويلة قرروا أن تخرج جماعة منهم وتشق طريقها نحو كوخه على قمة الجبل. خاضوا عَبْر الثلوج حيث لم تطأ قدم أحد منهم قبلًا، حتى عثروا في آخر المطاف على الكوخ المنعزل المحاط بالثلوج، فطرقوا الباب بقوة بمقابض معاولهم؛ لكنهم لم يسمعوا ردًّا سوى صدى أصواتهم تردده آلاف الجدران الجليدية، وعندئذٍ دفع أولهم الباب المصنوع من الخشب المهترئ بكتفه القوي، فانفتح على مصراعَيه مُصدرًا جلبة.

وجدوه ميتًا، مثلما توقعوا، كان يرقد متصلبًا ومتجمدًا على الأريكة القاسية في آخر الكوخ، وبجواره وقفت جاين تنظر إليه بوجه وديع، مثل أم تراقب رضيعها النائم. كانت ترتدي الزهور التي جمعتها وثبتتها في فستانها في آخر يوم شاهدوها فيه، وكان وجهها هو الوجه ذاته الذي ضحك مودِّعًا إياهم في البلدة قبل تسعة عشر عامًا.

كان يحيط بها ضوء معدني غريب ينير أجزاء منها ويحجب أجزاءً أخرى. تراجع الرجال في خوف ظنًّا أنهم يرون شبحًا، إلى أن تقدَّم أكثرهم جرأة ومدَّ يده حتى مسَّ الثلج الذي صُنع منه كفنها.

طوال ثمانية عشر عامًا، كان الرجل يعيش هناك مع هذا الوجه الذي أَحَبَّه. كان خداها الأبيضان لا يزالان تعلوهما حُمرة خفيفة، وكانت شفتاها لا تزالان حمراوَين. وفوق صدغها كان شَعرها المتموج ملبدًا أسفل كتلة متخثرة من الدماء.»

وهنا توقف الشاعر عن الكلام.

قالت الفتاة خريجة كلية جريتون: «يا لها من طريقة بشعة كي يُبقي المرء على مَن أحبَّ. متى نُشرت تلك القصة؟ لا أتذكر أنني قرأتها.»

رد الشاعر المغمور: «لم أنشرها قطُّ. ففي الأسبوع نفسه الذي كتبتها فيه، أسرَّ لي اثنان من أصدقائي، أحدهما عاد لتوِّه من النرويج والثاني من سويسرا، أنهما ينويان كتابة قصص عن الفتيات اللاتي سقطن في كتل جليدية، ثم عثر عليهن أصدقاؤهن لاحقًا متجمدات وفي حالة ممتازة؛ وبعد ذلك ببضعة أيام وقعت يدي صدفة على رواية بطلتها أُخرجت من كتلة جليدية على قيد الحياة، بعدما وقعت فيها بثلاثمائة سنة. بدا لي أن ثمة إقبال كبير على الصبايا اللاتي تجمدن في الثلج، فقررت إلا أساهم في زيادة المعروض منهن.»

قال الفيلسوف: «من الغريب أن هناك اتجاهات رائجة في الفكر أيضًا. كثيرًا ما تخطر لي فكرة أتصوَّر أنها جديدة، ثم أتناول إحدى الصحف لأجد رجلًا من روسيا أو سان فرانسيسكو يتحدَّث عن الفكرة ذاتها ويكاد يستخدم العبارات نفسها التي خطرت بذهني. نحن نقول إن أفكارًا معيَّنة تملأ الأثير من حولنا؛ يبدو أن هذا التعبير أدق مما نعي. الأفكار لا تولد بداخلنا، بل توجد خارجنا، ونحن نجمعها ليس إلا. والحقائق والاكتشافات والاختراعات جميعها لم تتأتَّ إلينا بالجهود الفردية، بل صارت الظروف مهيئة لها، فامتدت نحوها أيادي البشر من أرجاء الأرض كافة، تدفعها غريزة غامضة نحو البحث والاستكشاف. إن بوذا والمسيح وضعا أيديهما على مبادئ أخلاقية ضرورية لإقامة الحضارة، ثم أذاعا تلك المبادئ دون أن يعلم أيٌّ منهما بوجود الآخر؛ فالأول عاش على ضفاف نهر الجانج، والثاني وُلد على ضفاف نهر الأردن. وعشرات المستكشفين المجهولين، الذين استشعروا وجود أمريكا، مهدوا الطريق أمام كولومبوس كي يحقِّق اكتشافه. والتخلص من الأفكار البالية يحتاج إلى ثورة كاسحة، وروسو وفولتير والكثير غيرهم لا يألون جهدًا في سبيل إشعال شرارتها. والكلام عن المحرك البخاري والأنوال الآلية يملأ الأثير. وبينما تنشغل آلاف العقول بتلك الاختراعات، قليل منها ستخطو خطوة أبعَد من البقية في سبيل تحويلها إلى واقع. إن التحدث عن الأفكار البشرية أمر عبثي، فلا يوجد شيء من هذا القبيل. إن عقولنا تقتات على الغذاء الذي منحنا الله إياه، مثلها مثل أجسادنا. والأفكار تتناثر على جانبَي الطريق، ونحن من نلتقطها ونطبخها ونأكلها، ثم نتباهى في كل مكان بأننا «مفكرون» بارعون!»

رد الشاعر المغمور قائلًا: «لا أتفق معك. إذا كنا مجرد آلات، كما تشير حجتك، فما الغرض من خلقنا؟»

أجاب الفيلسوف: «طالما طرح الأذكياء من البشر هذا السؤال على مدار سنوات عديدة.»

قالت فتاة كلية جريتون: «أكره الأشخاص الذين يفكرون مثلي. ثمة فتاة تسكن في الطابق الذي أعيش به لا تخالفني أبدًا في الرأي. وكلما عبَّرتُ عن رأيٍ ما، أجده صار رأيها كذلك. طالما ضايقني هذا الأمر.»

قالت المرأة العانس في غموض: «ربما دل ذلك على خفة العقل.»

علَّقت المرأة الواسعة الخبرة بقولها: «الأشد إزعاجًا من ذلك هو وجود شخص يختلف معك على الدوام. ابنة عمي سوزان لم تتفق أبدًا في الرأي مع أي شخص. إذا قدِمتُ إلى العشاء مرتدية اللون الأحمر كانت تقول: «لمَ لا تجربين اللون الأخضر يا عزيزتي؟ فاللون الأخضر يناسب الجميع»؛ وإذا ارتديت الأخضر تقول: «لمَ هجرتِ اللون الأحمر يا عزيزتي؟ لقد ظننت أنك تحبين هذا اللون عليك.»

وعندما أخبرتها بخِطبتي إلى توم، انفجرت في البكاء، وقالت إنها لم تستطع حبس دموعها لأنها طالما ظنت أنني وجورج توأمَا روح، وعندما انقطع توم عن إرسال الخطابات طوال شهرين كاملين، وارتكب أفعالًا مخزية أخرى، وأخبرتها أنني خُطبت لجورج، ذكرتني بكل كلمة حب نطقتها في حق توم، وبأنني كنت أسخر من جورج المسكين. كان بابا يقول: «إذا قال رجل لسوزان إنه يحبها، سوف تجادله حتى تقنعه بالعكس، ولن تقبل به أبدًا حتى يهجرها، وسوف ترفض الزواج منه كلما طلب منها تحديد موعد الزفاف.»»

سأل الفيلسوف: «أهي متزوجة؟»

أجابته المرأة الواسعة الخبرة: «أجل، بالطبع. وقد كرست حياتها لتربية أطفالها؛ إذ تجعلهم يفعلون كل شيء لا يرغبون في فعله.»

وقائع انحراف توماس هنري

لم أعرف طوال حياتي قطًّا محترمًا مثل توماس هنري. كان اسمه الأصلي توماس، لكننا لم نستسِغ مناداته بتوماس فقط. بدا لنا ذلك أشبَه بأن تخاطب عائلة السيد ويليام جلادستون، رئيس وزراء إنجلترا، باسم «بيل». جاء توماس هنري إلينا عن طريق جزَّار الأُسرة، وكان يقيم سابقًا في نادي الإصلاح،[1] وقد شعرت، بمجرد وقوع عينَيَّ عليه، أنه جاء حتمًا من نادي الإصلاح دون باقي نوادي لندن. بدا لي أن الوقار الأصيل والقيم المحافظة المتحجِّرة المرتبطة بهذا النادي قد تركَت بصمتها عليه. لا أتذكر بوضوح سبب مغادرته هذا النادي، فقد مرَّ زمن طويل منذ ذاك الحين، لكني أظن أن خلافًا وقع بينه وبين رئيس الطهاة هناك، كان رجلًا مستبدًّا يرغب في الاستحواذ على جميع المواقد في المطبخ لنفسه. عندما سمع الجزار بهذا الخلاف، ولأنه يعلم أن أسرتنا لا تملك قطًّا، فقد اقترح حلًّا لهذه الأزمة لاقى ترحيبًا من القط والطاهي على حدٍّ سواء. أتصوَّر أنهما ودَّعا بعضهما بعضًا وداعًا رسميًّا بحتًا، ووصل توماس إلى منزلنا وهو يُحسن الظن بنا.

فور أن رأته زوجتي علَّقَت بأن اسم هنري يليق به أكثر من توماس. عندئذٍ أدركتُ فجأة أن الاسمين معًا يُناسبانه أكثر، وعليه صِرنا نُناديه في حدود أسرتنا بتوماس هنري. وعندما نرد على ذكره أمام الأصدقاء، كنا نشير إليه عادةً باسم جناب الأستاذ توماس هنري.

تقبَّلَنا توماس هنري بطريقته الهادئة المتحفِّظة. اختار أن يجلس على المقعد المريح الخاص بي، وصار هذا مكانه المفضَّل. لو كان قطًّا عاديًّا لكنت سأطرده طردًا من الكرسي،

---

[1] نادي الإصلاح هو نادٍ خاص يمتلكه ويتحكَّم فيه أعضاؤه، ويقع في وسط لندن. مثل جميع نوادي الرجال في إنجلترا، ظلَّت عضويته مقتصرة على الذكور طوال عقود.

لكن توماس هنري لم يكن قطًّا يُبعده الصياح والتلويح. لو كنت قد أوضحت له أنني أعترض على جلوسه فوق كرسيٍّ، فإني أوقن أن رد فعله لم يكن ليختلف عن رد فعل الملكة فيكتوريا لو كانت السيدة العظيمة قد قدمت إلى بيتي في زيارة ودية ثم أخبرتها أنني مشغول، وطلبت منها أن تمر عليَّ في وقت آخر. بعبارة أخرى، كان سينهض ويغادر الكرسي، لكنه لن يتحدث إليَّ أبدًا بعد ذلك طوال تواجدنا معًا تحت سقف واحد.

كانت تقيم معنا وقتها آنسة مهذَّبة لا تكنُّ احترامًا كبيرًا للقطط؛ وهي لا تزال تقيم معنا، لكنها صارت أكبر عمرًا وأكثر حكمة. كانت ترى أن الذيل هو الأداة الطبيعية لحمل القطة، بما أنه يبرز لأعلى ومن السهل الإمساك به. وكانت تظن خطأً أن القطط تأكل عَبْر حشر الطعام في فمها حشرًا، وأنها تستمتع بالتنزُّه داخل عربة الأطفال الخاصة بالدمى. كنتُ متوجِّسًا من اللقاء الأول بين توماس هنري وهذه الآنسة المهذَّبة. خشيت أن تعطيه انطباعًا خاطئًا عن أسرتنا، ما يجعلنا نقلُّ في نظره.

لكن اتضح أن قلقي هذا كان بلا داعٍ. فتوماس هنري كان يتمتَّع بسمةٍ ما تحول دون معاملة الآخرين له بجرأة وأُلفة زائدة. كان توماس لطيفًا معها وحازمًا في الوقت نفسه. كانت تمد يدَيها بخجل وتردُّد، بفعل ما اكتسبته مؤخرًا من احترام القطط، نحو ذيله؛ فكان يحرِّكه برفق للناحية الأخرى، ثم ينظر إليها. لم تكُن نظرته غاضبة أو مستاءة. بل كانت تشبه نظرة الملك سليمان إلى ملكة سبأ إذ تحاول التقرُّب منه. نظرة تعبِّر عن تعالٍ ممزوج بتحفُّظ.

كان قطًّا شديد التهذيب حقًّا. بل إن أحد أصدقائي، ممَّن يؤمنون بعقيدة تناسخ الأرواح، كان مقتنعًا أنه تجسيد روح لورد تشيسترفيلد.[٢] لم يمُؤ قطُّ طلبًا للطعام، مثلما تفعل القطط الأخرى. كان يجلس بجواري أثناء الوجبات وينتظر حتى يُوضع طبقه أمامه. وكان يكتفي بتناول الجزء المحيط بمفصل فخذ الضأن، ولا يقرب اللحم المطهو أكثر من اللازم. مرَّة عرض عليه زائر لنا قطعة من الغضروف؛ لم يردَّ توماس هنري عليه، بل غادر الغرفة بهدوء ولم نرَه مجددًا إلا بعدما غادر هذا الضيف.

---

[٢] لورد تشيسترفيلد (١٦٩٤–١٧٧٣) كان دبلوماسيًّا وسياسيًّا بريطانيًّا بارزًا، ومعروفًا بذكائه وحس دعابته. شغل منصبَي قائد الحرس الملكي ووزير خارجية بريطانيا، إلى جانب العديد من المناصب الحكومية الأخرى المهمة. يشتهر كذلك بعدد من الرسائل المفصلة التي بعثها إلى ابنه غير الشرعي فيليب. نُشرت هذه الرسائل في وقت لاحق، وتُعد دليلًا إرشاديًّا شاملًا في الأخلاق والأدب وآداب السلوك.

لكن لكل امرئ نقطة ضعف، ونقطة ضعف توماس هنري كانت البط المشوي. كشف لي سلوك توماس هنري في وجود بطة مشوية عن حقيقة مهمة تخص تركيبه النفسي. فسلوكه هذا أظهر لي فورًا الجانب الحيواني الأدنى من طبيعته. في حضرة البط المشوي، كان توماس هنري يتحوَّل إلى مجرَّد قطٍّ عادي، خاضع لجميع الغرائز المتوحِّشة التي تحكم فصيلته. كان وقاره يتبدَّد كأن لم يكن، ويحاول هبش البطة بمخالبه، ويتوسَّل من أجل الحصول على قطعة. أوقن أنه لم يكن ليمانع بيع روحه للشيطان مقابل بطة مشوية.

لهذا السبب تجنَّبْنا تقديم هذا الطبق تحديدًا: فقد صعُب علينا مشاهدة أخلاق القط تفسد هكذا. فضلًا عن أن تصرُّفاته في أثناء وجود بطة مشوية على مائدة الطعام جعلت منه قدوة سيئة للأطفال.

كان نموذجًا يُحتذى به بين جميع قطط الحي. وكان بوسع المرء ضبط ساعته على جدوله اليومي. فبعد العشاء، حرص دومًا على التمشية لمدة نصف ساعة في الساحة؛ وكل ليلة، في العاشرة مساءً بالضبط، كان يعود إلى مدخل البيت، وفي الحادية عشرة، تجده نائمًا في الكرسي المريح الخاص بي. لم يصادق أيًّا من القطط الأخرى. ولم يكن يهوى الشجار، وأشك أنه أحبَّ من قبل، حتى في شبابه؛ فطبيعته المتحفِّظة الجافة المشاعر جعلته لا يُبدي أدنى اهتمام برفقة الإناث.

وهكذا عاش توماس هنري معنا طوال الشتاء دون أن يزعجنا البتة. وعندما حل الصيف، اصطحبناه معنا إلى الريف. ظننا وقتها أن تغيير الأجواء سوف يفيده؛ فقد بدأ يكتسب بعض الوزن الزائد. لكن وا أسفاه على توماس هنري المسكين! لقد دمَّر الريف حياته. لا أدري سبب التحوُّل الذي طرأ على شخصيته، ربما كان هواء الريف منعشًا أكثر من اللازم. بَيْد أنه انزلق في دوامة الانحراف الأخلاقي بسرعة مخيفة. في أول ليلة قضيناها هناك، بقي خارج المنزل حتى الحادية عشرة مساءً، وفي الليلة التالية لم يعُد قطٌّ إلى البيت، ثم عاد في الليلة الثالثة في الساعة السادسة صباحًا، لكنه فقَدَ نصف الفراء الذي يغطِّي قمة رأسه. بالطبع عرفت أن ثمَّة قطة متورِّطة في تلك المسألة، بل أكثر من قطة، بالنظر إلى الصخب الذي دار طوال الليل. وبما أن توماس هنري كان قطًّا وسيمًا حقًّا، فقد شرعن ينادين عليه في النهار. ثم أتت القطط الذكور، ممَّن وقع عليهم الضرر، وبدءوا ينادون عليه أيضًا، مطالبين إياه بتبرير موقفه، ولدواعي الإنصاف كان توماس هنري دائمًا على استعداد للاستجابة لهذا المطلب.

صار صبية القرية يتسكَّعون حول البيت طوال النهار لمشاهدة المعارك الدائرة، وعكفَت ربَّات البيوت على اقتحام مطبخنا وإلقاء جثث القطط الميتة على طاولة المطبخ،

وهن يناشدن السماء، ويناشدنني، لرفع ما لحق بهنَّ من ظُلم. أضحى مطبخنا مَشْرحة فِعليَّة للقطط، واضطررت إلى شراء طاولة مطبخ جديدة. إذ زعمت الطبَّاخة أن عملها سيصير أسهل إذا خصَّصنا لها طاولة منفردة. وأضافت أن وجود العديد من القطط الميتة بجوار قطعيات اللحم والخضروات يُصيبها بالارتباك؛ وكانت تخشى أن ترتكب خطأً ناجمًا عن اللبس. وبناءً عليه، وضعنا الطاولة القديمة أسفل النافذة وخصَّصناها للقطط؛ وبعد ذلك لم تسمح الطبَّاخة أبدًا لأحد أن يضع قطة، وإنْ كانت ميتة، فوق طاولتها.

سمعتها تسأل سيدة مُنفعِلة في إحدى المرَّات: «ماذا تودِّين مني أن أفعل بها، أطبخها؟»

قالت السيدة: «إنها قطتي!»

ردَّت الطباخة: «حسنًا، لا أنوي تحضير فطيرة لحم القطط اليوم.» ثم أردفت: «ضعيها على الطاولة المُخصَّصة للقطط. هذه الطاولة تخصُّني.»

في البداية، كان «رفع الظلم» يتم لقاء شلنَين ونصف شلن، لكن مع الوقت علا ثمن القطط. حتى ذاك الحين، كنت أظنُّ أن القطط سلعة رخيصة، بَيْد أني فوجئت بالقيمة المادية التي يُطالب بها أصحابها. بدأتُ أفكر جديًّا في العمل بمجال استيلاد القطط وبيعها. فنظرًا إلى أسعار القطط السارية في تلك القرية، يمكنني تحقيق دخل يُقدَّر بآلاف الجنيهات.

في إحدى المرَّات، نادوني في منتصف وجبة العشاء كي أحادث امرأة حانقة تقول: «انظر ما فعله الوحش الذي تربيه.»

نظرت. اتضح لي أن توماس هنري قد قضى على قط هزيل أجرب، من المؤكَّد أن الموت كان راحة له. بل إنني كنت سأشكر توماس هنري لو كان ذاك الحيوان المسكين يخصُّني؛ لكن بعض الناس لا يميِّزون ما في مصلحتهم.

قالت السيدة: «لم أكُن لأبيع ذلك القط مقابل خمسة جنيهات.»

رددت بقولي: «هذا رأيك، لكني أظن أن رفض مبلغ كهذا هو قرار تعوزه الحكمة. ونظرًا إلى حالة الحيوان، لا أرى أن عليَّ دفع أكثر من شلن تعويضًا لك. إذا كنتِ ترين أن بوسعك الحصول على عرض أفضل في مكان آخر، فلن أمنعك.»

تابعت السيدة: «لقد كان قطًّا وديعًا مثل مسيحيٍّ تقي.»

أجبتها بحزم: «لا أدفع تعويضات مقابل المسيحيين الموتى، وحتى لو كنت سأدفع تعويضًا، فلن أقدر العيِّنة المعروضة أمامي بأكثر من شلن. وسواء كان قطًّا أو مسيحيًّا في نظرك، فإنه لا يساوي أكثر من شلن في كلتا الحالتَين.»

اتفقنا في النهاية على شلن ونصف.

فوجئت كذلك بعدد القطط التي تمكَّن توماس هنري من قتلها. بدا لي أن القرية تشهد مذبحة حقيقية للقطط.

وفي إحدى الأمسيات، ذهبت إلى المطبخ، فقد اعتدت الذهاب إلى المطبخ كل ليلة لتفقُّد حصيلة القطط الميتة، عندما وجدت بين الجثث، جثة قطة مبرقشة، لفرائها نمط مُميَّز، ترقد فوق الطاولة.

قال مالكها، الذي وقف على مقربة يحتسي البيرة: «تلك القطة تُساوي عشرة شلنات.»

التقطت الجثة وفحصتها عن قُرب.

تابع الرجل حديثه قائلًا: «لقد قتلها قطك أمس. عارٌ عليه.»

رددتُ عليه بقولي: «إن قطي قد قتلها ثلاث مرات حتى الآن.» ثم تابعت موضحًا: «يوم السبت كانت قطة السيدة هيدجر، ويوم الاثنين كانت قطة السيدة مايرز. لم أكُن متأكدًا أنها القطة نفسها يوم الاثنين؛ لكنني شككت في الأمر ودوَّنتُ بعض الملاحظات. والآن أستطيع تمييزها بوضوح. فلتستمع إلى نصيحتي وتدفنها قبل أن تنشر المرض. لا يهمني عدد الأرواح التي تملكها تلك القطة؛ لن أدفع تعويضًا إلا عن روح واحدة.»

منحنا توماس هنري العديد من الفرص أملًا في أن ينصلح حاله، لكنه مضى من سيئ إلى أسوأ، وأضاف صيد الحيوانات في الأراضي المملوكة للغير ومطاردة الدجاج إلى جرائمه الأخرى، وتعبت من دفع المال تعويضًا عن آثامه.

طلبتُ المشورة من البستاني، فقال إنه عرف قططًا أُصيبت بهذه الحالة قبلًا.

سألته: «هل تعرف علاجًا لها؟»

رد بقوله: «في واقع الأمر، سمعت أن ضربة سريعة على الرأس يليها إلقاءٌ في البِركة قد يفيد بشكل عام في تلك الحالات.»

رددتُ: «حسنًا، سوف نجرِّب ذلك معه قبل موعد النوم.» تولى البستاني هذه المهمة، وهكذا انتهى توماس هنري وانتهت معه متاعبه.

يا لتوماس هنري المسكين! إن قصته دليل على أن البعض يوصفون بالاحترام والتهذيب لا لسبب سوى أنهم لم يتعرَّضوا للإغراء. لقد وُلد وتربى في أجواء نادي الإصلاح؛ حيث تنعدم فرص الانحراف. طالما أسفت على مصير توماس هنري، ومنذ ذلك الحين لم أعُد أومن أبدًا بالتأثير الأخلاقي للريف.

حكاية مدينة البحر

يحكي المؤرخون، الذين كتبوا تاريخ هذا الساحل المنخفض الذي تغزوه الرياح، أنه قبل سنوات مضَت كان خط الْتِقاء مياه المحيط باليابسة يقع على مسافة أبعَد شرقًا؛ وأن الأرض المليئة بالشعاب الرملية الغادرة والتي تغطِّيها الآن مياه بحر الشمال كانت في ذاك الزمن أرضًا يابسة. في تلك الأيام، فوق الأرض الممتدة بين الدير والبحر، كانت هناك مدينة تضم أربع كنائس مزدهرة وسبعة أبراج، ويحيط بها جدار يبلغ سُمكه اثني عشر حجرًا، ما جعلها مركز قوة ونفوذ، حسبما ظن رجال ذلك العهد؛ وعندما كان الرهبان في حديقة الدير الواقع فوق التل يوجِّهون أبصارهم للأسفل كانوا يرون تحت أقدامهم الشوارع الضيقة التي تكتظ بحركة مرور البضائع الثمينة، وأرصفة الميناء والمجاري المائية التي تصخب على الدوام بأحاديث من شتى اللغات، والصواري المطليَّة لسفن عديدة؛ إذ تتأرجح يمينًا ويسارًا كأنما تومئ برءوسها بجدية من فوق نوافذ أسطح البيوت وجلموناتها المصنوعة من خشب البلوط.

وهكذا عاشت المدينة في ازدهار ورخاء حتى حلَّت ليلة اقترف فيها أهلها شرًّا تحت سمع وبصر البشر والرب. شهد هذا الزمن أيامًا عصيبة للسكسونِيِّين القاطنين على ساحل البحر؛ فالقراصنة الدنماركيون كانوا يحتشدون، مثل جرذان الماء، عند مصب كل نهر، ويتشمَّمون رائحة الكنوز من بعيد؛ وكثيرًا ما كان رجال إيست أنجيليا يلمحون بريق أسنانهم القوية والحادة، لكن لم يرَهم في إيست أنجيليا كلها أكثر من حرَّاس جدار المدينة ذات الأبراج السبعة التي وقفت يومًا على أرض يابسة صارت الآن ترقد في أغوار المحيط. دار العديد من المعارك الدموية خارج جدارها السميك في بعض الأحيان وداخله في أحيان أخرى. فكان أنين الرجال المحتضرين وصرخات النساء القتلى ونحيب الأطفال المشوهين

تمر جميعًا بباب الدير في طريقها نحو السماء كي تسأل الرهبان المرتجفين في أسِرَّتِهم أن يصلُّوا لأجل الأرواح التي تصعد إلى بارئها.

لكن السلام حلَّ أخيرًا على الأرض التي طالما سادتها النزاعات، عندما اتفق الدنماركيون والسكسونِيُّون على العيش جنبًا إلى جنب وأن تجمع بينهم أواصر الصداقة، في أرض إيست أنجيليا الواسعة التي تتسع لكليهما. وعمَّت البهجة قلوب كل الرجال، فقد تعبوا جميعًا من صراع لم يجنِ منه الطرفان شيئًا سوى تكسير العظام، وباتوا يتوقون إلى حياة هادئة قرب نيران المدفأة. ومن ثَم صار الدنماركيون ذوو اللِّحى الطويلة يغدون ويروحون في جماعات متفرِّقة، يحملون على ظهورهم فئوسهم التي كانت متعطِّشة قبلًا للدماء، لكنها أضحت الآن مأمونة الجانب، ويبحثون عن مكان يبنون فيه بيوتًا لهم دون أن يُزعجوا أحدًا أو يُزعجهم أحد؛ حينئذٍ دنا هافاجر وجماعته، في ساعة غروب، من مدينة الأبراج السبعة، التي وقفت يومًا ما على أرض يابسة بين الدير والبحر.

عندما رأى أهل المدينة الدنماركيين فتحوا البوابات على مصراعَيها وخاطبوهم قائلين: «لقد تحاربنا، لكن الآن حلَّ السلام بيننا، ادخلوا مدينتنا واحتفلوا معنا، ولْتواصلوا رحلتكم غدًا.»

لكن هافاجر رد قائلًا: «إني رجل عجوز، وأرجو ألا تُسيئوا فَهْم كلماتي. لقد حلَّ السلام بيننا حقًّا، كما تقولون، ونحن نشكركم على حُسن استقبالكم، لكن سيوفنا لا تزال تحمل آثار الدماء. دعونا نخيِّم هنا خارج جدار مدينتكم، وفيما بعد، عندما يطوي الزمان صفحة معاركنا، ويمنح شبابنا فرصة نسيان ما جرى في الماضي، فسوف نحتفل معًا بعدما أصبحنا جيرانًا يعيشون جنبًا إلى جنب على الأرض نفسها.»

لكن رجال المدينة ظلوا يُلحُّون على هافاجر، زاعمين أن جماعته هم جيرانهم؛ وانضم إليهم رئيس الدير، الذي هبط مسرعًا خشية وقوع نزاع، قائلًا: «ادخلوا يا أبنائي. فليحل السلام بيننا، وليبارك الرب أرضنا وشعبينا»؛ ورأى رئيس الدير أن رجال المدينة يُبدون مودة تجاه الدنماركيين، وكان يعرف أن الرجال عندما يأكلون ويشربون معًا تتوثَّق أواصر المحبة بينهم.

أجاب هافاجر، الذي سمع أن رئيس الدير رجل تقي: «ارفع عصاك يا أبتِ كي يسقط ظِل الصليب الذي يعبده قومك على دربنا إذ ندخل مدينتكم في سلام، نحن نعبد آلهة غير آلهتكم، لكن عهد الثقة بين الرجال يتجاوز اختلاف الأديان.»

رفع رئيس الدير عصاه، التي على شكل صليب، عاليًا بين الشمس وجماعة هافاجر، وتحت ظلها عَبَر الدنماركيون بوابات المدينة ذات الأبراج السبعة، وكان عددهم يُقدَّر بنحو ألفَي إنسان، من الرجال والنساء والأطفال، وأُغلقت أبواب المدينة خلفهم بإحكام.

وهكذا بعدما تقاتل الرجال وجهًا لوجه، باتوا يتناولون الطعام معًا، ويحتسون نخب الصداقة كما جَرَت العادة في تلك الأيام؛ ونزع رجال هافاجر أسلحتهم؛ إذ رأوا أنهم مُحاطون بالأصدقاء، وعندما انتهت الوليمة، استسلموا للنوم شاعرين بالإنهاك.

حينئذٍ سُمع في أرجاء المدينة صوت شرير يقول: «مَن هؤلاء الذين أتوا إلينا كي يتقاسموا أرضنا؟ ألَا ترون أن أحجار الشوارع لا تزال حمراء اللون من أثر دماء النساء والأطفال الذين نَحروا أعناقهم؟ هل يصح أن يترك الرجال الذئاب تذهب في حال سبيلها بعدما نجحوا في صيدها بقطع اللحم؟ فلنهجم عليهم الآن وهم مُتْخَمون بالطعام والنبيذ، فلا يتمكن أحد منهم من الهرب. وبذلك نضمن حماية أنفسنا من شرهم وشر أطفالهم.»

صارت الغلبة لصوت الشر، وهجم رجال المدينة على الدنماركيين الذين تقاسموا معهم اللحم والشراب؛ ولم يرحموا النساء والأطفال الصغار منهم؛ وصرخت دماء جماعة هافاجر على بوابة الدير طوال الليل قائلة: «لقد صدَّقنا العهد الذي قطعته. لقد تقاسمنا اللحم معك. لقد وثقنا فيك وفي إلهك. وعبَرنا بوابات مدينتك تحت ظِل الصليب. فليرد إلهك علينا!»

وظلَّت صرخاتهم تدوي حتى الفجر.

عندئذٍ نهض رئيس الدير من حيث ركع ودعا الله قائلًا: «لقد سمعت شكواهم يا إلهي، فلتستجب لهم.»

وفجأةً انبعث من البحر صوت رهيب، قادم من أغوار سحيقة، فجثا الرهبان على ركبهم في خوف، لكن رئيس الدير قال: «إنه صوت الله، لقد تحدَّث عَبْر الماء. لقد استجاب لدعائهم.»

وفي ذلك الشتاء هبَّت عاصفة هوجاء، لم يرَ البشر مثيلًا لها قبلًا؛ وغمر البحر اليابسة وبلغت أمواجه قمة أعلى برج من أبراج المدينة السبعة؛ واندفعت الأمواج فوق الأرض. حاول أهل مدينة الأبراج السبعة الهرب من السيل القادم، لكن المياه جرفتهم ولم يفلت أحد منهم. وهكذا دفنت المدينة التي ضمَّت يومًا سبعة أبراج وأربع كنائس والعديد من الشوارع وأرصفة الميناء أسفل المياه، وظلَّت الأمواج تتقدم حتى بلغت التل الذي يقع الدير فوقه. وعندئذٍ دعا رئيس الدير الله أن تتوقف المياه، واستجاب الله لدعائه، وسكن البحر.

تلك الأحداث التي رويتها لكم قد حدثت بالفعل؛ وليست حكاية رمزية نسجتها بكلماتي، ومَن ينتابه شك فيما أقوله فليسأل الصيادين الذين يُلقون شِبكاهم بين الشعاب

والتلال الرملية في ذلك الساحل المنعزل. فبعضهم حدق أسفل مقدمة سفنهم الصغيرة ورأوا تحتهم مدينة ذات شوارع غريبة وأرصفة ميناء كثيرة. بَيْد أني، راوي هذه القصة، لم أرَ هذا المشهد بنفسي، فمدينة البحر لا يمكن رؤيتها إلا عند هبوب رياح نادرة من الشمال، تزيح الأمواج؛ وعلى الرغم من أني زرت في العديد من الأيام المشمسة البقعة التي سبق أن احتلَّتْها أبراجها السبعة، فإني لم أشهد أبدًا تلك الرياح التي تمحو عتمة الموج، وطالما حدَّقت بعينَيَّ إلى الأسفل بلا جدوى.

لكني أعرف على الأقل أن الأحجار الثقيلة للدير العتيق، الذي سبق أن وقعت المدينة ذات الأبراج السبعة بينه وبين حافة المحيط، يقع الآن فوق جرف تضربه الأمواج، ومَن ينظر اليوم عَبْر أُطُر نوافذه المحطَّمة فلن يرى سوى أرض تكسوها المستنقعات وتموُّجات المياه، ولن يسمع سوى نحيب النوارس الحوامة وأنين البحر المنهك.

بَيْد أن غضب الرب لا يدوم إلى الأبد، والشر الكامن في قلوب البشر سوف تُجتز جذوره، ومَن يشك في هذا فليتعلم من حكمة الصيادين البسطاء القاطنين على حافة أراضي المستنقعات؛ فسوف يخبرونه أنه في الليالي العاصفة، يتحدَّث صوت عميق من البحر، ويدعو الرهبان الموتى إلى النهوض من قبورهم المنسية كي يقيموا قدَّاسًا على أرواح رجال مدينة الأبراج السبعة. فيسير الرهبان ببطء فوق ممرات الدير التي يغطيها العشب مرتدين مسوحًا بيضاء ناصعة، وتعلو موسيقى صلواتهم فوق صرخات العاصفة. وبوسعي أن أشهد على ذلك، فقد لمحتُ أطيافهم الغامضة خلف ظُلمة أعمدة الدير المحطَّمة؛ وسمعت غناءهم العذب الشجي يعلو فوق عويل الرياح.

وهكذا ظلَّ الرهبان الموتى يُصلُّون على مَرِّ العصور كي يغفر الله لرجال مدينة الأبراج السبعة. وهكذا سوف يعكفون على الصلاة حتى يأتي يوم لا يبقى فيه من الدير، الذي كان بناءً مهيبًا في الماضي، حجر فوق حجر؛ وفي ذلك اليوم سيدرك الجميع أن الله قد رفع غضبه عن رجال مدينة الأبراج السبعة؛ وفي ذلك اليوم سوف تنحسر المياه، وسوف تقف المدينة مجددًا فوق أرض يابسة.

أعلم أن البعض سيقولون إن حكايتي هذه ليست سوى خرافة؛ سوف يقولون إن الظلال الغامضة التي قد تراها العين في ليلة عاصفة وهي تلوح بأذرعها البرَّاقة خلف الأعمدة المهدمة ليست سوى زبد بحر ذي بريق فسفوري، أطاحت به الأمواج العاتية إلى أعلى الجرف؛ وأن اللحن الحزين الذي يشق الليل المضطرب ليس سوى موسيقى عصف الرياح.

لكن هذا حديث العميان الذين لا يرون بغير أعينهم. أما أنا فأرى الرهبان ذوي المسوح البيضاء، وأسمع إنشادهم في القدَّاس الذي يقيمونه على أرواح الآثمين في مدينة الأبراج السبعة. إذ يُقال إنه كلما ارتُكب إثم، وُلدت صلاة تظل تكفر عنه حتى أبد الآبدين. وهكذا يقبع العالم كله بين أيادي البشر المتضرعة، الموتى منهم والأحياء، التي تحميه مثل درع حصين من غضب الله العارم.

لذا، أعلم أن الرهبان الصالحين الذين سكنوا هذا الدير لا يزالون يصلون كي يغفر الله خطايا الناس الذين أحبوهم.

ولذا أبتهل إلى الله أن يهب لنا رجالًا صالحين ينشدون قدَّاسًا على أرواحنا.

مثل جذع طافٍ يحمله التيار

الشخصيات

السيد ترافيز.
السيدة ترافيز.
ماريون [ابنتهما].
دان [رجل مهذَّب بلا مركز اجتماعي].

المنظر: غرفة مفتوحة على حديقة. تزحف الظلال من أركانها طاردةً ضوء الشفق الخافت.

تجلس السيدة ترافيز في كرسي كبير ومُريح مصنوع من الخوص. ويجلس السيد ترافيز في الناحية الأخرى من الغرفة يدخِّن السيجار. تقف ماريون أمام نافذة مُصمَّمة على الطراز الفرنسي وتتطلَّع إلى الخارج.

السيد ترافيز: هذا البيت الذي استأجره هاري صغير ومريح.

السيدة ترافيز: أجل، أنصحك بأن تحتفظي بهذا البيت يا ماريون. ستكتشفين أنه عمليٌّ جدًّا. ففي وسع المرء استقبال ضيوفه بأقل تكلفة هنا، في قرى شمال نهر التيمز، حيث لا يتوقع الناس إسرافًا في مظاهر البذخ. [تستدير نحو زوجها.] ابنة عمك إيميلي كانت تستقبل نصف الضيوف على قائمتها — من الأقارب، والأصدقاء الأمريكيين، ومَن على شاكلتهم — بهذه الطريقة في ذلك البيت الصغير الذي تملكه هي وزوجها في قرية جورينج. من المؤكَّد أنك تذكره، عن نفسي طالما رأيت أنه يشبه جُحرًا ضيِّقًا ومُزدحِمًا، لكن

بوابته كان يعلوها الكثير من الزروع، وكان يبدو جميلًا حقًّا من الضفة الأخرى من النهر. كانت دائمًا ما تقدم وجبة غداء من اللحم البارد والمخلل، على غرار الوجبات التي يتناولها المرء أثناء النزهات في الهواء الطلق. وكان الضيوف يقولون إنها طريقة بسيطة ومريحة جدًّا لتناول الغداء.

السيد ترافيز: أذكر أنهم لم يقيموا لديها لفترة طويلة.

السيدة ترافيز: كانت تحتفظ أيضًا بنوع خاص من الشامبانيا لضيوفها في ذلك البيت المُطِل على النهر، أظن أنها أخبرتني بأن الدستة منه تُباع بخمسة وعشرين شلنًا، كان نوعًا جيدًا حقًّا بالنظر إلى سعره. ذلك الرائد الهندي العجوز، ما اسمه يا ترى؟ كان يقول إنه يحب هذا النوع أكثر من أي نوع آخر تذوَّقَه قبلًا. وكان دائمًا ما يحتسي قدحًا كاملًا منه قبل الإفطار؛ يا لها من عادة غريبة! طالما تساءلت من أين كانت تشتريه.

السيد ترافيز: ومعظم مَن ذاقوه تساءلوا مثلك. إن ماريون ترغب في نسيان تلك الدروس، لا التعلُّم منها. فهي ستتزوج رجلًا ثريًّا قادرًا على استقبال ضيوفه كما يليق.

السيدة ترافيز: في واقع الأمر، لا أدري إن كنت أتفق معك يا جيمس. لا أحد منا يقدر على تحمُّل تكاليف الحياة التي تعكس مقدار الدخل الذي نود أن يظن الناس أننا نملكه. يجب على المرء أن يوفر النفقات في بند أو آخر. لو لم أعرف كيف أجعل خمسة بنسات تبدو شلنًا، كنا سنظهر بمظهر مُحرِج أمام أهل المقاطعة. وفوق ذلك، ثمَّة فئة من الناس يجب على المرء مجاملتهم لكنه لا يرغب في تعريفهم على الدائرة الأقرب من أصدقائه. إذا أردتِ نصيحتي يا ماريون، فلا تشجعي شقيقات هاري أكثر من اللازم. هُن فتيات لطيفات وطيبات بالطبع، ويمكنك معاملتهن بكل لطف وكياسة؛ لكن لا تدْعيهن كثيرًا إلى البيت. فسلوكهن رجعي ومحافظ جدًّا، فضلًا عن أنهن لا يدرين شيئًا عن أناقة الملبس، وهذا النوع من الناس قد يجعل الطابع العام للمنزل يبدو دون المستوى.

ماريون: لا أظن أن قائمة ضيوفي ستتضمَّن العديد من «الفتيات اللطيفات الطيبات». [ثم أضافت ضاحكةً] فلا توجد اهتمامات مشتركة بيننا تكفي لكي نرغب في قضاء أوقاتنا معًا.

السيدة ترافيز: حسنًا، أتمنى فقط أن تتوخَّي الحذر يا عزيزتي. فالكثير من الأمور تعتمد على الطريقة التي سوف تبدئين بها حياتك، وإذا تصرَّفتِ بحكمة وتعقُّل، فلا أرى سببًا يمنع من أن تسير أمورك على خير ما يُرام. لا أظن أن لديك شكوكًا فيما يخص دخل هاري. لن يعترض إذا استفسرنا منه حول هذا الأمر، أليس كذلك؟

ماريون: أرى أن تثقي بي فيما يتعلَّق بتلك المسألة يا أمي. هذا الزواج سيكون صفقة خاسرة لي لو كان رصيده النقدي حتى غير مضمون.

السيد ترافيز [ينهض فجأة]**:** كم أتمنى ألا تناقش النساء تلك المسألة بهذه الطريقة العملية البغيضة. مَن يسمعنا فسيظن أن الفتاة تبيع نفسها.

السيدة ترافيز: أوه، لا تكن أحمق يا جيمس. لا بد أن يُراعي المرء الجوانب العملية في تلك الأمور. الزواج مسألة عاطفية من منظور الرجال، ولا بأس بذلك على الإطلاق. لكن المرأة لا بد أن تُراعي أن الزواج يحدِّد مكانتها الاجتماعية مدى الحياة.

ماريون: يا أبي العزيز، إن الزواج هو مشروع المرأة الوحيد. إذا لم تحقِّق ربحًا من بيعها لنفسها، فلن تتوفَّر لها فرصة أخرى، على الأقل بسهولة كبيرة.

السيد ترافيز: أُف! عندما كنت شابًّا كانت الفتيات يتحدثن عن الحب أكثر مما يتحدثن عن الدخل.

ماريون: ربما لم يحظين بما حظينا به من تعليم.

[يدخل دان قادمًا من الحديقة. هو رجل تخطى الأربعين بقليل، تبدو حواف بذلته الكتانية مهترئة بعض الشيء.]

السيد ترافيز: كنا نتساءل قبل قليل أين ذهب الجميع.

دان: كنا نبحر في النهر. وقد أرسلوني كي أجلبكم معي. إن المنظر خلَّاب عند النهر. والقمر بزغ لتوِّه.

السيدة ترافيز: لكن الجو في غاية البرودة.

السيد ترافيز: لا تقلقي من البرد. لقد مرَّت سنوات طويلة منذ أن تطلَّعنا معًا إلى القمر. سيعود هذا علينا بالخير.

السيدة ترافيز: آه يا عزيزي. أنتم يا معشر الرجال لا تتغيرون أبدًا. ناولني شالي إذَن.

[وضع دان شالها حول كتفَيها. ثم مشى الزوجان نحو النافذة حيث وقفا يتحدثان. خرجت ماريون ثم عادت وهي تحمل قبعة أبيها. أحاط الأب وجهها بكفَّيه وشرع ينظر إليها.]

السيد ترافيز: هل تحبين هاري حقًّا يا ماريون؟

ماريون: أحبه بقدر ما تحب المرأة رجلًا يحقِّق دخلًا مقداره خمسة آلاف جنيه سنويًّا. وإذا استطاع يومًا ما زيادته إلى عشرة آلاف، فسوف يتضاعف حبي له. [تضحك.]

السيد ترافيز: وهل أنتِ راضية عن هذا الزواج؟

ماريون: راضية جدًّا.

[هز رأسه في جدية معبرًا عن عدم رضاه.]

السيدة ترافيز: ألن تأتي يا ماريون؟

ماريون: لا. أشعر بالتعب.

[السيد ترافيز والسيدة ترافيز يخرجان.]

دان: هل ستتركين هاري وحده مع عصفورَي الحب هذين؟

ماريون [وهي تضحك]**:** أجل، دعه يرى كم يبدوان سخيفَين. أكره الليل، إنه يتتبع المرء ويطرح أسئلة. لا تدعه يدخل. تعالَ وتحدث معي. سلِّني.

دان: عن ماذا ترغبين أن أحدثك؟

ماريون: حدثني عن الأخبار. قُل لي كيف حال العالم؟ مَن هرب مع زوجة مَن؟ مَن احتال على مَن؟ مَن مِن المحسنين كان يسلب المال من الفقراء؟ مَن مِن القديسين ضُبط يرتكب إثمًا؟ ما آخر فضيحة؟ مَن انكشف أمره؟ وماذا كان يفعل؟ وماذا يقول الجميع عن هذا الأمر؟

دان: هل تُسلِّيكي هذه الموضوعات؟

ماريون [تجلس شاردةً أمام البيانو، وتلمس المفاتيح برفق مسترجعةً العديد من الذكريات]**:** وماذا غير ذلك؟ هل ستُبكيني؟ ألا ينبغي للمرء أن تسرَّه معرفة أصدقائه معرفةً أفضل؟

دان: أرجو ألا تستخدمي تلك الأساليب البلاغية. الكل بارع في الحديث هذه الأيام. إنها الموضة الجديدة التي تلت موضة زهور عباد الشمس. كنت أفضِّل زهور عباد الشمس، فهي أكثر بهجة.

ماريون: وستصير تفاهة الحديث موضة بعدما تنقضي هذه الموضة على الأرجح. لكني أفضِّل أولئك البارعين في الحديث. فهم أكثر مراعاة لآداب السلوك. يا لثقل دمك.

[تترك البيانو وتُلقي بنفسها على الأريكة ثم تلتقط كتابًا.]

دان: معكِ حق. لقد قضيت وقتًا في صحبة الليل. إنه يتتبَّع المرء ويطرح أسئلة.

ماريون: أي أسئلة؟

دان: أسئلة كثيرة، والكثير منها بلا إجابة. لمَ أنا شخص عديم النفع، مثل جذع شجرة يطفو فوق سطح النهر؟ لمَ سبقني جميع الشباب الآخرين؟ أنا رجل أبلغ من العمر، فلنقل تسعة وثلاثين عامًا، وما زلت أتمتَّع بكامل قواي العقلية والجسدية، ومع ذلك يراني الجميع بلا قيمة، لكني أعرف قيمتي. كان من الممكن أن أصبح رئيس تحرير كُفئًا، أكرِّس صباحي كل يوم من الساعة العاشرة حتى الساعة الثالثة ظهرًا لإدارة شئون العالم، أو سياسيًّا مشهورًا، يحاول أن يفهم ما يتحدث عنه وأن يصدقه. لكن مَن أنا في الحقيقة؟ لست سوى مراسل صحفي أتقاضى ثلاثة بنسات ونصفًا عن كل سطر أكتبه، بل أحيانًا لا أتقاضى سوى بنسين.

ماريون: هل يهم ذلك؟

دان: هل يهم؟! هل يهم العلم الذي يرفرف فوق أبراج مدينة بطليوس؟ رغم ذلك سالت دماء الفرنسيين والإنجليز أنهارًا في سبيل رفع العلم الثلاثي الألوان أو علم الاتحاد فوق تلك المدينة. هل يهم ما إذا كانت خرائطنا تحدِّد موقع نجم واحد أم أكثر؟ بَيْد أن أبصارنا تكل من التحديق في أغوار النجوم. هل يهم أن تنجح سفينة واحدة في الإفلات من حصار الجليد القطبي؟ رغم ذلك يُفني البحَّارة أعمارهم في سبيل بلوغ قطبَي الأرض. إن لعبة الحياة تستحق أن يلعبها البشر. وثمة معنًى بها. إنها تستحق أن نلعبها حتى لو كان الدافع الوحيد لذلك هو الارتقاء بأرواحنا. أتمنى لو كنت قد شاركت بها.

ماريون: لماذا لم تشارك؟

دان: لا توجد شريكة لعب. من الممل أن يلعب المرء بمفرده. فاللعبة تصير بلا هدف.

ماريون [بعد فترة صمت]**:** كيف كانت تبدو؟

دان: كانت تبدو مثلكِ إلى حدٍّ كبير، حتى إنني أحيانًا أتمنى لو لم ألقَكِ قطُّ. أنتِ تجعلينني أفكر في نفسي، وهذا الموضوع يسرني أن أنساه.

ماريون: وهذه المرأة التي تشبهني، هل كانت قادرة على منح الرجل بيتًا وحياة؟

دان: دون شك.

ماريون: هلا حدثتني عنها؟ هل كان لديها الكثير من العيوب؟

دان: كانت عيوبها كافية لأن تجعلني أحبها.

ماريون: لكن لا بد أنها كانت امرأة صالحة.

دان: كانت صالحة بالقدر الذي يجعلها امرأة.

ماريون: عبارتك هذه قد تنم عن تقدير كبير للنساء أو بخس لقيمتهن.

دان: إنها تعبِّر عن تقدير كبير من منظوري، فأنا أرى أن النساء قليلات العدد.

ماريون: قليلات العدد! كنت أظن أن علماء الاقتصاد يعتقدون أن أعدادنا أكثر من اللازم.

دان: بل لا يوجد عدد كافٍ منكن، كافٍ لجميع الرجال. لهذا السبب المرأة الحقيقية لها عشاق كُثر.

[يسود الصمت بينهما. تنهض ماريون، لكنَّ عينَيهما لا تلتقيان.]

ماريون: كم صار حديثنا جادًّا!

دان: يُقال إن الحديث بين الرجل والمرأة دائمًا ما يصير حديثًا جدِّيًّا.

ماريون [تتحرك بعيدًا، ثم تتردد، فتستدير عائدةً]**:** هل تأذن لي بسؤال؟

دان: بالطبع، تفضلي.

ماريون: إذا ... إذا شعرت في وقت ما باحترام وتقدير تجاه امرأة، هل ستسعى، لأجل خاطرها، إلى بلوغ المكانة التي تستحقها في العالم، إن عبَّرَت لك هي عن رغبتها في ذلك، هل ستحاول تحقيق ما يجعلها تفتخر بصداقتك، ما يجعلها تشعر بأن حياتها ذاتها لم تكُن بلا هدف؟

دان: فات الأوان. إن الحصان العجوز لا يملك سوى التطلُّع من فوق السياج ومراقبة الخيول الشابة إذ تركض في حلبة السباق. في بعض الأحيان، أشعر بالطموح القديم يطل برأسه، لا سيما بعدما أحتسي كأسًا من النبيذ الجيد، وهاري، بارك الله فيه، يقدِّم نبيذًا من أجود الأنواع، لكن في صباح اليوم التالي ... [أكمل جملته بهزِّ كتفَيه].

ماريون: إذَن لن يكون في وسعها فعل أي شيء؟

دان: قد لا تستطيع أن تفعل شيئًا لتحسين حظوظه، لكنها ستحسِّن كثيرًا من حياته ونظرته لذاته. يا صديقتي الشابة لا تهدري شفقتك على رجل يحب أو على طفل يبكي لأنه يرغب في لمس القمر. إن القمر يستحق أن يبكي المرء لأجله.

ماريون: يسعدني أنني أشبهها. ويسعدني أنني لقيتك.

[تمدُّ له يدها، يمسك بها للحظة. ثم تخرج.] [يجد زهرة سقطت من فستانها، لا يعرف إن كانت تركتها عمدًا أو سهوًا. يلتقط الزهرة ويقبِّلها؛ يديرها بين أصابعه للحظه مترددًا، ثم يتركها تسقط مجددًا على الأرض.]


هنداوي